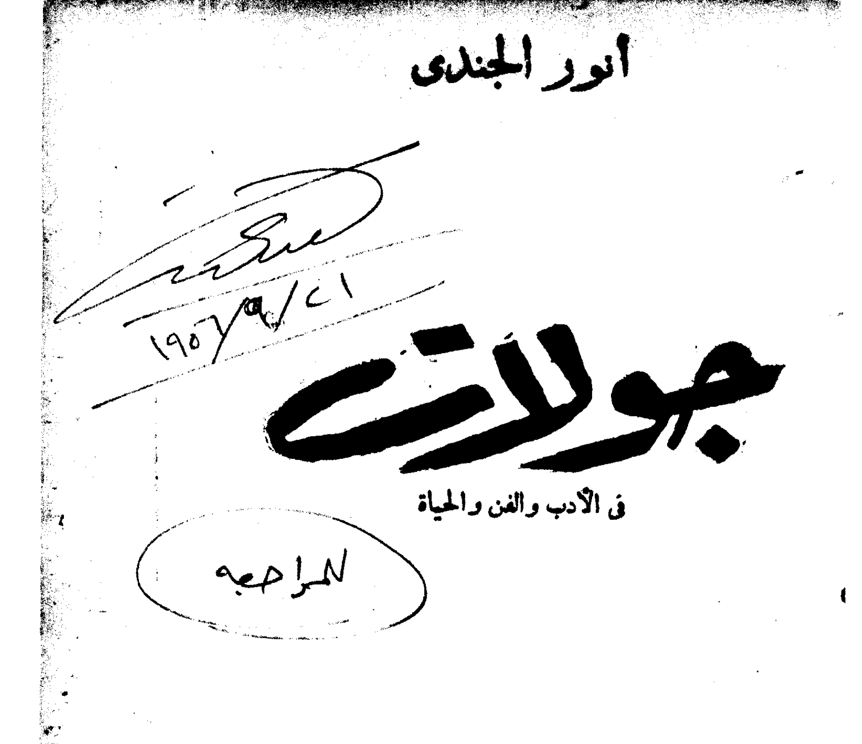
أنور الجندى



جولات

في الأدب والفن والحياة

القاهرة

دار الأعلام للطبع والنشر

١٩٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

جولات

بدأت أكتب تحت عنوان « جولات » فى ١١ يناير عام ١٩٤٣ فى جريدة « الوادى » التى كان وما زال يصدرها فى القاهرة الزميل الطيب الأستاذ محمد نجيب وأشقائه وكنت فى هذا العام قد أخذت أنشر آثارى فى الصحف الإقليمية التى كانت تصل إذ ذاك إلى بلدتى « ديروط » ومن بينها صحيفة الانذار التى كان يصدرها فى المنيا الرجل النبيل المرحوم صادق سلامه . والذى كان أول من وجهنى فى ميدان الصحافة منذ عام ١٩٣٢ .

فى هذا العام الذى بدأت أكتب فيه جولات كنت ما زلت حدثاً أدرس التجارة بالليل وأباشر عملى فى بنك مصر بالنهار فى مدينة القوصية . وقد شاقنى إذ ذاك ما كان يكتبه أصحاب الابواب الثابتة فى الصحف وفى مقدمتها الحديث ذو شجون للدكتور زكى مبارك وحديث الاربعاء للدكتور طه حسين ، وما كان يكتبه الصاوى بالأهرام تحت عنوان « ما قل ودل » وما كان يكتبه المرحوم لطفى جمعه فى نصف العامود بالبلاغ تحت عنوان « لعل وعسى » وما كان يكتبه « محمدين » الذى هو المرحوم أحمد حافظ عوض فى كوكب الشرق.

أغرانى هذا اللون من الكتابة وتمنيته ، وأحببت أن أقلده ، فأن فتحت لى جريدة الوادى صدرها واستقبلت نصف عامودى بالصفحة الأولى حتى هونى هذا الاتجاه ومضيت فيه .

وكانت هذه الجولات لمحات من الذكريات والصور التى تصادفنا فى الحياة وفى هذه الفترة عرفت الصديق الأديب عبد المعطى المسيرى وصاولت الزميل محمد رسلان البنى الذى كان يكتب تحت عنوان « رذاذ » .

ثم انقطعت جولات عن جريدة الوادى لتبدأ فى إحدى المجلات الأسبوعية التى شاركت فى تحريرها بعد وصولى إلى القاهرة عام ١٩٤٦ . ثم بدأت أنشر باب جولات بعد ذلك فى جريدة الزمان أعوام ٥٠ و ٥١ و ١٩٥٢ .

وفى جريدة الجمهورية عاودت نشر جولات بتوقيع « عطارد » فى أكتوبر عام ١٩٥٥ ؛ وكنت قد هيأت لها اتجاهاً تاريخياً يتناول بعض الأعلام والشخصيات .

فعنوان « جولات » قد ارتبط بى منذ عشرين عاما . وفى هذه المجموعة التى اخترتها فصول نشرتها تحت هذا العنوان فى عدد من المجلات والصحف . فى خلال هذه الفتره وهى فصول تمتاز بتنوع العرض والصورة والهدف رأيت أن أقدمها للقارىء . وحرصت على أن تكون جامع من النظرات العامة والذكريات الخاصة والتأملات الذاتية ، كما حرصت على أن تكون مطبوعة بطابع الفكر والتأمل الهادىء .

وسيلاحظ القارىء أن أسلوبى فى هذه الفتره كان يتطور تطوراً سريعا ، وتبدو الفصول القديمة أقل درجة فى الجوده من الفصول الأخرى التى كان الاسلوب فيها قد انصقل بكثره الممارسة وطول الكتابة ، وقد حرصت على أن أحتفظ ببعض الفصول كما كانت مكتوبة تسجيلا للاتجاهات الفكرية والكتابية وكيف تطورت خلال هذه المرحلة الطويلة من حياتى الادبية .

أنور الجندى

شارع الهرم فى ٣٠ يونيو ١٩٥٦

عبقرية القرآن

كتاب، لا يصل إلى مكانته فى عالم الفكر والفلسفة والتشريع كتاب، فيه ذخائر فياضة مشرقة تكشفها النفوس من أول وهلة وتأخذ ببهرها العين فى لمحة واحدة ثم هى تتجدد وتزداد إشراقا كلما رددت قراءتها وكلما أعيدت تلاوتها وكلما استزيدت وهى تتجدد وتزداد وضوحا وقوة عند الذين يقرأونه لأول مرة وعند المتعمقين فى فهم معانيه وعند الراغبين للبحث فيه عن مواطن إعجازه، وللقرآن وقع فى النفوس قوى كل القوة شديد كل الشدة فهو فى الزجر عنيف عنيف وفى الهدى رقيق خفاق وفى البلاغة فياض مشرق، وفى الحكمة والتشريع قوى عزيز وهو فى مختلف آياته يملأ النفس بشىء من الخوف أو يلقى عليها لونا من الرهبة أو يملأها بطمأنينة الإيمان فيسبل عليها ستاراً من الحنان ورداء من رحمة الله الواسعة، فأنت تلجأ إليه فى ساعات خوفك وأزماتك ووحشتك، فتجد فيه العزاء.

وآياته متكاتفة متماسكة، وبيانه قوى فياض يعلو عن قدرة البشر، ويرتفع عن تقليدهم، لا يستطيع كاتب مهما أوتى من قوة البيان أن يضارعه. كنت كبير الرغبة فى دراسته وقراءته والاستماع إليه التزود من جميل

معانيه وآياته وكلماته ، وكانت هذه الرغبة تلح على دائماً فقد قرأته وأنا فى الخامسة وظللت أحفظه إلى سن العاشرة . ثم شغلتنى شواغل التعليم عنه فنسيته حفظا . بيد أن روعة معانيه وطيب عبيره بقى فى نفسى لا يذهب ، يفتح أمامى دائما باب الرغبة فى استقصاء آياته ،وأنا شغوف بأن أنقل منه إلى روحى فيضاً يزيدها قوة إيمان . وإلى بيانى شذى يزيده قوة وضوح .

ولما آن لى أن أقرأه وأجمع كلمه شعرت بالخوف من جديد . ذلك أنه فتح لى أبواباً من الحكمة والبلاغة فكان يعترى قلبى بعض الارتجاف وأنا أنقل بعض الآيات وكنت أشعر كأنى أشوه هذا الجمـال الموحد الممتد فى تواصل ايات وراء بعضها قوية لا يصيبها فتور ولا نبوه ولا نحسير ولا قصور كأنما هى النهر المتدفق لا تقف فى طريقه الجنادل ولا الصخور .

كانت هذه الفكرة تلح على طيلة قراءتى وتكاد تصرفنى عن غايتى وتنأى بى عن مواصلة الدرس والنقل والتأمل .

إذن فأنا قد رغبت إلى هذه الدراسة، لتوسيع دائرة الروح وتدعيم جوانب النفس وإلى زيادة البيان والإيغال فى البلاغة والتلذذ بروائع القرآن وإعجازه

ولعل هذا هو الذى نفح روحى قوة لمواصلة التأمل ؛ فلست أعرف شيئاً يزيد اللغة قوة والفكر وضوحا والصورة روعة . ويدفع القلم فى محيط جديد إلا ترديد هذه الآيات الذى لا تتطاول اليها بلاغة الأقلام .

ولقد قصدت إلى (القرآن) خالصاً فلم استعن بأى مرجع إلا بمقومات نفسى ووجدانى وما أؤمن به من أن هذا الكتاب هو السبيل الوحيد الذى يفسح فى اللغة العربية آفاقا فياضة ويزيد الروح قوة وثقة كلما اعتلج بها هم أو ساورها خوف .

ما أظن أن هناك كتاب قدر له الخلود والشهرة على مدى عصور البشرية وفي مقتبل الأيام مثل ما قدر ذلك للقرآن . ذلك الكتاب الجامع الفياض بالمعاني والصور والآيات والأدلة والحوافز والبراهين والمفعم إفعاما بأخصب ألوان الصور الفنية البارعة والبيان المعجز والبلاغة الفياضة التي لا تزال وستظل تحتذى .

وإن قارئ القرآن لواجد منه في كل عصر من عصور البشرية ما يتلاقى مع مذاهب التفكير ويوافق عقله ومن اتجاهات المعاني ما تتسق مع تفكيره . وإن في القرآن لسرائر ذهب إلى بحثها والتنقيب عنها واستنتاجها علماء أفنوا العمر في الاستدلال

وفي القرآن مذاهب قوية في المساجلات والنقاش والحوار وبه دراسات تحليلية نفيسة ، وبيانه فيه نذير وبشير وقصص وحوار وفن مما يعد مرجعا لمذاهب الاجتماع والتشريع والفقه .

ما رأيت كتابا يثير في النفس مختلف العواطف والأحاسيس القوية التي لا تهدأ قدر ما رأيت في هذا الكتاب .

إنه ليثير في النفس مزيجا من السحر والخشوع والجلال والايمان والرهبة والخوف والسرور والحنان والأمن والسعادة . وأنه ليملأ النفس بأحاسيس العوالم كلها ، وأنك لترى مذاهب الخصومة وطرائق الإقناع والتهديد والوعيد ، هذا الكتاب القوي فيه الأثر الذي يخشع له القلب خشوعا وتفيض له النفس بالرهبة والخوف والخشوع ويملأ العين بالدموع الغزار لذلك التصوير البليغ ، وذلك الحوار الجميل .

وتقرأ الأمثال التي ضربها فترى قوة المثل ، وتنغمس في الحوار فترى فيض اليقين يتجلى في أشد وضوح ، وفي هذا الكتاب الحكيم لتعابير من جيد البيان وبليغ الكلام لو استخدمت في الأساليب الحديثة لأدخلت إليها عنصر القوة وعنصر الجمال . فاذا قرأها قارئها أو سمعها سامعها آمن بها واعترف بقوة إقناعها

قرأت هذا الكتاب الكريم صغيرا ، فلما كبرت وأخذ الأدب يملأ شعاب روحي شعرت بذلك السحر الخلاب كلما صافحت عيناي ذلك الكتاب العزيز فرأيت بعد طول المراجعة أنه « ليس من البر » أن نقرأ هذا الكتاب قراءة لاهية بل يجب أن نجد كل الجد وأن نتمتع به كل المتاع وأن نغمس أنفسنا في سحره وجماله وبيانه حتى تمتلىء نفوسنا من فيض ذلك المنهل الكريم وأن نعود إليه بين حين وحين لنجدد به شباب الفكر وشباب الروح .

(مقدمة بحث طويل عن ذخائر القرآن)
جريدة القاهرة : ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٠

عظمة محمد

قمة الجبل فى تاريخ الأبطال والقادة المصلحين ، هذا النبى الذى هز الدنيا وتقلها من الظلام إلى النور « إن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » .

أخذت الرسالة بجامع قلبه فانفق فيها وقته وحياته وعاش لها .

استنبئ على رأس الأربعين ، فى سن الكمال والرجولة . وجمع الله له الوحى والاجتهاد ، واصطنعه لدعوته نعاش لها وبها .

وعمل بيده فلم يكن كلا على أحد . وأوتى صفاء الذهن واعتدال المزاج إلى قوة الجسم وحسن الهيئة .

وجمع الله له بين الثقة بالنفس والشجاعة والتواضع وقوة البيان وظاهرة الوحى وتأييد السماء .

وأعطى خمسا لم تعط لنبى من قبله : نصر بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت

له الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمته أدركته الصلاة فليصل وأحلت له الغنائم ولم تحل لأحد من قبله . وأعطى الشفاعة . وكان النبي يرسل لأمته خاصة وأرسل هو للناس كافة .

وجمع له بين اليتم والفقر فصرف بهما عن شر الترف . وعوفى من تدليل الطفولة وشوائب الثراء . ولطالما قال : « اللهم ارزقني كفافا وارزق آل محمد كفافا ، اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين .

وأثر عنه أنه كان متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ولا يتكلم من غير حاجة ، طويل السكوت .

وإذا مشى خطى تكفؤاً ، ومشى هوناً ، وإذا التفت ، التفت جميعاً ، خافض الطرف ، أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره على وجه أحد ، إذا أشار أشار بكفه كلها وإذا تعجب قلبها وإذا تحدث اتصل بها وضرب بإبهامه اليمنى راحة اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه . جل ضحكه التبسم ويفتر عن مثل حب الغمام ، يرفع يديه حين يدعو حتى يعرى بياض إبطه ، يتلفت بكل جسمه ، يغضب فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان .

دخل على أم هانىء يوم الفتح وكان جائعاً فقال لها : أعندك طعام ؟ قالت إن عندي لكسر يابسة ، وإني لأستحي أن أقدمها لك ! قال : هلميها . فكسرها في ماء وجاءته بملح . فقال : ما من أدام ؟ قالت : ما عندي إلا شيء من خل فقال : هلميه . فلما جاءت به صبه على طعامه فأكل منه ثم حمد الله وأثنى عليه.

يصرع الرجل القوى ، ويركب الفرس عاريه ، إذا سقى الناس شرب آخرهم وقال : ساقي القوم آخرهم شربا .

يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ، ما سئل شيئاً قط وقال لا ، وكان أجود من الريح المرسلة . تقول عائشة : لقد كنت أبكي رحمة له مما أرى به ، وأمسح

بيدى على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول . نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا . فيقول : يا عائشة ، مالى وللدنيا ، إنما أنا والدنيا كعابر سبيل . وكان يبيت الليالى طاويا ، إذا مشى أسرع حتى يهرول الرجل وراءه فلا يدركه ، كأن الأرض تطوى له . يحب التيمن فى كل شىء ، فى طهوره وترجله وتنقله

كان يؤتى له بالباكورة من الفاكهة فيقبلها ويضعها على عينيه ويقول : « اللهم كما أريتنا أوله فارنا آخره » .

يقول أنس : كنا نعرف خروج النبى بريح الطيب ،
ما جلس إليه أحد إلا ظن أنه أقرب الناس إلى نفسه .
لا يضحك إلا تبسما ولا يلتفت إلا جميعا .

لا يطوى عن أحد بشره ، ويتفقد أصحابه . وإذا أراد أن يقول شيئا لأحد لا يجابهه ، بل يقوله فى جمع على سبيل الذكرى .

إذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس . ويعطى لكل جلسائه بنصيبه ، ولا يجلس ولا يقوم الا على ذكر .

رفض أن يركب أكثر من مرحلة فى بدر ، فلما كلمه على ومرثد — وكانا شريكاه فى الراحلة قال : « ما أنتما بأقوى منى ، وما أنا باقل حاجة الى الثواب منكما » .

اذا سلم لم يسحب يده حتى يكون صاحبه هو الذى يسحبها ، واذا تصدق وضع الصدقة فى يد المسكين . وكان يذهب الى السوق ويحمل بضاعته ويحتقل الشاة فيحلبها ويأكل مع خادمه .. عمل مع العاملين فى بناء مسجد المدينة وفى الخندق . ما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن آثما .

يصلى فى الليل حتى تتورم قدماه ، وكان سريره من سعف النخل وفراشه من أدم وحجراته من طين .

وكان يصبح فلا يجد في بيته طعاما فينوى الصوم . جاءه رجل وهو يمشى فقال اركب وتأخر عن حماره ، فقال محمد . أنت أحق بصدر دابتك منى إلا أن تجعله لى .

وله دعاء اذا جاء أمر يحبه أو يكرهه ، واذا أراد سفراً او نوما أو يقظة وإذا لبس ثوبا أو أكل أو شرب ، واذا تقلب من الليل . وكان يسترجع ويقول : « اللهم أنا بشر أغضب وأسف كما يغضب البشر . فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوت له بدعوة فاجعلها له رحمة .

فزع المسلمون ذات ليلة فلما خرجوا وجدوه عائداً يقول لهم : لن تراعوا لن تراعوا .

فى الخندق كان يحمل التراب مع القوم ويرتجز لهم ليذهب عنهم الضيق « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة » .

وكان اذا حز به أمر أكثر من الصلاة .

كان فى قلبه معين لا ينضب من البشاشة والتفاؤل والأمل فى نصر الله ،وكان صحابته ينفضون آلامهم إليه فيسرى عنهم آلامهم ويعيد لهم الأمل والطمأنينة

رمضان ١٣٧٢

فى رحاب عرفات

بكرنا إلى المسجد نصلى الصبح ، ثم نتأهب لعرفة ، وبعد قليل من الوقت ركبنا السيارة إلى سفح عرفات، باسم الله وعلى بركة الله فوصلناها قبيل الظهر وهرعنا توا إلى مسجد نمره .

ما شاء الله .. ما هذا السفح العريض الممتد الذى اصطفت فيه الخيام ؟ خيام المسلمين الذين جاءوا من مختلف أقطار الأرض .. جاءوا ملبين مكبرين إلى عرفات .

أى جلال أروع من هذا الجلال ؟ وأى إيمان أبلغ من هذا الايمان . . الألوف المؤلفة تحتشد فى صعيد واحد ، وفى سفح واحد تدعو ربها فى ضراعة وذلة وافتقار ، لا فرق بين كبير وصغير وغنى وفقير .

اجتمع كل أولئك فى سفح جبل الرحمة يسألون الله .. يسألونه رحمته التى عمت كل شىء .

أدينا صلاة الظهر والعصر فى مسجد نمره «جمع تقديم» - كما يقول الفقهاء - ثم توجهنا إلى الخيام العديدة المتناثرة فى السفح الرحيب، كل جماعة ومعها مطوفها وعلمها.

وفى الخيام تناولنا غداءنا.. واضطجعنا ساعة أو بعض ساعة.. هاهى نسمات الأصيل تهب، فتخفف حرارة الشمس اللاذعة، عن حجاج بيت الله الذين يهرعون إلى الجبل فيتسلقونه داعين ربهم تضرعا وخيفة.

وها هو «إمام» خيمتنا يدعو ربه فى حرقةوضراعة، ونحن نؤمن وراءه فى جلال وخشوع. تنهمل من عيوننا الدموع ويرتفع النحيب.

ثم نسير إلى الجبل فنصعد الصخرات الكبار التى كان يصعدها رسول الله وننظر فاذا الجبل قد توارى خلف تلك الأجسام التى ارتقته و[illegible] صفحه وقد ارتفعت أكفها نحو السماء واتجهت وجوهها نحو الفضاء [illegible]يد

ثم تندفع هذه الكتل البشرية المتراصة فى دعاء.. ومضى[illegible] تدعو [illegible] حرقة المشوق إلى المغفرة ولهفة الظامىء إلى الرضا.

ثم تنطوى صفحة النهار.. وتغيب الشمس ويتوارى قرصها وراء الجبال ونحن ما نزال ندعو إلى أن يمد الليل رواقه فينشر الظلام ثم نفيض من حيث أفاض الناس. وها هو الفوج الزاخر ينصرف فى رعاية الله إلى «المزدلفة».

لم نتم بالمزدلفة إلا ساعات قلائل، وصحونا تغمرنا نسائم البهجة، فصلينا الصبح فى مسجد المشعر الحرام، ثم جمعنا الجمرات، وعدنا إلى (منى) وفيها أفطرنا، ثم رمينا حجرة «العقبة»، ووقفنا هناك نتطلع يمنة ويسرة، لنرى بعين الخيال مكان بيعة العقبة الكبرى، البيعة السبعينية التى بايعها الرسول أهل يثرب والأوس والخزرج. ومعه عمه العباس.

ثم مضينا إلى مكان فى الجبل قيل لنا أنه مسرح القصة الكبرى.. قصة

ذبح ابراهيم لإسماعيل . ووقفنا أمامه ننظر ، ونحن فى مثل اليوم الذى كادت أن تقع فيه هذه المأساه الهائلة ، وخيل إلى كأنما أرى سيدنا إبراهيم عليه السلام يحاور ابنه ويقول له .

— يابنى إنى أرى فى المنام إنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ فيجيبه اسماعيل راضياً مسلماً نفسه اليه : ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين.

ثم يبرز الخنجر من حزام ابراهيم ، يبرق فى ظلال الشمس . وقد أخذته رعدة ، وبانت فى وجهه علائم الاضطراب ، فهو « إنسان » يرى اسماعيل فلذة كبده وقرة عينه ، وهو فى نفس الوقت « نبى » يرى أمر ربه قضاء أمحققا لا مندوحة عنه .

ويرى اسماعيل حيرة أبيه فيذهب فى إرضائه إلى آخر الشوط . . فيبتسم له ، ويصف له كيف يوثقه ، وكيف يضع وجهه بحيث لا يراه ، ثم يوصيه بألا يخبر أمه بالأمر بعد أن يعود .

ويأخذ ابراهيم فى التنفيذ ، ويوثق اسماعيل . . ثم يعزم الأمر . ويرفع الخنجر ليقضى أمر ربه .

تقول الروايات : « وهنا تظلم الدنيا وتغيب الشمس وتتصاعد آهات الملائكة .. تسأل الله أن يرحم شيخاً كبيراً ، ويافعاً صغيراً » .

ثم ينزل الفداء من السماء . وتصور آيات القرآن هذا المعنى الجليل فى عبارة أخاذة رائعة : « فلما أسلم وتله للجبين . وناديناه أن ياابراهيم قد صدقت الرؤيا .. إنا كذلك نجزى المحسنين . « وفديناه بذبح عظيم »

تمثلت لى هذه الصورة وأنا واقف إلى جوار المذبح . ثم رفعت رأسى إلى الجبل الأشم وعجبت لحكمة الله .

إن قصة إبراهيم هى التى نقلت « الفداء » من الماديه إلى الروحانية ورقت به إلى المعنى الإنسانى العالى .

الزمان ١١ ديسمبر ١٩٥١

التصوف على «البلاج»

من أعجب المفارقات أن يذكرنى «البلاج» بالتصوف .

بل لعل غاية العجب أن أكتب هذا الفصل أمام إحدى «كباين» ستانلى باى وليست هذه هى المرة الأولى فيما أعتقد . التى تدعو المفارقات فيها إلى مثل هذه الدعوة .

إننا لا شك نمر بمحنة عنيفة . تبدأ أطرافها الأولى هنا على البحر وتنتهى هناك فى معترك الحرية واستخلاص الحقوق . وإقامة المجتمع الصالح .

وليس فى الإمكان أن يجتمع الخير والإثم معـــاً . ولا أن يشترك الحق والباطل . ولا يمكن أن نواجه المستقبل إلا بنفوس مفطومة من الشهوات وأوضار اللذات .. فاذا لم نستطع أن نصوغ هذه النفوس . كنا أعجز عن أن نحقق لوطننا العزيز أو لبلادنا ما نبتغيه من مجد .

ولا عبرة بما يقوله البعض من أن النفس الإنسانية تستطيع أن تجمع بين

بين الجهاد واللذة . أو أن بعض المكافحين والمناضلين كانوا فى حياتهم الخاصة على غير الصورة المثالية التى كانوا يدعون لها .

إن « البلاج » الآن مدرسة ضخمة من مدارس الرخاوة والميوعة والانطلاق يتلقى فيها الآباء والأمهات والشبان والفتيات والأطفال دروساً على جانب كبير من الخطورة . إنها أبعد أثراً فى مستقبل هذا الوطن من مدرسة السينما أو قل إنها التطبيق العملى لتلك الصورة المتحركة .

انى أشك كثيراً فى قدرة الشباب الذى اعتاد أن يقضى بضعة شهور من العام فى محيط ينضح بالإغراء . واشترك إلى حد كبير فى تلك المناورات التى تقوم على الشاطىء وفى الأمواج وفى الكابينات . أشك كثيراً فى أنه يستطيع الصمود يوما لمعركة فاصلة فى سبيل الحرية أو الإصلاح .

وهذه الفتاة وهى النصف الثانى من الأمة ، هى الجزء البعيد الأثر فى رعاية الزوج وتنشئة الابن ، كيف يمكن أن يعتمد عليها وهى على هذه الصورة من الاندفاع فى العباب العنيف ؟ .

أنا أومن كل الايمان بحق الجسم فى الرياضه والهواء والماء . ولكن ليس ليس على هذه الصورة المزعجة القاسية ، التى لا يمكن أن تحتملها نفسية الشباب المراهق ، دون أن تدفعه دفعاً إلى اتجـــاه قد يكون بعيد الأثر فى حاضره ومستقبله .

فى الإمكان أن يتاح للأسر وللشباب وللفتيات أن يحققوا جميعا غاياتهم من الاستفادة من الهواء والماء بطريقة أو بأخرى ، أما على هذه الصورة فليس الأمر أمر صحة أو راحة أو إجازة ، فان الحياة فوق البلاج ليست باليسيرة على النفوس التى تعيشها ، وليست مؤدية بأية حال إلى ذلك السلام أو الاستجمام المنشود .

وإنما هذا « سوق » يقام فيه كل أنواع الصراع والصياح والضجيج وفيه قسوة النزاع النفسي الداخلي ، وأسباب الإغراء ، ووسائل المتاع الجسدى ، واستفزاز الشهوات وتدفقها واندفاعها .

إن الحياة في القاهرة طوال العام ليست إلا مقدمات أو نتائج لهذه الفترة التي يقضيها الفتى أو الفتاة على البلاج . إنها فترة التحضير والأحلام بالأجساد العارية ، والجلسات المائلة والنظرات الباسمة ، أو هي النتائج القاسيه للحظات التي استحكم فيها الهوى ، أو تطامنت فيها الغريزة .

إن « الحرية » التي يتمتع بها الناس على البلاج « ضريبة » قاسية تدفع من الأجساد ومن النفوس ومن الأرواح ، تدفع من حساب هذا الوطن ، ولا يستفيد بها إلا خصومه ؛ فهي تؤخر نهضته أعواما بل أجيالا . وهي لا تفسد نفوس الجيل الحاضر فحسب ، بل تترك جراثيم المرض لتنمو في أجساد أخرى ما زالت يافعة نضرة ، فاذا استوت كانت أعجز من أن تقاوم التيار أو تواجه الحقائق ، فاذا ما اصطدمت في « معركة » خرت كليلة واهية .

إن الأمم التي أطلقت لنفسها العنان في ميدان اللهو كانت قد تحررت أولا ونضجت ، واستحصدت شخصيتها . فكان عليها بعد ذلك أن تلهو . أما «نحن» الذين ما زلنا نكافح ونجاهد ونصارع في سبيل الوجود الذاتي ؛ وفي سبيل تحرير أوطاننا وإقامة دعائم مجتمع كامل ، فإننا في حاجة إلى سواعد قوية مفتولة ونفسيات قد بلغت غاية السمو والكرامة والعزة ، نفوس قد فطمت عن الشهوات وترفعت عن الصغائر وتسامت عن النزوات ، فحفظت كيانها الروحي والنفسي والعقلي قوياً عالياً . ولاشك أن مدرسة « البلاج » تتعارض مع إيجاد هذا النوع من الشباب تعارضا كاملا ؛ بل إنها من أسباب القضاء عليه . إنها تمده بالمادة السامة التي تحطم البقية الباقية فيه ، فلا تدعه يستطيع يوما ، أن يقف موقفا حاسما ، أو يصمد في جولة حامية .

ولعل هذه المعانى هى التى جعلتنى أفكر فى «التصوف» . التصوف المستنير الذى عرفه عمر وعلى والحسن البصرى والجنيد .

هذا الذى يرتبط فيه الزهد عن مغريات الدنيا بالقدرة على مواجهة الحقائق .

فليس شك أن الرجل « الجنتيل » الذى لا يستطيع أن يجهر بكلمة الحق هو فى الأغلب رجل غلبت عليه المطامع الدنيوية ، فهو يجامل ويتملق ويسمع ما يكره ، ويخفى آرائه الخاصة حتى لا ينشىء خصومة مع فلان أو فلان ؛ ممن قد تضطره الحياة يوما أن إلى أن يلجأ اليه . وبهذا يظل أمعة . ومصدر هذا أن متاع الحياة قد وقذه ، فماتت فى نفسه روح الجرأة والشجاعة الأدبية .

أما الصوفى الزاهد الذى استهان بالدنيا واحتقرها . فهو أجرأ الناس فى قول كلمة الحق . ونقد ما يراه .

ولذلك عرف المتصوفة بالجرأة على الزعماء والأمراء والحكام يجبهونهم بكلمة الحق : ويقولونها سافرة جريئة ولا يبالون . لأن الحياة هانت عليهم فلم يعد يخيفهم الحرمان منها . ولأنهم قد استخفوا بزخرفها . وانمحت من قلوبهم مطامعها . فأصبحوا يرددون مع الصوفى القديم : « ان قتلى شهادة . وسجنى خلوة . وتغريبى سياحه » .

والتاريخ يذكر شعيبا والفضيل بن عياض وعطاء وأبى حازم وعمارة بن حمزة والأوزاعى . بانهم كانوا زهادا وصوفية . وقفوا مواقف الجرأة فى تذكير الخلفاء بعيوبهم وأخطائهم . ورفضوا ما يقدم لهم من أعطيات أو هدايا . وكان الخلفاء من سليمان الى المنصور الى الرشيد الى المهدى يسمعون نصحهم بقلوب واجفة . ونفوس متأهبة لقبول النصح .

وعندما وضع الغزالى أصول التصوف . نصح الصوفية باعتزال الأمراء والحكام . والانصراف عن موائدهم . حتى يكون لديهم من الشجاعة ما يكفيهم

لأداء رسالتهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ونحن فى حاجة الى موجة شديدة من التصوف . حتى نقاوم ذلك الخطر « البلاجى » وقد كان التصوف يغزو ميادين الحيـــاة عندما يجنح الناس الى الترف والغنى . وينصرفون الى الأمصار يكونون الثروات . فكانوا بذلك عاملا « سد الفراغ » كما يقول المحدثون .

ويرمى التصوف فى صميمه إلى القناعة ونفض اليد من البريق . وشغل القلب عن المتـاع . والانصراف عن زخرف المال والنضار الى ما هو أسمى منه .

والتصوف فى غايته يدعو إلى القصد من متاع الدنيا ، رجاء متاع الآخرة والانصراف عن كثير من حلال المتاع خوف الوقوع فى حرامه ، ويهدف إلى حرمان النفس مما تتطلع اليه مما فى يد الناس .

وكان هؤلاء الصوفيه أنفسهم يحملون السيف إبان الغزو ، فاذا انتهى الجهاد بالسيف عادوا إلى جهاد النفس وإخلاص النية لله .

وليس شك أن انصراف النفس الإنسانية فى بعض العهود عن التصوف هو الذى أرخى العنان لهجمات التتار والصليبيين ، وكان عاملا فعالا من عوامل الهزيمة ، إذ واجهت هذه القوات التى كانت تحمل فكرة معينة جيلا مريضاً رخواً قد أضرت به الرغبات وقتلت قوته وصلابته ، فلم يستطع أن يقف أمام الجحافل المغيرة أو يردها . فلما برز مرة أخرى لرجال الذين أشربوا روح الصوفية الحقة أمثال الشهيد نور الدين زنكى وغيرهم أمكن مقاومة العتـــاة وسحقهم واستعادة مجد البلاد .

هى الصوفية الناصعة الصافية التى كانت تعتصم باحتقار المغانم والأموال والجاه ـ فى سبيل الله ـ وترى رجالها فوق سروج الخيل ، وأطباق الماء ،

وأعماق الصحراء .

إن نظام الفروسية التى اقتبسه الأوربيون ، نظـام صوفى ونظـام الفتوة القائم على الكرم والسخاء والشجاعة والمروءة نظام صوفى ، وهما يهدفان فى جملتهما إلى أن يجرد الفرد نفسه للأمة ، فيعيش الجماعه ويعيش للفكرة ويعيش المثل الأعلى .

ولا شك أن روح الصوفيه الخالصة هى التى دفعت أبى حنيفة عن أن يقبل القضاء ، وهى التى أدت إلى أن يجلد مالك ويعذب ابن حنبل .

ولست أقصد بالتصوف ذلك الزهد والاعتدال والاعتكاف ، فليس هذا من الإسلام فى شىء . إننا نمر بمرحلة « الضرورة » من تاريخ الوطن ، وهى تقتضينا أن نكون جميعا جنوداً . قد أعدوا أنفسهم لاحتمال عبء ضخم طويل المدى ، من شأن هذا الكفاح أن نعد له أنفسنا بالتربية الروحيـــة ، هذه التربية التى تستدعى صلابة النفس وقوة الاحتمال والقدرة على مواجهة الخطوب

ولن يتيسر هذا للشباب الذى يبدد شبابه ورجولته ووقته ، ويصرفه على غير وجهه .

نريد ذلك « التصوف » الذى تحس النفس فيه بالقوة أمام غزوات الإغراء والاستعلاء أمام اللذات والشهوات . هذا التصوف الذى يدفعنا فى الحياة كراما نعمل ونجاهد ونواجه الخطوب ، فنصبر لها ونقاومها ، ولا نهزم أمامهـا ولا ننهـار .

الرسالة ٢١ يونيو ١٩٥٢

روح مصر

حيثما قلبت تاريخ مصر ، وأين نظرت فيه وجدت روحا ثائرة قوية تسمو على الأحداث وتصاول الأجيال . فقد كانت فى ماضيها الأول الفرعونى أمة تنشر النور والحضارة على العـــالم أجمع ، وتبنى الأهرام فتؤسس الخلود ! وكان لملوكها ورجالها سلطان وقوة وبأس سمـا بهم إلى ابتداع تلك الآثار القوية الرائعة من الأهرام إلى أبى الهول إلى الـكرنك إلى المسلات السامقة المنتشرة فى أنحاء العالم !

ثم بعد ذلك أصابهـــا شىء من الضعف والهوان فامتلـكها الأثيوبيين والأشوريين ، ثم الفرس والبطالسة والرومان ، ولـكنها كانت تحتفظ بمظهرها المصرى القوى فى كل وقت .

* * *

كانت روح مصر الذاتية قوية غلابة تـكسب كل هذه الصور حياة وقوة

وتدمجها فى محيطها وتخلق منها صورة مصريه خالصة الى أن جاء العهد الذى عادت الذاتية المصريه إلى قوتها فأصبحت تكون وتشيد .

إذن .. فقد كانت مصر فى كل عهود مصر التاريخية تمثل الثورة والقوة والنزوع الى الامتلاك والسيادة فانها فقد استفادت من علاقتهـــا بكل الدول والأمم التى اندمجت بها .

وقد كان لاتصال مصر بالحضارات الفارسية والرومانية والعربية أثرها فى تكوين القوى الروحيه والنفسية والاجتماعية والفكرية فى حياتنا المصرية . وأنت ترى أن كل تاريخ العالم والحياة البشرية قد ارتبط إلى حد كبير بتاريخ مصر فان قوة قمبيز وسيطرته فى تاريخ الغرب كانت سببا غالبا يدعوه إلى الاتجاه نحو مصر وامتلاكها . وقوة الاسكندر الأكبر كان لا بد أن تتصل بمصر وأن تمثل على مسرحها بعض الفصول .

ثم يوليوس قيصر . و اكتافيوس وأباطرة الرومان . ثم كان مبدأ اليقظة الروحية والذى أمد مصر بآثار عميقة فى شئون الثقافة والدين والروح مازال أثره باقيا الى اليوم .

فأنت ترى أن مصر كانت فى كل عهد من عهود البشرية وجهة الغالب ومحط نظره وموضع أمله ..

وقد ناضلت مصر قمبيز والاسكندر وقيصر ونابليون محاولة أن تحتفظ بذاتها وقوتها على أن تستفيد أيضا من آثار هؤلاء جميعا قوة تزيدها على مواجهة الحياة والارتفاع الى مصاف الأمم الخالدة التى يعرفها التاريخ .

واستفادت مصر فى طقوسها الدينية من عهدى المسيحية والإســـلام ، واستفادت من تقاليد الفرس والبطالسه والرومان والعرب والأتراك والفرنسيين مما لا يزال أثره باقيا فى مجموعة التقاليد القوية التى توجه الطبيعة الشعبيه المصرية فى سبيل الحياة . وان كانت مصر لا تزال تحتفظ بمعنويتها وذاتيتهـــا فى تلك الآثار القوية الشامخة التى تناطح السحاب وتكسف

الشمس ما ستزدهى بها مدى الأجيال .

فان مصر أيضاً لم تتأثر بأثر أقوى وأشد من أثر العرب فقد تحولت لغتها إلى لغة القرآن .

واندمجت فى الروح الإسلامية وطبقت مذاهبه الخلقية والتشريعية والاجتماعية والفكرية وزادت عليها من الحضارات التى لامستها فيما بعد قوة فى الثقافة واللغة والتشريع والقانون ، وإن مرت عليها بعد ذلك عصور من الركود . ولكنها كانت تضاعف فى عهود قوتها من إنتاجها حتى لتطمس مامضى من فترات الخمول .

* * *

تركت الحضارات السالفة فى مصر آثاراً بارزة رائعة لا تزال حية تصافح الأجيال .

وترك الفراعنة الأهرام وأبى الهول وتركوا فى الأقصر من أطلال طيبة قصوراً لا تزال تتألق بالحياة كأنما نفض الصانع يداه منها بالأمس .

وترك الأقباط كنائس وبيع ؛ وترك المسلمون مساجد ومدارس إلى غير ذلك من الآثار الرومانية والإغريقية .

ولعل أبلغ الصور الحديثه لروح مصر الثائرة التى تضطرد ثورتها على توالى الأجيال والعصور . هى الثورات المتوالية على الغاصب وفى مقدمتها الثورة على الفرنسيين ، ثم الثورة العرابية التى شحذت العزائم .

ثم ثورة سنة ١٩١٩ التى كانت إيذاناً بيقظة تامه مضطردة لو تحققت نتائجها على الوجه الصحيح ، ولعل هاتين الثورتين كانتا تطويان فى أعماقهما روح النضال والتفاضل بين حضارتين : حضارة الغرب الحاكمة ، وحضارة الشرق . وبدأ منذ الوقت صراع بين أنصار القديم وأنصار الحديث

واستمر الصيال بينهما طويلا متشعباً ومضت الحوادث والأعمال والاتجاهات الاجتماعية والعقلية والفكرية في الحياة المصرية على ضوء هذه الروح الثائرة النازعة إلى نضال متواصل حاد أكسب تاريخ الأدب والاجتماع خيراً كثيراً .

فقد كان في مصر فريق يقدس آثار السلف أشد تقديس ولا يرضى عنه بديلا في شئون الفكر والاجتماع .

وكان هناك فريق قد امتلأ نشوة مما تعلم ودرس في أوربا واستنشق من عبير الحرية الفكرية الاجتماعية والخلقية المضطردة .

واضطرد النضال وتداخل في شئون كثيرة من شئون الخلق والاجتماع والدين والأدب واللغة وتشعب وانتهى أخيراً إلى المزج بين آثار السلف بين الثقافة الأوربية الجديدة ؛ وإن كانت آثار هذه النضال لا تزال قائمة .

وفي هذه الفترة ظهرت ثلاث دعوات موفقة كانت فتحـــاً جديداً في عالم الفكر والاجتماع والسياسة . فقد بدأ (محمد عبده) دعوته في سبيل تحرير الدين من خلافات طويلة فثار عليه الأزهر ثورة كبرى ، ولكنه مضى ذكره خالدا أبد الدهر لأنه زاد الدين قوة على مواجهة مختلف التطورات والحضارات وظهرت دعوة « قاسم أمين » قوية حرة مجلجلة في سبيل تحرير المرأة وتعليمها وقامت الأراجيف من جولته وناوئه الرجعيـــة كما ناوئت (الإمام) ولكنه انتصر أخيراً . وظهرت دعوة (سعد زغلول) في سبيل تحرير الوطن(١)

كانت الطبيعة المشرقة البسامة في كل عصر من عصور مصر تملأ أرواح المفكرين والأدباء قوة وتزيدهم إحساسا وعاطفة تتدفق بها أشعارهم وآدابهم فمصر غنية خصبة بالجمال غنية في سمائها وأرضها وبحارها ومجالس الحور على ضفاف النيل وأرباض الجزيرة .

فالمصري راغب أبدا إلى اللذة والمتعة . ومناه تذوق ما تجود به الطبيعة ،

(١) أقر رأي المؤلف في سعد وقاسم وعبده بعد خمسة عشر عاما من كتابة هذا المقال في كتابه (أضواء على الحياة)

فهو منبسط النفس فياض العاطفة مشرق الطلعة ، وإن كان فى عهود الانحلال ينصرف إلى الملذات .

فاذا أتيح للمصريين فرصة الاستقلال والتحرر والنهوض من الكبوات وانجلت آفاق حضارتهم وارتفعت معالم مجدهم عادوا إلى البناء والإنشاء وصناعة التاريخ .

وروح المصريين فيها لون خفيف من السخرية أكسبتها إياه الأزمات الشداد التى مرت به ، بيد أن هذه الروح لم تمتنع من قيام روح الجماعة ، هذه الروح التعاونية المتجسمة الثائرة التى شيدت الأهرام .

ويبدو جانب (الروحيه) واضحا فى المصريين وضوحا فياضا أشد إشراقا وقوة من كل الملامح التى تبدو فى أخلاقهم ؛ فهم يهتزون طربا للفكاهة وتثير فيهم العاطفة الصادقة إيمانا عميقا ، فاذا سمعوا القرآن وإذا تحدثوا عن الجنة والنار والخير والشر والنعيم والعذاب والحساب والقصاص تأثروا وفنت نفوسهم فى المعانى الرفيعة التى يثيرها الدين والروحية .

هذا الجانب الروحى الفياض لا يكاد يختفى فى عصور حياة الفراعنه فلعله هو الذى دفعهم فى قوة لإنشاء المعابد والهياكل ومدينة طيبه وتل العمارنه ومختلف المدن الفرعونيه الخالدة والكرنك وأبو الهول ، وهذه كلها مظاهر تنطق بالقوة الروحية فى النزوع الدينى . فلولا الروحيه ما أمكن أيضا أن يتهيأ لهذه الشاهقات من المبانى ما تهيأ لها من جمال وقوة وفن وإبداع .

ويبدو لك فى دراسة الطلائع المصريه ظاهرة أخرى هى (الصوفية الحزينه) ففى المصريين ميل إلى الاعتكاف والوحدة والزهد ، هذا الميل يبدو فى أحايين كثيرة على صورة من الاعتزال ولكنه فى الأغلب يعطى معنى التجرد الخالص للعمل فى سبيل الفكرة لا فى سبيل المادة .

فهذه الصوفية الزاهدة الحزينة تكسب الروح فيضا من التأمل المعتدل الحكيم ما يفسح أمام صور الوجود قدرة على البحث والحكم بحثا صادقا لا تزيفه رغائب الذات وشهوات المادة . حكما طليقا حيا لا تؤثر فيه نزوات الوجدان ولا أطماع الهوى .

وفى طبائع المصريين شىء من الغرور وحب الظهور ورغبة فى الأناقة ، أناقة جذابة مغرية ، فما أشد حبهم للباس الأنيق والوجه الجميل وهم يتأنقون فى بناء قصورهم ومنازلهم ويهيئون بيوتهم بالأثاث الثمين إذ وهب الله لهم فطرة فنية نقية وذوقا جميلا فى حسن الاختيار .

بيد أن هذا الظهور يكلفهم كثيراً ويملأ نفوسهم برغائب التعالى ، وقد يدفعهم هذا الغرور والظهور إلى الغلو فى القول والمبالغة فى تزكية أنفسهم وتصوير أعمالهم وأحوالهم ، ولكنه يصدر عن النفس الطموحة التى تريد أن تظهر أمام أترابها أشد قوة وأعظم مكانا .

وفيهم روح الكفاح والعناد والنضال . ولقد برهنوا فى كل ظروفهم التاريخية أنهم أميل إلى النضال وأشد إصراراً فى أوقات الأزمات . . وأنهم يستميتون فى الدفاع عن أوطانهم دون خوف ولا وجل ، وأن روحهم خشنه شديدة اليأس متحفزة . روح تنفر من الضلال ، لينة ولكنها صريحة وفى صراحتها شدة وجرأة لا تستنيم الى الذل ولا ترضخ للغاصب ولا يفسدها الاستعباد بل يزيدها جمالا وتحفزاً يشعرها بوجوب الانتصار .

والتضحية من الدعائم الغلابة على روح المصريين والتضحية فى سبيل درء الحاجة والعوز . وفى سبيل نصرة البائس ونهضة المظلوم ، وفى المصريين لين الجانب ورقة العاطفة . وهم أبعد الناس عن تحجر القلوب فهم سرعان ما يعطفون .

• جريدة القاهرة : ٢٩ يوليو ١٩٤٠

من الاسكندرية الى ديروط

جمعت فى خلال إجازتى بين سفرين : كلاهما أبعدنى عن القاهرة . فسافرت إلى الاسكندرية ثم عدت إلى ديروط . فكأنما ذهبت إلى أقصى الشمال حتى شارفت البحر الأبيض .. ثم قصدت إلى الصعيد الأوسط حيث قضيت أياما فى البلد التى ولد على ضفافها « حافظ ابراهيم » شاعر النيل .

وفى كلتا الرحلتين متاع كبير . ومتاعب كثيرة .

أما فى الاسكندرية فقد التقيت بصفوة النـاس . وتغلغلت فى الطبقـات الميسورة التى لان لها العيش وأتيح لها أن تأخذ بأوفى حظ من المتاع . فهجرت القاهرة والأقاليم . وأقلعت إلى الساحل تأخذ أكبر قسط من الهواء والماء . ومن متاع النفس والجسد .

رأيت المجتمع المصرى فى صورة الحرية المطلقة . وقد تجرد الرجال والنساء على وجه أحله البحر وحرمه الدين . وأعطى كل من الجنسين لنفسه الحق فى

أن يذهب حيث شاء . إن شاء أمضى يومه أمام الكابين . أو تحت المظلة . أو سابحاً فى الماء .

ورأيت صورة الهدى وهى تختلط فى صورة الضلال . فلا تكاد تفصح إحداهما عن نفسها أو تبدى واضحة جلية . واشفقت من المصير الذى ينتظر هذه الجماعات وقد منحت أنفسها ما تهوى وما تحب دون أن تجعل للعرف أو للتقاليد أو للدين حساباً معلوما أو حقا مفروضا .

ومن العجب أن تقوم مسـارح الفتنة والجمال على شاطىء البحر فى حمى رجلين من أعظم رجال التاريخ والتصوف هما : ابن جبير الأندلسى الرحالة الذى طاف الشرق وقدم من المغرب ومات فى الاسكندرية . وبشر الحافى الصوفى الذى أثر عنه الزهد والعلم والورع .

ولكل منهما مسجده الضخم القائم فى قلب المنطقه الآهلة بالمصيفين وروا د الكابينات . والذاهبين إلى البلاج والعائدين منه .

وبينما تذهب آثار الرجلين فى بطون التاريخ فلا يذكرهما ذاكر إلا القليل من الباحثين والعلماء . يبسط الله فى اسميهما فيكتب فى تذاكر الأتوبيس والسيارات . وينادى به الحمالون والسائقون . ويجرى على ألسنة المسافرين والعائدين .

ثم سافرت إلى ديروط . تلك المدينه التى كانت حديث الصحف فى الشهور الماضية . فلقيت قوما يختلفون كل الاختلاف عمن لقيت فى الاسكندرية .

لقيت قوما يكدحون فى سبيل العيش والرزق . يعملون سحابة يومهم فاذا أمسى المساء التقوا على « القناطر » التى هى أجمل عمل هندسى فى الصعيد بعد خزان أسوان وقناطر أسيوط .

رأيت أهل الصعيد فى سذاجتهم وطيبتهم وبساطتهم . يمضون فى الحياة لا يتكلفون . قد أخذوا من الحرية بطرف . ولكنهم ما زالوا يضنون عليها بالعرض والشرف والخلق والتقاليد .

رأيت « المئذنة » العاليه . وسمعت النداء ينبعث من فوقها فيهز النفس من الأعماق . ويرسل إلى الكون كله فيضا من الحب والسلام . . هذه مئذنة الجامع الكبير . لعلها أعلى مآذن القطر كله . قد بنيت بالقرميد الأبيض والأحمر على هيئة غاية فى الرواء والإبداع . وكان مقامى فى بيت قريب منها على الضفة الثانية على الترعة الساحلية . فما كنت ألقى نظرى من النافذة مرة جالسا أو قائما ، إلا كانت تتراءى لى فتهزنى ، وتملأ نفسى بذلك الإحساس الروحى الغامر .. فاذا واجه غرفتنا المؤذن فى صلاة الفجر ، انبعث صوته رطباً نديا . كأنما يسكب على هذا الصمت والسكون الضياء والنور ، فما ألبث أن اهتز فى مضجعى أردد اسم الله .

ألا ما أبعد الفارق بين ما تثيره ديروط وما تثيره الاسكندريه فى النفس . إن هذه تعطينى معنى الروح كاملا حيا ، أما تلك فلا تترك فى نفسى إلا متاعب الصراع بين الهوى والحق ، وبين القلب والغريزة .

وفى ديروط كنت أطلق الطرف بعيداً فى تلك المروج الخضراء ، أتزود وأقتات من جمال الريف ، وهناك فى أطراف المدينة حيث تلتقى الحضارة بالريف ، والصناعة بالزراعة ..كنت أجلس الساعات الطوال أنظر وأسبح بعيداً حتى يردنى عن أفكارى قطار « الديزل » السريع وهو ينهب الأرض فى طريقه إلى القاهرة .

وفى المساء كنت أسير مع صديق « محمد زكى » نتحدث عن الرافعى . . إن صديق لا يمل الحديث عنه ، إنه يحبه غاية الحب ، ويرى يومه عبثا من العبث لو أنه انقضى دون أن يقرأ له فصلا أو صفحة أو كلمة أو « كليمة » .

إن صديقي من أدباء الريف المغمورين ، الذين قضت عليهم ظروف الحياة أن يعيشوا هناك ، حيث لا تصفو الحيـــاة كثيراً للأديب الذي يريد أن يصنع المجد .

وفي ساعات الغروب على الإبراهيمية أو على اليوسفي ، تلبس ديروط حلة قشيبة من الجمال الحزين . حيث تعود الذاكرة إلى ما قبل عشرين عاماً من العمر ، عندما كنا نخطو إلى هذه المدرسة القائمة تجاه مبنى الري . نتلقى دروس العلم ودروس الحياة .

أما ذلك المساء ، فقد كان حزيناً حقاً ، بالغاً في الطالبة والحزن . فقد انطلقت إلى حيث كان للقلب قصة منذ سن السابعة عشرة . ولما مرت العربة بنا على ذلك الروح الحزين . هتف القلب : ترفق أيها السائق ، فان لنا هنا ذكرى عزيزة .

كان هو الوجه الأول الذي لقيني بين ظلمات الأحداث . ومتاعب الشباب الباكر ، فأحال دنياي جنة وارفة الظلال ، وأمد روحي بذلك الرحيق القدسي الذي يحسه الشباب الحدث ، الذي يتطلع إلى المجد ، حين يلتقي مصادفة بانسان وهبه الله فيض الجمال وفرط الحسن وأمده بذلك الروح الشاعر الصادق ، بحيث لا يخرجه عن تقاليده وخلقه ، ولا يصرفه عن طهره ونقائه .

ولكن الظروف تقصر والأقدار تأبى ، فاذا به يمضي في طريقه وأمضي في طريق . وأظل على الرغم من مرور بضعة عشر عاماً أحس كأنما كان الأمر قد وقع بالأمس ، وأنه ما زال قائماً في النفس لا يبرح ؛ وما تزال صورته في الضمير لا تزول . إذا هتف الهـــاتف باسمه ظننت أنه هو . وإذا خطر من يشبهه ذكرته . وعدت بالخيال مرة أخرى إلى أيامه الحلوة . عليها سلام الذكريات .

وبالرغم من الزمن البعيد . فهو ماثل في القلب . يذكرني بالماضي البعيد وكأني به أنتظره وأترقبه . وأرجو على مر الزمن أن يتاح لي مرة أخرى أن ألقاه .

كان ذلك المساء قاسيا على نفسي . فقد كنا في السيارة نتذاكر قصيدة الأستاذ محمود محمد شاكر « اذكرى قلبي فقد ينضر من ذكراك عودي » وبينا كان صاحبنا يرددها . كنا نمر في نفس المكان الذي يتنسم فيه حبيبنا أنفاس الحيـــاة .

والحق أن « ديروط » أعادت إلى نفسي الذكريات التي طوتها أعباء الحياة في القاهرة . فما أظن أنني قضيت في ديروط عشرة أيام منذ سبعة عشر عاما غير هذه المرة . لقيت وجوها كثيرة لم أرها منذ طويل . وجوه كلها إلى حبيب ولي معها ذكريات . ولكن غاب عني وجه لطالما أحببت أن ألقاه ، ولكنه كان طريحا في المستشفى . عجل الله له الشفاء وكتب له الصحة والعافية .

الغمرات ثم ينجلينا

عندما أتيح للعرب اقتحام البحر ذل لهم وانقاد . وكانوا قبل أن يهاجمونه يخشونه ، وكان الخليفة عمر لا يأذن بركوبه ، وقد ظل معاوية يلح عليه . . متطلعا إلى سواحل القسطنطينية ، مغرياً إياه بأساليب غاية فى البراعة . حتى كتب له مرة يقول :

« إن بعض قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلاب الروم . وصياح دجاجهم يزقوا مع الريح إذا هبت من صوب الغرب من فوق أمواج ذلك البحر المخوف »

غير أن عمر أصر على موقفه من البحر بعد مشورته لعمرو بن العاص الذى وصف البحر للخليفة وصفاً زهده فيه حيث قال :

« إنى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير . إن ركن خرق القلوب . وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، وهم كدود على عود إن مال غرق ، وإن نجا برق »

بيد أن معاوية استطاع أن يظفر بأمنيته فى عهد عثمان الذى اشترط ألا يحمل أحدا عليه وأن يخير الناس .

وقد أقبل العرب على الجولة الأولى فى البحر إقبالا حماسياً وتزاحموا، كل يريد أن يحرز قصب السبق ، وكان على رأس الكتيبة عبد الله بن قيس الذى غزا أكثر من خمسين غزوة بين شاتية وصائفة .

كانت الكتيبة الأولى فرحة باستقبال البحر لأول مرة . حيث شاهدت السماء الصافية وهى تنطبق على صفحة الماء عند نهايه الأفق ، غير أن الأمر كان أشد خطراً مما كانو يتصورون ، فقد تحولت الريح وعصفت . وتلاطمت الأمواج وأزبدت . وكانت أشبه بما وصفها به أحد المؤرخين حيث يقول :

« وجاءت الريح عاصفة فاخذت بناحية الشمال وأصبحنا والهول يزداد ، والبحر قد هاج هائجه وماج مائجه . فرمى بموج كالجبال . وكان كالسور علواً فيرتفع له الموج ارتفاعا يرمى فى وسطه بشآبيب كالوابل المنسكب ، فلما جن الليل اشتد تلاطمه ، وسكت الآذان غماغمه . واستشرى عصوف الريح فخطم الشرع ووقع اليأس » .

غير أن ذلك لم يفت فى عضد الكتيبة الأولى ، وسرعان ما علا صوت قيس وهو يرد فى لحن جميل : « الغمرات ثم ينجلينا » فيجيبه أصحابه ويهتفون وراءه .. ثم تنجاب الغمرة ويصفو الجو وينجلى الأفق . ويسكن الماء وتمضى السفينة على أثباج الماء رخاء .

ثم يعود الجو إلى التلبد ؛ وتهب الرياح وتتقاذف السفينه أمواج كالجبال فيعود الفتيه إلى نشيدهم . وسرعان ما يتكشف لهم الساحل ويصلوا إلى البر ، فرحين بأول جولة استطاعوا أن يضعوا بها أيديهم على ذلك الجبار المهول .

وبعد أن كان عمر يعنف من يخوض البحر بغير إذنه ـ وقد عنف عرفجة

يترجى أهل المصادر

ابن هرثمة الأزدى لركوبه البحر فى غزو، عمان ـ شجع الخلفاء على
واتسعت الفتوح واستطاعوا فتح سردينيا وصقلية وقبرص ومالطة و

واقتحموا شواطىء البحر الأبيض فيما يلى أوربا إلى الشمال، كما ساقوا سفنهم فى المحيطين الهندى والهادى، ووضعوا الكتب الكثيرة فى علم البحار وظل العرب يقتحمون بحر مرمرة مرات ومرات. ويحاصرون القسطنطينية بقيادة بسر بن أرطاه مرة. وبقيادة قيس مرات.

وفتح صقلية القاضى أسد بن الفرات. وفتح إقريطش فى أربعين سفينة أبو عمر حفص بن عيسى.

وكان من ألمع الأسماء فى ميـــدان البحر ليون الطرابلسى الذى أرخت له الكتب الأوروبية وسجلت حملاته وغزواته لثغور الدور البيزنطية. وهو الذى يعرف فى كتب التاريخ العربى باسم «غلام زرافه» وقد اشـــترك فى غزوات بحر الأرخبيل وثغوره. كما فتح أنطاكية.

كما مهر العرب فى صناعة السفن. وأكسبهم ذلك كله خبرة بالغة بالبحر والمحيطات. وذلل لهم علم الأوقات الملائمة لخوض البحار. ومعرفة أوان هبوب الرياح. كما اتخذوا الموانىء والمرافىء لهداية السفن واستعملوا الإبرة المغناطيسية لتعيين الجهات.

ووصل الأسطول الأندلسى فى عصر عبد الرحمن الناصر إلى مائتى مركب وكان أسطول الموحدين فى المغرب غاية فى القوة. وأربى أسطول مصر أيام المعز على ستمائة قطعة.

ومن أبرز علماء البحر «ابن ماجد» الذى ظهر فى القرن التاسع للهجرة.

ن عائلة اشتهرت بالشئون الحربية . وقد ذكر المؤرخون أن
ى جاما استعان بابن ماجدفى تسيير أسطوله حول الأرض من مالندى
حل أفريقيا الشمالية إلى قاليقوت فى الهند . كما سجلوا أنه كان للعرب
ضل الأكبر فى تفوق الملاحة البرتغالية .

ومن المواقف الخالدة فى تاريخ البحر عند العرب ما حدث فى فتح المدائن
فقد وقفوا على جسر دجلة تجاه المدينة الضخمة المشرفة على الضفة الاخرى .
حائرين لا يعرفون كيف يعبرون . بعد أن حطم العدو الجسر وحرق السفن.

غير أن سعد بن أبى وقاص لم يدع الفرصة تفلت ، وانتدب عاصم بن عمرو
فى كتيبة ليقتحم البحر . وكانوا على خيولهم . فدفعوا أفراسهم ومضوا فيه .
ثم اقتحم وراءهم القعقاع بن عمرو فى كتيبة الخرساء . حتى وصلوا الشاطىء
الاخر ولم يفقدوا رجلا واحدا .

وخرج الجيش من الماء تنفض خيوله أعرافها صاهلة .

ويتصل بقصة البحر مغامرة الفتية الثمانيه المغررين الذين خرجوا من
لشبونة واقتحموا بحر الظلمات ، ميممين فى نفس الطريق الذى جرى فيـــه
كولومبس بعد أن اكتشف أمريكا .

فقد اشتروا مركبا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم الأشهر . ثم
دخلوا البحر فى أول هبوب الريح الشرقيه فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر
الريح ، كثير الصخور فايقنوا بالتلف كما يقول الإدريسى . فردوا قلاعهم
وجروا فى البحر ناحية الجنوب اثنى عشر يوما فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، ثم
فى الجنوب اثنى عشر يوما إلى أن لاحت لهم جزيرة أخرى ، فلما نزلوا بها
رأوا رجالا شقراً ، شعورهم بسيطة ، وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب

ثم أحضروا بين يدى الحاكم وقصوا عليه أمرهم ، ثم أمروا ونقلوا إلى زورق وعصبت أعينهم . وجرى بهم فى البحر فترة قدروها ثلاثة أيام بلياليها . وصلوا بعدها إلى البر وكانوا قد بلغوا بلاد البرابرة .. وعرفوا أن بينهم وبين بلادهم مسيرة شهرين .

ومع ما وصل اليه العرب من سلطان فى السيطرة على الماء فقد ظلوا يرددون دائماً كلمتهم الخالدة : « الغمرات ثم ينجلينا » .

مجلة الاذاعة : ٢٦ ابريل ١٩٥٢

المطوفون فى الارض

حديث « المطوفين فى الأرض » شائق ممتع .. والمطوفون رجال أغرموا بالرحلة ، وأحبوا السياحة وتكلفوا فى سبيلها المشاق الضخمة فى وقت كانت الرحلة فيه قاسية مجهدة متعبة ، كانت عن طريق السفن التى تسير بالقلاع ، وتجرى مع الريح فى البحر . وعن طريق الحمير والجمال فى الصحراء .

فاذا علمت أن كل رحالة قد اغترب أعواما طويلة بلغت بين ربع قرن وعشر سنوات ، شعرت بمدى الجهد الضخم الذى بذله هؤلاء الرحالة ، وعظمة الآثار التى خلفوها . والتى تقرأها الآن وتتناولها فى سهولة وبساطة .

عرف العرب الرحلة .. فارتحل « الأدريسى » من سبته سنة ٩٤٣ هـ إلى المغرب وصقلية .

وارتحل « ابن جبير » من سبته وسار محاذاة شاطىء الأندلس ثم اتجه شرقا

ماراً بجزائر البليار ثم صقلية ثم الاسكندرية ثم صعد النيل إلى عنيداب ثم سافر إلى مكة وانتقل إلى بغداد فسر من رأى (سامرا) فالشام فوصل عكا ثم عبر البحر الأبيض حتى وصل صقلية وطوف بالأرض (ابن بطوطه) فقضى ربع قرن في رحلته . خرج من طنجه .. وجاب أقطار المغرب ثم رحل إلى إلى طرابلس فالاسكندرية . ثم سافر إلى فلسطين عن طريق سينا ثم نفذ إلى دمشق فالحجاز ثم يمم شطر العراق ، وجاز نجد وصحراء العرب وزار شيزار وأصفهان ونزل بغداد ثم ذهب إلى الموصل ثم عاد إلى الحجاز ويمم شطر اليمن فالصومال وعمان والبحرين فالسودان والنوبة ثم سافر إلى تركيا ، واخترق شمال الأناضول إلى بلاد التركستان في خوارزم . ثم قصد بخارى إلى إقليم البنجاب لجاز أقاليم الهند الشاسعه . ثم عبر إلى سيلان وطاف جاوه وسومطره ثم سافر إلى الصين وتوغل فيها وركب البحر إلى شاطىء السند الجنوبي وعاد يخترق فارس والعراق والشام ومصر عائداً إلى وطنه .

أما في الغرب فان « ماركوبولو » أمضى ست عشرة سنة في بلاط أقوى ملوك العالم قوبلاى خان المغولى .

سافر من البندقية وعاد بعد أربعة وعشرين عاما .. وقال أنه رأى قبردام سار في بلاد يأجوج ومأجوج .

وتحدث عن وادي الألماس ، وعن الرخ الذى يحمل الفيل ، وقد أثبت المؤرخون والجغرافيون الكثير مما قاله .

تنقل الرحالة الذى نزل البحر في سن السابعة عشرة (١٢٧١ م) بين عكا وأرمينيا .. ومضى في صحارى مقفرة ومفاوز وعره ، وتلقى خطابات البابا وهدايا الزيت المقدس . ودرس اللغة التتارية ؛ واشترك ماركوبولو في الحروب التى نشبت بين البندقية وجنوه فاسر وحمل وسجن وظل في الأصفاد ثلاثة أعوام وخرستوفر كولمبس .. الذى سافر مع هذه الرحالة .. على امتداد الساحل

الشمالى ثم عاد إلى لشبونه . ثم فكر فى امتداد المحيط الأطلسى . . والأرض التى من بعده ؛ وقد شغلته الفكرة لحاول أن يتصل بالأثرياء . وطرق باب جون الثانى ملك البرتغال دون جدوى . . وظلت فكرة شق الإقيانوس تستهويه . . فنزح إلى أسبانيا وقابل الملك فرديناند . وأخيراً اقتنعت الملكة إيزابيلا بالفكرة . وفى ٣ أغسطس ١٤٩٢ أعدت السفن الثلاث ونشرت قلاعها وابتعدت عن الشاطىء . وأخذت تخوض المياه المجهولة .

ستون يوما منذ تركوا الشاطىء . وألفى ميل قطعوها فى البحر حتى وجدوا اليابسة .

جريدة الزمان ٢٨ أغسطس ١٩٥١

ماذا يمنحنا رمضان ؟

— ١ —

عندما يخطر على البال رمضان فى خلال العام .. وفى دورات الحياة وتقلب الفصول يبدو حلواً جميلا معطراً كحلم من ليالى ألف ليلة .

فاذا اقترب رمضان ، بدأ الضجر والقلق يغمر على بعض النفوس ، نفوس الذين يصومون ويفطرون على السواء .

إن النفس تكره التحول عما اعتادت ، وتنفر من التجديد .. وتضيق بالنظم المستحدثة .

ورمضان كله تجديد ، وهو نقلة سنوية تستمر ثلاثين يوما من وضع إلى وضع : فى الطعام والشراب والنوم والحديث .

إنه حرمان من التدخين والقهوة فى ساعات النهار . يضيق به بعض الناس يضيق به الذين يصومون فعلا والذين يخفون إفطارهم .

وساعات الأصيل وقبل الغروب من أقسى الساعات فى يوم رمضان كله ، فإذا ما غربت الشمس شمل الناس ذلك السكون الممتع ؛ وبدأت حياة الليالى التى هى أجمل ما فى رمضان .

فى رمضان عظة وعبرة ، ولكنها لا تمنح لكل الناس . فيه حديث الفقراء وحديث الصبر وحديث تعويد النفس من الانتقال من وضع إلى وضع ومن حال إلى حال .

وفى رمضان مشقة ، وفيه خروج عن المألوف . وتلك مزيته الأولى . . ومصدر روعته وإبداعه .

إن رمضان يستطيع أن يمنحنا فكرة « التطور » . يمنحنا القدرة على أن نتحول من القوالب التقليدية ، ونخرج من الحلقات الضيقة .. ويدفع عنا « آصرة » الجمود الذى تحملنا على أن نظل فى الحيز المحدود .

وهذا هو عيب الشرق الذى أضناه وأثقل كاهله . ورده إلى التأخر والجمود وهى مزية الإسلام التى حمل فى عناصره روعة التجديد والاجتهاد والتحول ، وعدم الانطباع بوضع محدود .

إن رمضان مستعد أن يعطينا هذه المنحة .. فلنستجب له .

— ٢ —

كلما طاف بخاطرى أن رمضان يحث الخطى فى طريقه إلى دنيانا ، أتشمم رائحة عطر غريب له شذى فواح ، عطر له طابعه الخاص الذى ترسله السماء .

هذا الضيف الذى يلم بنا فى كل عام مرة ، فيصبغ الحياة بلون جديد وطابع خاص يغاير ما ندرج عليه طوال العام .

إنه يتيح لنا عرسا حافلا من الضياء والنور . ويبعث فى النفوس تلك النشوة الروحية الصادقة ، ويرسل على الأرض السلام والطهر ، ويهرق على الوجود ذلك الكوثر الخالد ، من الإحساس بحاجه الفقير . وضبط النفس ، والامتناع عن الطعام .

ورمضان ، ككل أمر عظيم ، يختلف فيه الناس ويذهب بعضهم فى تقديره والإعجاب به أبعد مدى ، بينما يذهب البعض الآخر إلى التهوين من أمره والضيق به . أما الذين يحبون التنويع فى الحياة واستقبال كل جديد منها فهم يلقونه معجبون راضون عنه ، أما أولئك الذين يحبون الحياة المكررة المتشابهة فيحرصون على أن يمضوا فى طريقهم لا يعترفون بوجوده .

إن رمضان يعطى الليل سحراً يختلف عن سحره الذى يعرفه الناس . إنه يعطى لياليه زينة الجمال القدسى الذى يتمثل فى أبدع صورة روحانية ؛ المآذن العالية السامقة فى الفضاء وقد كساها الضوء اللألاء ، وأصوات المؤذنين وهى تنادى بكلمة الله . وصوت ذلك الداعى الذى يقرع الأبواب فى جوف الليل ينادى إلى (السحور) .

كما يعطى رمضان لأصناف خاصه من الطعام جمالا . حتى لكأنما هى وقف عليه وحده : قمر الدين والكنافه والقطائف .

ويمنح رمضان ساعة الغروب قدسية وجلالة ومهابة ، فتبدو الطرقات وقد خلت من الناس ، وتبدو الموائد وقد مدت وعليها الصحاف العامرة .

والأطفال وهم واقفون على رأس كل حاره أو شارع أو ميدان ، يرقبون المدفع أو الآذان . فاذا نودى لها هرعوا فى أصوات حلوة إلى بيوتهم يعلنون أهليهم بها .

وفى الريف يأخذ رمضان جلاله وبهاءه على صورة لا يدانيها شىء آخر فى الرّوعة والجمال . يتقرب فى مهرجانه المحبة بين الناس ويؤلف القلوب ويزيل أسباب الخلاف ، ويرد إلى الحياة لونها الخالص العامر بالإيناس .

ويمضى رمضان فى أثر رمضان دون أن ينسى (رمضان) واحدا ، أو بالأحرى ذلك اليوم الأول من رمضان ، عندما خرجنا فى صباحه إلى السويس ، ثم عدنا فى مسائه إلى القاهره وفى القلوب حزن ولوعة ، وفى الأيدى قيود ؛ وفى الريق جفاف ، ودخلنا القاهره وأذان المغرب يصعد من جميع أجهزه الراديو فى كل بيت ، وقد جلس الصائمون على موائدهم فرحين باليوم الكريم ، أما نحن فقد كنا فى تلك العربة الملعونة لا ندرى إلى أين نذهب وماذا ينتظرنا من مصير !

مجلة الاهداف ١٩٥١

الهجـــــرة

نقطة تحول ومولد أمة . .

كانت الهجرة منذ القديم « ناموس » الطبيعة الإنسانية ، وقد سجل التاريخ أن أقواما هاجروا من أوطانهم ؛ وانتقلوا من أرضهم بحثـاً وراء الرزق والماء والمورد .

وقدر المؤرخون أن الهجرة تجرى دائماً من الجنوب إلى الشمال . . ومن الصحراء إلى الأودية ، ومن الجبال إلى منابع الجبال ومجاريها .

ولم تخل الكتب السماوية من ذكر « الهجرة » والحث عليها ، وقد سجل « القرآن » هذا المعنى بإفاضة ؛ ورتب عليه الغنيمة والسعة « ومن يجـاهد فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما وسعة » .

وعرض فى آيات أخرى « شرعية الهجرة » ووصف البقاء فى الأوطان مع الصبر على الضيم والفقر والمشقة بأنه ظلم : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى

أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ،

وهكذا يقرر الإسلام مبدأ الهجرة كعلاج حاسم الأزمات الاجتماعية والفردية، وقد نجح هذا الإجراء حتى عد نقطة تحول فى تاريخ الأفراد والجماعات .. وكان مصدراً من مصادر القوة والنماء والحيوية ، ثم تجيء هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ، وهجرة الرسول صاحب الدعوة تطبيقاً صادقاً لهذه القاعدة . فقد كان المسلمون فى مكة مستضعفين يقاسون ألوانا من الآلام والمتاعب والقسوة التى تصبها عليهم قريش . وظل محمد فى مكة يدعو الناس إلى دين ربه الذى جاء به بضع عشرة سنة ، دون أن يستجيب له إلا فئة قليلة من المستضعفين والفقراء . وتأزمت الأمور وتجهمت الأحداث . وكاد النبى المؤيد بالوحى يضيق بالأمر لولا أن ثبته الله .

وعندما اضطربت الأمور ، وبلغت غايتها من الحرج ، جاءت الهجرة مخرجا للأتباع ، واستنفاذا للفكرة ، وآية الله فى تأييد النبى .

وفى مهجر المسلمين الجديد « يثرب » ولدت الأمة الجديدة ، ومنها زحف الإسلام على العالم فأنشأ الامبراطورية الضخمة التى امتدت من الصين إلى الأندلس

والذين قالوا إن « الهجرة » الإسلامية من مكة إلى المدينة هى نقطة تحول فى تاريخ الإنسانية كلها ، لم يبالغوا . فمن الجزيرة العربية امتدت أضواء الحضارة الجديدة إلى الشرق والغرب . وانتشرت مبادىء الحرية والعدالة والمساواة التى انتصرت بها أوربا وجعلتها قاعدة حضارتها العالمية الكبرى .

جريدة الزمان ٢ أكتوبر ١٩٥١

المعنى الروحى للعيد مفقود

هناك كلمات كادت أن تفقد معانيها وأوشكت الأيام أن تذهب بحقيقتها وتجعلها مجرد رموز من هذه الكلمات . كلمة العيد . لقد تقلص معنى العيد اليوم فى تلك الصورة المادية . التى نراها فى مظهر اللحوم التى نشرها القصابون أمام محالهم ، ومنظر أولئك الذين قصدوا إلى المقابر فى سيارات أو فوق عربات . لم يعد العيد إلا إجازة عابرة نقضيها فى البيوت .

وتبخر المعنى الروحى تماما وماتت معانى البهجة والدعة والسلام التى كانت تغمر النفوس حينما يقبل العيد .

لقد اقتصر مظهر العيد على تلك المظاهر العابرة التى تجرى من وراء الوعى ولا تصدر من القلب الخفاق الذى تثيره بهجة العيد .

لا شك أن العيد مظهر اجتماعى يراد به خلق « فرحة » اجتماعية شاملة تنتظم الناس ، وقد فرضت صلاة العيد ليتم لأهل الحى أن يلتقوا فى مسجد الحى

أو القرية فيتصالحوا وتتقـــارب نفوسهم وتصفى خلافاتهم وخصوماتهم التى تـكون ظروف الحياة قد خلقتها خلال العام الطويل . وصلاة العيد فقدت هى الأخرى مكانتها وجلالها .. فلم يعد يحضرها إلا عدد قليل من الشيوخ . وحتى الذين يحضرونها غيرهم ، يخرجون من المساجد مسرعين لا يتلاقون ولا يتحدثون

وسكان العمارة الواحدة تمر عليهم أيام العيد دون أن يتلاقوا . لقد انشغل كل بيت منهم بأهله ومشاكله ومصالحه .

ويندر أن يلقى أحد على الآخر تهنئة العيد إلا إذا تلاقى اثنان على الدرج .. أو واجهت واحدة جارتها من « المنور »

ومع ذلك فان العيد يذكرنا بأشياء كثيرة .

إنه « وقفة » نقفها كل عام مرة . أمام أنفسنا ، لننظر إلى الماضى والمستقبل ونحاول أن نحصى ما كسبنا وما خسرنا .

ان العيد يذكرنا بالآمال الكامنة فى نفوسنا ، ويـكشف أمام أرواحنـا تلك الآمال المطمورة فى الرمال .. ان الدنيا تدفعنا فى تيارها الضخم طوال العام فلا نتنبه لأنفسنا الا فى هذا اليوم . ان العيد يجدد الطموح ويبعث فى النفس ذكرى الآمال العريضة التى كانت تساورنا ونحن فى أول الشوط ومطلع الشباب . انه يذكرنا بتلك العهود التى قطعناها فى أن نعيش لفـكرة وأن نحيى لهدف وأن نسعى لغاية . وأن نجعل كل لحظة من لحظاتنا زاداً لروحنا العطشى الجائعة الى كل جديد وكل جميل . ولن يتحقق لنا هذا الأمل الا أن أذهب الى أقصى الأرض فتشبع النفس الى أبعد حد .

وفى أقصى الأرض نذكر أولئك الغائبين وراء المحيط . وفى أقصى الأرض نذكر أولئك الذين ذهبوا .. ومضوا الى ربهم وخلفوا دنيانا . وتركوا لنا ذلك الشذى العطر الذى يذكرنا بالجد ويدفعنا الى العمل .

جريدة الزمان ١٤ سبتمبر ١٩٥١)

الربيع فى كل يوم

يحتفل العالم كله « اليوم » بمقدم الربيع .. هى مرة واحدة فى العام عندما
قدم موسم الزهر ، وعندما تورق الأشجار ، ويغمر الجو ذلك الأريج الحلو
ذلك العبير العاطر .

غير أنى أؤمن بأن الربيع يمكن أن يقبل كل يوم حتى فى أشد أيام الشتاء
وده ، أو أحد أيام الصيف لهيبا . ذلك أن « الربيع » انما يستمد من النفس
ل أن يستمد من مظاهر الحياة .

ان معين « الربيع » الحق هو النفس الإنسانية ، تلك الجوهرة المكنونة ،
ى لا ترى بالعين . ولا تلمس . وانما يحس أصحابها اشعاعها وضياءها . ذلك
ى يضفى على أعمالهم وتصرفاتهم الجمال .. والحب والخير .

انى ارى الربيع فى كل يوم وألقاه .. ولا أقصر لقاه على يوم واحد

من أيام العام . ألقاه في كل وجه باسم . وفي كل ثغر ضاحك . وفي كل كلمة حلوه . وفي كل صوت جميل.

ألقاه في الطريق . وعلى صفحات الكتب . وفي أحاديث الناس .

وألقاه في كلمات العباقره . ولوحات الفنانين . وألحان الموسيقيين .

ويتمثل الربيع عندى في صورة الإيمان الخالص والشعور الدافق والفرحة الصادقة والإحساس بالحياة .

فأنا أحس الربيع كيفما تكون الظروف والأحوال .

ومهما تجهمت الحياة . وتواترت الأحداث . وأظلم وجه الأرض . . وصادفتنا المحن والأرزاء والخطوب ، فانا أحس بالربيع وأستشعره نابعاً من الأعماق في طلعة الفجر ، وجمال السماء .. سواء أشرقت الشمس أم ظللتها السحب . وأيان أمطرت السماء أم عصفت الريح .

إن قلبي يحس الصفاء والحنان والضياء ويستشعره في كل آن لا يزيده إقبال المال ولا الجاه ، ولا ينقصه إدبارهما .

وحق على من يقدر الحياة على أنها التعب والضنى قبل البهجة والسعادة .. وعلى من يقبل آلامها قبل مسرتها ، وعلى من يوطد النفس على أن يستقبل كل مظاهر الحياة بابتسامة . . أن يرى الربيع في كل يوم .

الزمان ٢٢ ابريل ١٩٥٢

حورية البحر

هى أسطورة من الأساطير الإغريقية القديمة ، تعددت أسماؤها كما تعددت الصور التى كتبت بها . فقيل عروس البحر وقيل جنية البحر .. وتناقلها القصاصون على مختلف العصور وأذاعوها فى مختلف الصور .

رواها بعضهم على أنها خرجت للصياد الشاب ، فأعجبته وسحرته ، واتصل بينهما الود . ومنذ عرفها ازداد قوة وتضخمت شبكته .

ومضت شهور ، وتوثقت الرابطة فيما بين الشاب الصياد وحورية البحر حتى أنه لم يجد بدأ من أن يطلب إليها أن يتزوجا . وسرعان ما قبلت حورية البحر عرض الصياد الشاب ، فقصدا إلى الكنيسه ليعقدا الزواج بين يدى الكاهن . غير أن أمراً عجيبا وقع فغير مجرى الحوادث ، إذ ظهرت زوجة الصياد فى الكنيسه فجأة وقبل إتمام العقد ، وهنا هربت الجنية ومضى الصياد يجرى فى أثرها .

ثم اختفى الصياد وأصيب بالجنون ، وظل مقيما على الشاطىء يناجى الأمواج وقد أصابه ذهول عميق ، ثم قضى بعد أيام .

ويروى الشاعر الإنجليزى القصه فى صورة أخرى فيها من الشعر والجمال والفن ما يجعلها خليقة بأن تعرض وتقص .

قال : إن جنية البحر الساحرة ، أعجبت بالشاب إعجاباً شديداً ، وأخذت تتبدى له يوما بعد يوم ، فلما توثق بينهما الود ، دعته إلى مملكتها السفلى فى قاع اليم .

وقد استجاب لها الشاب فحملته على جناح سمكة كبيرة ثم أخذت تمضى به إلى هناك ، حيث وصل إلى بلاط ملك البحر فاذا هى ابنة الملك .

وهناك شاهد من اللآلىء والأصداف والجوهرات والقصور والحور ، ما أذهله وأدهشه . وطالت به الرحلة ، وأخذت الأعوام - التى نراها على سطح البحر وعلى اليابسة طويلة - تمر تحت سطح البحر قصيرة كاللحظات ، فأمضى الصياد ألف سنة دون أن يحس أنه قضى عشر سنوات . . ولم يلبث الصياد أن أحس بضرورة العودة إلى الأرض فودع مملكة البحر ، وحملته السمكة ذات الجناح حتى ألقت به على طرف اليابسة .

ومضى يمشى فى المدينة فاذا بها قد تغيرت وقام فى مكان كوخه قصر منيف ، ولم يعد يعرف عن أهله شيئاً ؛ وقيل له أن أحفاد أحفاده قد ماتوا منذ سنوات وأنكره الناس ، وسخر منه الشباب ، ورجمه الأطفال بالحجارة ، فقد كان منظره غريبا بعد أن شاب واكتهل ، وعند ذلك آثر أن يعود إلى مملكة البحر

وهناك على الشاطىء أخذ ينادى ، وكانت الأمواج العاتية قد أقبلت فطوته فى غمارها .

هذه صورة سريعة لأسطورة « حورية البحر » التى انتظمت قصتها الآداب

العالمية كلهـا ، والتى حملت قصة « ألف ليلة وليلة » فى الأدب العربى لوحة من لوحاتها .

والواقع أن « البحر » من أخصب فنون الأدب وأغزرها ، وقد تناولته الآداب فى الشرق والغرب ، وكتب عنه الشعراء والأدباء وصوروا جماله وسحره وفتونه ، ورسموا ما يحيط به من سر عجيب ، وقصيدة « فيكتور هيجو » عن « الصياد » الذى يخرج متلفعاً بالظلام ويمضى ساعات الهزيع الأخير من الليل على الشاطىء المصطخب يصطاد ، وزوجته القابعة فى فراشها بين الحلم واليقظة تفكر وتتصور الظلام والبحر ، وتخشى عليه أن يبتلعه حيوان من الضوارى أو يصيبه مس من جن البحر .. هى من أروع القصائد الخالدة فى الأدب الفرنسى .

وهكذا تبقى « حورية البحر » رمزاً للمخاوف التى يقاسيها الصيادون الفقراء على أطراف المحيط .. حتى يجىء المثال الدانمركى فيصنع هذا التمثال الرائع .. القابع فى صدر ميناء (كوبنهاجن) كرمز خالد للرابطة الروحية الدائمة بين البر والبحر ، والإنسان والماء .

الزمان ٢٨ سبتمبر ١٩٥١

مولد السلام

يقترن عيد السيد المسيح بالكلمة الخالدة الرائعة « السلام » وعندما تدق أجراس الكنائس فى منتصف الليل معلنة البشرى تمتلىء النفس فرحة بهذا المعنى الخالد القائم فى ضمير الكون . وتهتز الروح نشوى وهى تلتمس جلال الذكرى ذكر مولد نبى جاء بكلمة السلام .

ففى الشرق سطعت أضواء الروحيه من قديم فكانت مهبط الآنبياء ومنزل الرسل ، وفى رحابة تلقت الإنسانية رسالة الرحمة والحب والخير والسلام ، ففيه ولد موسى وعيسى ومحمد ، ومن حدوده امتدت رسالة المسيح إلى الغرب فحمل اسمها ونسى سرها ، وعاش بمظهرها وحده دون أن يستوعب الضيـــاء الخالد الذى يتدفق من أعماقها .

وغلبت المادية عليه ، فأنشأ الحضارة ولكنه لم يحمها من الفناء . وليس للحضارة حماية إلا برعاية الروح . والروح من الشرق . فالغرب اليوم لا يستطيع

أن يؤمن بالسلام ، لب رسالة المسيح ، إلا إذا آمن بالروحيه ، وقد طالب المفكرون والعلماء فى الغرب منذ وقت طويل بسناد روحى للحضارة ، هذا السناد لا يمكن للغرب أن يصنعه إلا إذا آمن بلب رسالة المسيح ، ولن يستطيع أن يجده إلا فى الشرق : « الجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة » .

ونحن المسلمون نحب عيد السيد المسيح ونحتفل به ، وتخفق قلوبنا لرمز السلام .. ونذكر فى هذه اللحظات الخالده أن أمجادنا فى الشرق والروحية واحدة ممتزجة باقية على مر الزمن ، وأنها هى لب لباب التراث الإنسانى الخالد على الدهر .

الجمهورية ٢٥ ديسمبر ١٩٥٥

الجندى المجهول

... فى تاريخ الإنسانيه حفنة من الأبطال ، تلمع أسماؤهم لمعـــانا قوياً ، يخطف الأبصار .. ويبعث الهيبه والتقدير فى النفوس .. هذه الأسماء الخالدة كانت موضع تقدير الأجيال المتعاقبة . فوضعت عنها المؤلفات العديدة . . ومثلت لها المسرحيات الضخمة ، وخلدها الكتاب بالأدب ، والمصورون بالرسم ، والفنانون بالموسيقى . والنحاتون بالمرمر .

أيام ذكراهم : أعياد يحتفل بها ، وتماثيلهم قبلة الأنظار ووقائعهم على كل لسان .

يعجب بهم الشباب الطرير ، وتضرب بهم الأمثلة . ويفتتن النساء بأحاديثهم دون أن يدرى هؤلاء وأولئك . ذلك الجندى المجهول ، الذى حارب فى كل معركة ، وكسب النصر لكل بطل ، ومات فى الميدان شهيداً أوضرج بالدم الذكى وذهب غير ما سوف عليه : ذهب فى غمار الجمع الضخم الذاخر الذى تتناوشه الحراب وتدوسه سنابك الخيل .

هذا الجندى المجهول هو الذى دافع وناضل وقاتل . غير طامع فى ملك ولا راغب إلى مجد ، وإنما كان مدفوعا بالإيمان واليقين ، إيمانه بحق وطنه فى النصر ومكان وطنه فى الحياة .

هذا الجندى المجهول هو الذى فعل الأعاجيب . وهو الذى دك الحصون بعد أن طال حولها الحصار ، ونفذ إلى القلاع الضخمة بعدأن طال بها الوقوف هو الجندى المجهول ، ذلك الذى مات دون أن يكتب اسمه فى صفحة التاريخ وقضى دون أن يذكر فضله إنسان ، ثم نسب المجد كله للقائد الذى دبر الخطة ، وقاد الحملة ، وكان على رأس الفيلق .

وماذا يكون هذا القائد العلم من غير الجندى الصغير التائه فى الصفوف والحشود . هذ الجندى الذى آمن بالوطن ليموت فى سبيله ولم يؤمن ليسلم له قياد الزعامة .

كم من جندى صغير مجهول صرع زعيم خصومه ، فدانت لأمته ألوية النصر وكم من جندى صغير مجهول انتهز فرصه غفلة من عدوه ففتح ثغرة جاء منها الفوز وكم يحفظ التاريخ من قصص غاية فى الروعة والقوة لهؤلاء الجنود المجهولى الإسم. فهذا الجندى المجهول ، الذى تقدم فى معركة دمشق حين حاصرها المسلمون فى أيام الفتوح الإسلاميه الأولى ، فاقتحم الشقة المكشوفه لينال الخصوم وخاض البحر دون أن يخشى الأسهم التى تناوشه من كل جانب حتى وصل إلى السور فاعتلاه ثم قفز من فوقه ففتح الباب للجيش .

فتح الباب المغلق : الذى ظل العرب يحاصرونه شهوراً طوالا فاقتحموه فاتحين فدانت لهم المدينه .

من يعرف اسم هذا الجندى ؟

لقد نادى القائد فى الجيش بعد الظفر والنصر . يطلب إلى ذلك البطل أن يتقدم إلى خيمته . فلم يتقدم أحد .

وازداد إلحاح القائد فى أن يرى الجندى المجهول الذى فتح الجيش أبواب النصر ، ولكن الجندى ظل على إصراره فى أن يظل مجهولا ، كأنما رضى أن يحتسب أجره عند الله .

وأخيراً .. تقدم رجل ضامر الوجه ، نحيف القوام ممزق . إلى خيمة القائد وقال له : إنه يستطيع أن يدله على ذلك الجندى على أن يكتم ذلك عن الناس جميعا .

فأعطاه وعده .. فقال هو أنا .

ومضى .. ولم يذكر اسمه .

وظل التاريخ يذكر « صاحب النقب » دون أن يسجل له اسماً واضحاً أو نسباً منسباً أو تاريخاً مفصلا .

وظل اسمه علماً على الأبطال الذين يجودون بأنفسهم وأرواحهم فى سبيل الفكرة التى يعتنقونها دون أن يحرصوا على شهرة أو جاه أو اسم .

وليس شك أن اسم صاحب النقب ، وأمثاله ، الذين انتظمتهم المعارك والمواقع والأحداث فى مراحل التاريخ الإنسانى كله . ستلمع لمعاناً قوياً أشد قوة ووضوحا وإشراقا من أسماء العظماء والكبراء والأبطال . هؤلاء هم اداة الإنقاذ فى ساعات الحرج ، عندما تتعرض الأعمال الكبرى والانتصارات العظيمة والمعارك الضخمة .. لأن تنهار ، لأن شيئاً قليلا أو « ثغرة » ضيقة ستفسد المعركة .. فى هذا الوقت عندما يبلغ الأمر ذروته وخطره ، يتقدم ذلك الجندى المجهول الاسم فيهب حياته لوطنه ، وزحف من دون رجال الجيش جميعا فيحل العقدة ، ثم يموت بعد ذلك أو يعيش . وقد ذكر التاريخ عمله ولم يذكر اسمه .. سيجىء اليوم الذى يستطيع فيه الشرق أن يعرف فضل هؤلاء الأبطال الذين آثروا جزاء الله وتركوا الدنيا دون أن يخلفوا فيها مظهراً من مظاهر الظهور أو الغرور .

مجلة الاهداف ١٩٥١

الوصول

كثيرون هؤلاء الذين يقفون على محطة الحياة فى انتظار القطار وكثيرات هن كذلك المنتظرات .

والأمر فى « الوصول » موكول إلى الحظ ؛ كما هو موقوف على العمل والجهد . بعض الناس ينتظر الجاه . وبعضهم ينتظر الشطر الثانى . وبعضهم ينتظر وهماً من الأوهام !

وحتى الذين منحتهم الحياة كل شىء ، ما زالوا ينتظرون شيئاً آخر . وقل أن تجد إنساناً بغير أمل ، أو غير منتظر .

لا يهمنا أن يكون ذاك الذى ينتظر تافهاً ، أو هاما . فذلك أمره موكول إلى أصحاب الآمال أنفسهم ، ولكن الذى يهمنا أن بعض الناس ينتظر ويطول به الانتظار . ويمر قطار ، وقطار ، وقطار ، دون أن يكون من بينها القطار

وعود .

كم منا من لا يزال ينتظر « النصف الثاني » منذ عشر سنين أو أكثر - يترقبه في كل أنثى ، وفي كل مجتمع ، وفي كل مكان . وقد وضع في نفسه صورة معينة محددة . فيها الجمال وفيها الخلق وفيها المال أحياناً وفيها الحسب والنسب . وهو ما زال يتطلع . ولا يجد ضالته ، وما يزال يسأل في المحافل والأندية عن هذه وتلك . راغباً في أن يصل . ولكنه لم يصل بعد .

وهذا كاتب مغمور . يطمع في أن يكون يوما من رجال الفكر والقلم وهو ما يزال يجاهد ويكافح ، ويكتب ويقرأ . ويدرس ويراجع . ويرسل الفصول والمقالات إلى عديد من الصحف والمجلات .. ولكنه لم يصل بعد .

وهذه فتاة تترقب الرجل « الزوج » ويطول بها الانتظار أو الاستقصاء ثم هي تقع على ظلال من ضوء فتعد نفسها ، وتتجمل وتصدر عن أسلوب جديد من شأنه أن يغري وأن يعجب . وهي تجهد نفسها في أن « تمثل » دورها على أحسن وجه ؛ وأن تؤدي « امتحانها » بنجاح .

وما يزال الرجل ، وما تزال المرأة ، وما يزال المتطلع إلى المجد أو المال أو الزواج يتجمل ويعد نفسه ، ويشحذ ذهنه . ويجيد إتقان دوره على مسرح الحياة . وينفق من وقته وأعصابه ما وسعه الجهد ؛ رغبة في أن يصل .

وهو في هذه المرحلة - مرحلة الانتظار على محطة الحياة في انتظار القطار - يتمثل فيه صور المكافح المجاهد . فإن كان طبيبا كان عمله غاية في حسن الأداء وإن كان موسيقيا كان فنه مثال التجويد والإتقان .

ولكن هل يمكن القول بأن « الوصول » يغير كثيراً من الطبائع وأحاسيس النفوس ذلك ما يمكن أن نلمسه بوضوح إذا ما درسنا حياة الكتاب والفنانين والعباقرة جميعا . إن الشهرة والمجد والجاه - عندما تتحقق - يحل بالنفس لون من الفتور فيضعف الإنتاج ويقل التجويد ويصاب الفن بذلك اللون من الهدوء الذي يصدر عن النفس حين تصبح حديث الناس في كل مكان .

ويقولون أنه قلما تجد عبقريا أو فنانا يجيد بعد بلوغ الشهرة وذيوع الصيت . كما كان يجيد قبلا ذلك لأن المجد يصيب أصحابه بذلك المرض الذى يسمونه النفاق الاجتماعى فتراه - بعد أن كان مجهولا - تائها منزويا ، يعكف على أوراقه أو ألحانه أو صوره . يسهر ليله ويقذى عيناه تحت أضواء المصابيح ، وينفق ليله ونهاره مكدأ متعبا ، تراه وقد أحاطته أوضاع جديدة منها الحفلات وأسباب التكريم وقيود الألقاب وزيارات المعجبين ، ومقابلات أصحاب الأعمال . وإذا به ينتقل من دنيا الفن التى كان يحلق فيها نحو السماء إلى دنيا المادة والمساومة والبيع والشراء ومواعيد الطبع أو الإذاعة والإعلان وما وراءها من متاعب وغرور ومظاهر واستعلاء . وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة . فهى ما أن تصل بأن تتزوج ، حتى تعود إلى طبيعتها الأولى . ثم يركد حسها شيئا فشيئا . حقا ، ما أقسى أيام الانتظار ، ولكن ما أسعد تلك الأيام ، فهى أيام الإنتاج الدائب والعمل الخصب ، وهى أيام التأهب والترقب واليقظة الذهبيه ، وهى أيام التجمل وشحذ الذهن وإعداد القريحه .

ولكن أيام الوصول ، حين تأتى بعد أيام الانتظار تكون أصدق الجزاء !

الاهداف : ١٩٥١

ملحوظة : أعتقد أنى الان بعد مرور خمس سنوات لا أوافق على هذا الرأى جملة ، وإنما أرى أن بعض الكتاب والمفكرين لم يخدعهم البريق وظلوا يصدرون عن نفوس قوية مفطومة . .

التجـــــــربة

يقولون أننا حين نقرأ الكتب مثلا ونستمع إلى الذين علت بهم السن ، إنما نستفيد من تجاربهم ومن خبرتهم مايضيء لنا الطريق وما يدفعنا إلى التعمق فى فهم الحياه وقد علمنا بعض ما أصابهم من أخطاء فنتجنبها ، وما وقع لهم من أحداث فلا نقع فيها .

ولا شك أننا نستفيد فعلا من الكتب ومن الناس خبرة حين نسمع منهم حديثاً عن تجاربهم . ولكننا لا نستطيع أن نجزم بأن ما من هذه التجارب سيضاف إلى كياننا بحيث لا نجد أنفسنا فى حاجة إلى تجارب جديدة .

ذلك لأن فوارق السن ، وتنوع أسباب الحياة ، واختلاف مظاهر المجتمع ووسائل العيش ، كل هذا من شأنه أن يجعل للتجارب الماضية صورة التمثال الذى قد نعجب به ولكننا لا نفيد منه .

من ذا الذى يكتفى بتجارب الناس ويقتنع بها دون أن يمارس هو تجاربه الخاصة فى محيطه الخاص ، ومن ذا الذى تكفيه العبرة المنقولة أو المسطورة فتغنيه عن العبرة الواقعية .

إن التجربة حين تقع ، إنما تترك أثرها فى القلب محفورا . . أما التجربة التى تقرأ فهى تمر بالنفس كالخاطر والخيال . وقد تغرى قارئها بأن يزاولها لا أن يتحاشاها . وأن يقع له مثلها لا أن يتجنبها .

وليس بانسان كامل ، ذلك الذى يعيش على هامش الحياة فيقرأ أحداث الناس وتجاربهم وقصصهم ويكتفى بها دون أن يكون له تجارب وأحداث وقصص

إننا نريد ذلك الذى يقتحم كل مكان ، ويصرع كل حجاب ، ويمضى فى الحياة لا يصده شىء عن تحقيق غايته ، يسير على الأرض ، ويركب البحر ، ويمتطى السحاب . ويذهب إلى أقصى الأرض .

إن التجارب فى الحياة متاع نفسى لا يعرف قدره إلا الذين أتيح لهم أن يتصلوا بالحياة وأن يرتطموا بأحداثها وأن يطلبوا مكانهم فيها .

أما أولئك الذين أعطتهم الحياة النعمه والمال . فآثروا الدعة ، فسيظلون ما عاشوا على هامش الحياة ! لا يجدون لذة الجهد المبذول ، او التجربة الواقعة أو الصراع الموصول .

أعرف صاحباً ، وهبه الله المال والنعمة ، فلم تقعده عن الضرب فى الأرض فذهب إلى أقصى الشمال وإلى أقصى الغرب .

وساح فى كل مكان . ورأى شروق الشمس فى منتصف الليل فى النرويج وجلس على البحيرات فى سويسرا . وصعد الى ناطحات السحاب فى نيويورك وجرى وراء السباع فى أدغال جنوب أفريقيا ، وجعل المال وسيلة لمتاع الحياة واكتسب من ذلك تجارب وتجارب .

هذه التجارب ، كانت ذكرياته الحلوة الباقية ، عندما ارتفع به السن . . وعجز عن الرحلة .

ولكن ما فائدة هذه التجارب لصاحبها ؟

يقولون : أنها تخلق فى الإنسان حاسة اليقظة والتنبه وسرعة الإدراك والقدرة على النفاذ إلى ما وراء المظاهر والصور .

وذلك حق لاشك فيه، ولكن الأمر الذى أشك فيه أن تجارب الإنسان تكون شاملة وهى عادة تكون محدودة بالناحية التى كرس نفسه لها . فالتاجر المجرب يفهم جيدا فى حدود السلع التى يعمل فيها . ولكنه لا يستطيع مثلا أن يفهم فى الصناعة أو الزراعة . وبعض الناس يستهويه لون محدد من الحياه . . فلا يحسن الفهم فيما عداه ، والكتاب الذين يعيشون فى أبراجهم العاجية ، ويعكفون على الكتابة والقراءة والبحث . قد يفهمون مسائل المجتمع والفكر والسياسة العليا ويعرفونها فى دقة ويبدون الرأى فيها غاية فى القوه والوضوح .

ولكنهم حين يتصلون بالحياة العامة ، يبدو أحدهم أشبه بالرجل الساذج البسيط الذى لا يعرف شيئاً من أوليات الحياة .

وقل من الناس من يتاح له أن يبرز فى أكثر من ميدان من ميادين الحياه أو يفهم الحياة فهما كاملا .

وليس شك أن الذين يتاح لهم أن يصلوا إلى المجد بعد التجارب والمتاعب يكونون أثبت فى ميدانه وأصدق من الذين تكون الظروف أو الوراثيات وحدها هى السبب فى بروزهم وتألقهم .

مجلة الاهداف : ١٩٥١

قصة الفتية المغربين

هل عرف العرب أمريكا قبل «كولومبس» ؟

هذا هو السؤال الذى يجيب عنه التاريخ بقصة الفتية الثمانية الذين خرجوا من (لشبونه) والذين أطلق عليهم الفتية المغررين أو الفتية المغربين والذين اقتحموا بحر الظلمات .

هى مغامرة رائعة ولا شك ، فقد اشترى أبناء العم مركباً حمالا . وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم الأشهر .. ولنستمع إلى الإدريسى وهو يصف رحلتهم «ثم دخلوا البحر فى أول هبوب الريح الشرقية . فوصلوا إلى بحر غليظ الموج ، كدر الريح ، كثير الصخور قليل الضوء . فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى وجروا فى البحر ناحيـــة الجنوب اثنى عشر يوما ، ونزلوا بها فوجدوا عين ماء جاريه وعليها شجرة تين برى فاخذوا من تلك الغنم

فذبحوها فوجدوا لحومها مرة . ثم ساروا فى الجنوب اثنى عشر يوما إلى أن لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها إلى عمارة وحرث فقصدوا إليها ليروا مافيها .

ثم حملوا فى مركبهم إلى مدينتهم على ضفة البحر فنزلوا بها فى دار فوجدوا رجالا شقرا ، شعورهم بسيطه . وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب . فاعتقلوا فى بيت ثلاثة أيام .. ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم العربية فسألهم عن حالهم وفيما جاءوا وأين بلدهم ؟ فاخبروه فوعدهم خيرا . ثم أحضروا بين يدى الملك فقالوا : إنهم اقتحموا البحر ليروا ما فيه من الأخبار والعجائب ويقفوا على نهايته ؛ فلما علم الملك بذلك ضحك .. ثم عمر بهم زورق عندما بدأ جرى الريح الغربية ، وعصب أعينهم وجرى بهم فى البحر برهة ، قال القوم : قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جيء بنا إلى البر ، فأخرجنا وكتفنا إلى خلف وتركنا بساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس ؛ ثم سمعنا ضوضاء وأصوات ناس ، وأقبل القوم فحلوا وثاقنا وكانوا برابر . فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا . . قال : إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين !

ثم ماذا ؟ ثم استطاع الفتية المقتحمون من العودة إلى لشبونة ، ويرجح أنهم وصلوا فى رحلتهم إلى مقربة من جزائر « آزور » غربى البرتغال ، ويقال إن الجزيرة التى انتهى إليها الفتية هى جزيرة « كنارى » أو إحدى جزر الخالدات التى لا تبعد عن الساحل الشمالى الغربى لإفريقيا إلا بنحو مائة كيلو .

الزمان ٩ أغسطس : ١٩٥

لا أؤمن بالادب المهجرى

الشرق ما زال فى دور التكوين والبناء ، وهو يسعى فى سبيل الحرية ، ورد غائلة الاستعمار وطرد الاحتلال . والأدب هدى المجتمع وأداة التوجيه فيه ، وصدى لمعالمه الروحية والنفسيه والعقليه .

ولذلك فان أى أدب لا تهدف إلى الرسالة المقدسة الكبرى . ولا يدفع إلى القوة والحيوية . ولا يعين هذه المهمة ، فهو أدب عن متخلف واقع الأمة ، وغاية الفكر ..والأمم بين مرحلتين : مرحلة الضرورة ومرحلة الترف . ونحن فى مرحلة الضرورة التى نحتاج إلى أدب التوجيه ، فاذا انتهت مرحلة الضرورية أمكن أن يقام أدب للترف .

وهنا نعود إلى السؤال القديم الجديد :

— هل غاية الأدب توجيه الحياة ؟

طه حسين وسلامه موسى وغيرهما يقولون بالإيجاب . فى حين أن جمهرة على رأسها توفيق الحكيم لا تقر هذا الاتجاه .

ولا شك فى أنه من الخير كل الخير أن ينتفع المجتمع من الأدب القديم .
ولا يضير الأدب ولا يحول بينه وبين سمة الخلود جلال التجرد فى أن يكون ضربا من وسائل الإصلاح . وهو إلى أنه تصوير لعالم الواقع لا يمنع الكاتب المثالى المحلق فى أجواز الفضاء بحكم تصويره للبطولة الأرضيه من أن يكون مراقبا عمليا يصف أدواء المجتمع . ولسنا بصدد الحديث المستفيض من أدب المهجر كنوع من هذا الأدب الذى لا يؤدى للمجتمع ولا للانسانية المتجهة إلى الكمال شيئا .. هذا اللون العاطفى الوجدانى الشعرى المتحرر من القيود ، الذى أنشأه أدباء الرابطة العلمية فى مهجرهم . والذى استطارت شهرته فى الشرق وأصبح عنوانا على مدرسة كبرى من الأدب ، قلدها الكثيرون من الشباب وجرى فى ركبها .

والواقع أن المهجريين كانوا مضطرين إلى إنشاء هذا اللون من الأدب فهم قد تركوا وطنهم الأصلى ، ومن ثم رفعت عنهم شئون الجهاد السياسى والثقافى المرتبطة به ، وهم يعيشون فى وطن آخر لا يرتبطون به . . ولذلك فقد كانوا مجموعة ، متفقة فى الأذواق ومعـــالم الفهم والاتجاهات الروحية ، ولكنها تتمثل عالما جديداً ، فى صور من الحنان والشوق والحرمان .

ومن ثم جاء أدبهم على هذه الصورة .

وليس فى الفن المهجرى استقلال واضح ، وإنما هو مظهر مهزوز لأدب تاجور والخيام وغيرهما . تلمح فيه الصوفية والروحية . على صور مسرفة أو معتدلة . يرتبط فيها الغرب بالشرق . وأمريكا بلبنان . والأرز بوادى الفريكه

وفى هذا اللون من الأدب ثوره على الحيـــاة والتقاليد واللغة والفن جميعا . وهو الأدب الذى يقول : إن الدودة أخت لنا والغراب ابن عمنـا .
الأدب الذى تغلب الصورة المرسومة فيه على العاطفة . واللوحات المؤلفة

على الخاطر . ويعتمد على الظلال والأضواء . والأشعة والنور . والضباب والثلج وقوس قزح .

هذه مدرسة الترف الذهنى . ولكنها لن تكون بأى حال مدرسة للنضال والكفاح فى سبيل تحرير الأوطان .

هى مدرسة المراهقة والشباب والخيال والحب الأفلاطونى والفتيات العوانس . والاحلام المعسولة .

أنا لا أؤمن بالادب المهجرى . وأرى أنه لم يؤد للانسانيه شيئاً مما لها على الأدب من حقوق .

مجلة الصباح ١٩٥٢

من عيوبنـــا [1]

من عيوبنا فى الشرق . أننا نجرى وراء البريق الخاطف اللامع . ولو كان فى حقيقته سرابا . ونؤمن بكل من دفعته الظروف إلى الامام فأصاب شهرة أو صيتا دون أن نعرف حقيقة ما وراء هذه الشهرة . فاذا تجمع الناس حوله بالحق أو بالباطل . تجمعنا وأطلقنا ألسنتنا فى مدحه والأعجاب به وتقديره بحكم هذا الهوى الجماعى الذى لم يقم فى أول الامر على حقيقة واقعة .

من عيوبنا فى الشرق أن يسعى بعض الناس ليكونوا « أذنابا » لبعض الناس . هؤلاء هم الكسالى المتواكلون الذين يمشون على سناد من الشفاعات والوصايات . هم الذين لا يكدون عقولهم ولا أذهانهم لينتجوا ويعملوا ويزحفوا إلى المكان الحق الذى تؤهلهم له مواهبهم ويجدون فى الجرى فى ركاب العظماء سبيلا سهلا يسيراً للنجاح .

وقد جهلوا إنما ينفقون فى هذا السبيل المريب من أخلاقهم ومن كراماتهم

(١) كان استفحال الحزبية المصرية فى فترة هذا الفصل مصدر الوحى له .

وأنهم يبتذلون الرجولة ويمزقون المعنى الإنسانى القائم فى عقولهم وأنفسهم . فيصبحون مسوخين أذلاء . لا فى العير ولا فى النفير .

وأنهم حين يكسبون المنصب أو الجاه أو المال — عن هذا الطريق — إنما يفقدون العزة التى لا تتاح إلا للذين وصلوا إلى مكانهم الحق بالكفاح والجلاد والنضال .

ومن عيوبنا فى الشرق أننا لا نتجرد للحق . ولا نقبل الامور مجردة . فنحن نراها دائما فى صورة الغرض ولا نراها مرة فى صورة العمل الإنسانى الخالص ، فاذا دعا الداعى إلى الخير قلنا لعله يريد شهرة وظهوراً . وإذا قام من ينهانا عن المنكر قلنا إنه يعجز عن اقترافه . وإذا أثنى أحد على إنسان قلنا لعله قضى له مصلحة أو أدى له خدمة فهو يمتدحه جزاء عمله .

وإذا ذم أحدنا إنسانا قلنا إنما فعل ذلك لخلاف أو لخصومة . وهكذا نجعل الدوافع الشخصية أساس معاملاتنا . والعوامل الخاصة أساس تصرفاتنا

ومن عيوبنا فى الشرق أننا أحيانا نرضى بموقف « الإمعة » الذى يجرى مع التيار . فنؤمن بالرأى تحت ضغط عاطفة معينة . أو ظرف خاص جريا مع الناس . فلا نفحص الأمر قبل أن نتبعه . ولا نتشكك فيه قبل أن نقرره ولا نقبله وندرسه قبل أن نعتنقه . ولذلك يجىء عملنا لمذهبنا فاتراً تافها . لأنه إنما جاء تحت ضغط عاطفة شارده أو مجاملة كاذبة أو تقليداً محضا .

ومن عيوبنا أننا نحايد فى بعض الامور فلا نقطع فيها برأى خشية أن نقول شيئاً يحسب فيه حساب الخطأ قبل حساب الصواب . ونحن لا ندرى أننا حين نقول ونخطىء خير من أن نقف موقف الصامت المعيوب .

ومن عيوبنا فى الشرق أننا حين نكرم أى بطولة إنما نكرمها على الصورة الوهمية المسرحية فحسب . نقول فيها الخطب ونكتب عنها المقالات . ونقيم له الاحفال ونحشد لها من الالفاظ والكلمات الطنانة الضخمة ما يكون أحيانا مادة للسخرية

والابتذال . ولكننا نقف عند هذا الحد ، فلا يفيد هذا البطل شيئاً «عملياً» أو «مادياً» ، من جهاده وكفاحه ومن الآلام الطويلة التى تحملها والمتاعب الضخمة التى بذلها فى سبيل أن يصل إلى ما وصل إليه من فوز أو نصر .

ومن عيوبنا أن ننصرف عن المخطىء ونزدريه . فاذاسقط رجل فىخطأ ما أو إذا هوت فتاة تنكرنا له أو لها وجفوناهما . وأشحنا بوجرهنا عنهما . وقلنا فيهما مقالةالخصم الألد . وقطعنا مابيننا وبينهما من حبال المودة. وقدكان العكس هو الصحيح ، فان المخطىء فى حاجة إلى التوجيه ، كما يحتاج المريض للطبيب . وإننا إذا جفونا المخطىء وتنكرنا له . فتحنا أمامه باب الحقد والخصومة ، وأيقظنا فى نفسه شعوراً من الانتقام مما قد يدفعه فى طريق خاطىء لأنه حين يرى أن المجتمع يتنكر له يتنكر هو له لـكل مقومات الخلق والفضيلة .

ولو أننا أمددناه بالحنان واقتربنا منه ، وعالجنا خطأه ، ووجهناه لاستقام على الجادة وصلح من أمره ما كان يفسد ، واستقام فى كيانه ما كاد ينهار ..

مسرحية هاملت

أراد الأستاذ الكبير « محمود تيمور » أن يشركنا معـــه فى رحلته إلى أوربا فأرسل إلينا من « الدانمرك » صورة قلعة « كرونبورج » وكتب معها هذه العبارات :

« هى قلعة « هاملت » فى بلدة السنيور فى شمال الدانمرك .. قيل إن شكسبير زارها عندما كان يحترف التمثيل ، وقد استلهم فكرة مأساته الخـــالدة من أسطورة سمعها هناك . »

.. واليوم أصبحت هذه القلعة كعبة الزوار يحجون إليها من كل صوب وتقصد إليها الفرق التمثيلية لتقوم بتمثيل « هملت » فى فناء القلعة ، وقد رأيت أن استعيد قراءة هملت وأنا أتطلع إلى هذا المنظر الطبيعى الرائع .. وذكرت كيف استطاع هذا « الجو الفنى » أن يوحى إلى شكسبير خيوط تلك القصة فأخرجها إلى الناس آية خالدة من آيات الفن .

ومن ذا الذى لا يقشعر بدنه حين يذكر هاملت . ويتصور مواقفه الدموية القاسية حين أراد أن يأخذ بثأر أبيه .. ويذتم له .

عاد هملت من فيتنبرج بعد أن تلقى العلم بجامعتها فعلم أن أباه قد مات منذ شهرين ، وأن عمه كلوديس قد خلفه على العرش وتزوج من أمه « جرترد »

ولاحظ الشاب ذلك المرح والنعمى التى تحيط بأمه وعمه ؛ ثم ذكر والده الذى قضى دون أن يذكره أحد . واستشعر من وراء ذلك معانى الوحشة والأسى ، وغشيته غاشية .. كان الليل قد تقدم ، وهناك بدا له شبح والده .. فكاد يصعق .. وفى هدوء أخبره أن عمه قد سكب السم له ، وهو نائم فى الحديقة ، وأن أمه قبلت أن تستبدل زوجا بزوج .. ثم طلب إليه أن يثار له ، بقتل عمه كلوديس .

وهنا صدع هاملت للأمر .. وأخذ يعد العدة للثأر ، وبدأ يتصنع الجنون وقد أزعج عمه أمره ، فدس له العيون والأرصاد .

وجاء هاملت بالممثلين .. وتركهم يمثلون أمام الملك والملكة قصة الجريمة ، وقد ذعر الملك للمفاجأة ، وأرسلت أمه فى طلبه .. ودار بينهما حوار عنيف وهما يتحدثان . خيل إلى هاملت أن وراء الستر من يرقب حديثه أو يستمع إليه ، فهجم عليه بسيفه يريد قتله ظناً منه أنه عمه الملك ، وسرعان ما عرف فيه والد أوليفيا التى أحبها أعنف الحب .

وقد انزعج الملك للحادث ، واحتال للخلاص من هاملت فارسلة فى مهمة إلى إنجلترا ، فى صحبة رجلين من رجال البلاط . وضمن رسالته أمراً بقتل حاملها وفى الطريق اكتشف هملت المؤامرة ووضع اسم رفيقيه اللذين لقيا حتفهما .

وفيما هو عائد إلى البلدة ، إذ يشاهد حفلا مهيباً ، هو حفل أوليفيا التى ماتت بعد أن جنت عندما بلغها نبأ مقتل أبيها بيد حبيبها .

وعرف أن أخاها لايرتس قد عقد عزمه على أن ينتقم من هملت لأبيـه

وأخته ، وقد انتهز الملك الفرصة فدبر نزالا بين هملت ولايرتس ، الذى أعد حربة مسممة السنان ليطعن بها خصمه ، وكان الملك قد أعد نخباً مسموما ليقضى به على هملت فيما لو انتصر فى المعركة ، غير أن هملت لم يغفل عن المؤامرة ، فهوى بجسمه فوق غريمه فسقطت حربة خصمه ، فتناولها وأغمدها فى صدر غريمه الذى لم يمت ، وشربت الملكة الكأس فماتت صريعة .

وهنا صارح الغريم هملت بالأمر . وصفت نفساهما للانتقام من الغريم الأول . . فتناول هملت الحربة ، وضرب بها رأس عمه فهوى ، ومات هملت من طعنته ، وأسلم لايرتس أنفاسه .

تلك هى الخطوط الرئيسية لقصة هملت التى تذكرنا بها قلعه (كرونبورج) قصة الانتقام والدم ، كما أراد (شكسبير) أن يصورها فى مسرحيته الخالدة .

ومهما تكن قصة هاملت أسطورة سمعها الكاتب العبقرى فانها قصة الصراع الإنسانى الدائم ، المتجدد على العصور والأجيال .

الزمان ٢١ سبتمبر ١٩٥١

سجلوا ذكرياتكم ..

أعرف صديقاً يكتب مذكرات يومية شخصية منذ ربع قرن ، فلا يفوته يوم من الأيام دون أن يعكف على كراسته فى المساء ، ليسجل أبرز ما وقع له فى يومه أو ما شاهده ! مثل هذه المذكرات تعتبر بحق تحفة نادرة ، ولو كان صاحبها يعيش فى الريف ! وأول ما يعطيها صفة الجمال الفنى البساطة والصدق والصراحة فى عرض الوقائع والأحداث فهو يكتبها لنفسه ولا ينوى نشرها أو إذاعتها ، ولذلك فهو يعطى نفسه الحرية الكاملة ليسجل فيها كل شىء ..

وهى بذلك أصدق كثيراً من المذكرات المذاعة المعروضة للبيع منها أو المنشورة فى الصحف . إذ قلما يستطيع الكاتب حين يواجه سواه أن يقول كل شىء ، فالظروف والتقاليد والأوضاع تحول دون الكثير ، كما أن هناك مسائل شائكة قد تتعلق بالروابط الزوجية أو الجنسية قد لا يبيح العرف الإفضاء بها - بل إن اعترافات روسو بالرغم من أنهـا ظهرت فى فرنسا فان الكثير من النقاد يلقونها بفتور ويصفونها بالمجون ! ويرمون كاتبها بأنه قصد

من عرض هذه الجوانب المكشوفة إلى تحقيق رغبة خاصة تتعلق بمركب نقص شخصي .

وقد تكون كتابه المذكرات هواية ، ولكنها بعيدة الأثر في النتائج الخاصة والعامة على السواء ، والادب العربي الحديث في عهدنا أحوج ما يكون لهذا النوع الجديد ، خاصة إذا كان صادراً من مثل صديقي المغمور الذي يعيش في أطواء الريف ، ومذكرات الشباب المغمور تعطي صورة واضحة صريحة لطبيعة الحياة وصور النضال فيها ومثل هذا (المجهول) الذي يعمل في الميدان العام في صدق ووضوح ، وتقوم على كواهله الضـــامرة كبريات الأعمـال ، فهو الذي يضع اللبنات الصغيره في صرح الإنسانية الجبار .

لكل مناذكرياته وأيامه ، الحلوة والمره . هذه الذكريات جديرة بالتدوين والتسجيل حتى تكون عدة للرياضة الروحيه في الازمات ، نستطيع أن نعود إليها حين يكفهر الجو من حولنا فتقرأ ، ونطـــالع ونتملى تلك الخطوات والحلقات التي تنقلنا فيها من وضع إلى وضع إلى وضع ، كأنما نستعرض فيلماً سينمائيا عن الجهاد والكفاح . ومن ثم يتجدد العزم وتشرق الابتسامة على الثغر ، ونعاود العمل بعزيمة جديدة .

قد يضيق الناس بهذا القول ، ويقولون وأين نحن في الحياه حتى تكون لنا مذكرات وهذا قول مردود ، فان أسباب الفشل والتراجع في الشرق تعود إلى هذا الشعور بالنقص في نفوس الشباب .

لا تستهن نفسك ولا تقل مع المغالطين إن سجل الذكريات لا يكتبه إلا العظماء ، فان جهادك الصغير القليل هو أصدق الجهاد .

إنه الجهاد الذي لا ضجة فيه ولا جلبه . إنه المبرأ من النفاق والدسائس والا كاذيب . إنه الجهاد الخالص للوطن .

قد لا يحس بك التاريخ الكبير الذي لا يسجل إلا أسماء أفراد قلائل في

كل جيل ولكنه خالد فى أعماق الزمن — وفى تقلب الدهور . وخالد عند الله .

لقد انتشرت فى الادب العربى بدعة كتابة المذكرات بعد أن كتب روسو وأندريه جيد وغيرهم فى الغرب مذكراتهم . ومن أظهر هذه الذكريات الايام لطه حسين وحياتى لاحمد أمين وعودة الروح لتوفيق الحكيم وتربية سلامه موسى .. وكل واحد من هذه الاسفار يمثل منهاجا مستقلا .

ولكن بقى أن نقرأ مذكرات (الجندى المجهول) الذى يكتب فى بساطة فلا يتأنق وفى صراحة فلا يداور . وفى حرارة فلا يتوقر ولا يتصنع .

اكتبوا ذكرياتكم ليقتنع بها الابناء . وسجلوا فيها تجاربكم ودروس حياتكم وما احتملتم من مشاق حتى تطبعوا روح الجيل الجديد على الجهاد .

الزمان ٢٠ أغسطس ١٩٥٠

البطولة[1]

اختلف المفكرون والباحثون فى تعريف « البطولة » باختلاف الأزمنة والظروف والحوادث ، وباختلاف الأمم والأجيال والدول .

وذهب البعض إلى أن البطولة هى السمو فوق الأحداث . ورأى غيرهم أنها محاولة تحرير نواميس الكون وتوجيهها . وقال غير هؤلاء وهؤلاء أنها هى القهر والغلبة والتسلط .

وجاء فى العصر الحديث فلاسفة وقفوا من البطولات القديمة وقفة الشك والارتياب وأخذوا يحللون بعض الشخصيات اللامعة ويرفعون عنها القناع ويبرزونها فى صورة عادية ، وانتهى بعضهم إلى القول بأن الصدف والظروف هى صاحبة الفضل الأول فى إبراز هذه الشخصيات وتألقها التى لو غيرهم

(١) فصل من دائرة معارف الجندى

فى أزمان غير أزمانها لكان من أصحابها الأفراد العاديين .

وأنكر فلاسفة آخرون البطولة كليه ، وسخروا منها وقالوا إنها جاءت نتيجة لرغبة الشعوب فى أن تلتقى عند شخص مهيب فيه صفات الآلهه .

وقد اجتمع هؤلاء الفلاسفة والمفكرين على وصف البطولة بأنها تغيير لوجه التاريخ . وتوجيه للحياة وجهه جديدة تنقلها من حاضرها وواقعها إلى حياة أخرى قد تكون أعظم وأقوى .

وتجىء البطولة دائما على أثر ظهور الحاجة إليها . وهى تبرز فى الناحية التى يستشعر المجتمع فيها النقص ؛ ولذلك فهى تتطور مع الزمن وتتغير مع الظروف المختلفة . ولا تكون فى جيل واحد ولافى الأمم التى تعيش فى ذلك الجيل على نسق واحد . وإنما تجرى حسب تطورات الامم ونواميسها الخاصه فالبطولة من نوع معين فى وقت معين قد تصلح لأمة ولا تصلح لأخرى .

ولكن هذا لا يمنع من القول من أن « سمة » البطولة البارزة قد تطورت مع الزمن .

تمثلت فى العصور الاولى فى « أبطال الحرب » وظلت الزعامة الحربيه تلهب النفوس ببريقها وقتا طويلا ، وكانت هذه الزعامه مظهرالصراع لامتلاك المواقع الهامة على شواطىء الانهار وفى المناطق المرتفعة والمحصنه .

وبعد أن اشتد الصراع الحربى ، برزت البطولة فى صورة أخرى هى صورة الانبياء ورجال الدين والقديسين . وكانت دعواهم بالمرحمه والإخاء والمساواة تهز القلوب وتدعو إلى التخفف من غلواء المادية والصراع على الامتلاك وتعمل على توجيه الشعوب إلى الروحية .

ظلت البطولتان تتنازعان العالم ، تمثلان الصراع بين الروحية والمادية

إلى أن برزت بطولات أخرى فى عالم الاختراع العلم والسياسة .

فقد كشف العلماء عن جراثيم الأمراض واخترعوا الأمصال وتقدموا فى فن الجراحة ، كما اكتشفت الكهرباء واللاسلكى والطيران ؛ وتقدم علم العمارة والصناعة واخترعت الآلات الحربية الدقيقة والضخمة . ولم تقتصر البطولة على هذه الميادين بل تعدتها إلى ميدان المرأة فظهرت مدام كورى ، وظهرت جان دارك وغيرهما .

ولم تقتصر البطولة اللامعة وحدها ، بل انتظمت طوائف مجهولة أدت واجبها فى سبيل الإنسانية فلم تذكر إلا بنوعها . ومن هذه الطوائف البحارة الذين خاضوا غمار البحار . وقابلوا الموت . والذين ذهبوا إلى الجليد والجنود قامت على كواهلهم الأهرام والمصانع والعمارات .

وظهرت فى التاريخ بطولات قامت على الغدر والظلم ، كبطولة نيرون وهولاكو وتيمورلنك ، وكان مذهب هؤلاء الأبطال ، هو أن الشجرة لاتحفظ الأيدى التى تتعهدها بالرى والعناية وإصلاح التربة ولكنها تحفظ اليد المعتدية التى تأخذ خنجراً يحفر اسم صاحبها على ساقها . ويقول فى هذا بعض الفلاسفة إن الإنسانية تحفظ ذكرى الغزاة المدمرين الذين نقشوا أسماءهم بحروف من نار على جبهة ذاكرتها .. وتنسى الأيدى الرحيمة التى آست أدواءها وعللها .

وبعد . فالبطولة خالدة فى التاريخ ما بقيت الإنسانية ، وهى ليست من (المذاهب) التى يمكن أن يطويها الزمن أو تمحوها التقلبات .

الزمان ٢٦ سبتمبر ١٩٥١

المجـــد

من الأوليات المعروفة ، أن بنى البشر هم تلك السلالة التى بدأت بآدم ، والتى تملكت الأرض وسيطرت على الكون . والمؤلفة من الرجل والمرأة ، ولأجل هذا الإنسان نزلت الأديان ووضعت الشرائع . وقد تميز عن الحيوانات بالعقل ، وهو المخلوق الذى أنشأ المدنيات والفلسفات وبنى الهرم الأكبر وناطحات السحاب وشق الأنهار واخترع اللاسلكى والكهرباء .

ومن سلالته الأبطال الذين كتبوا أسماءهم فى سجلات الخلود ، ومنهم النوابغ والعظماء فى السياسة والأدب والحرب والفن ، ومنهم الأنبياء والزعماء والملفاء ، ومنهم ما لقود المجهولون ، الذين كانوا سواعد المجاهدين ، وعدة الحرب وأداة الإنشاء ، والقوى التى بنت وهدمت ، وانتصرت وانهزمت .

والإنسان ، هو الذى أوقد الحروب ، وهو الذى كشف عن الكنوز

والذخائر .. وهو نفسه الضعيف الذى يمرض ويموت . وهو فى صحته، وهو فى أوج مجده ، وهو الذى يعيش حتى يبلغ من العمر أرذله .

ويقول علماء البيولوجيا إن الإنسان حيوان فقرى قائماً ؛ ومن مميزاته الظاهرة على سائر الحيوانات الثديية أنه يعتمد فى سيره على قدميه فقط وأنه كان فى أول الأمر صياداً ثم أصبح زارعا .

وإذا كانت « المدنية » قد أتاحت للانسان فرصة الزمن الفراغ والسعادة ومكنته من الوصول إلى درجة كبرى من القوة والتملك والسيطرة فان الأديان قد ربطته بالقيود ووضعت له نظما تفصل بين الخير والشر والحق والباطل .

يعيش بنى الإنسان فى الحياة على الصراع فى سبيل الغلبة والسيطرة والقوة ويبدأ هذا الصراع فى الميادين الضيقة بين الأفراد ثم يمتد إلى الأمم والشعوب

كان الصراع قديماً يقوم بين بنى الإنسان حول الأديان . وهو يقوم الآن بين الساسة فى الأحزاب وبين المذاهب فى الدول .

لقد ذهب الفلاسفة والمفكرون مذاهب مختلفة فى تقرير رسالة الإنسان فى الحياة ، فأيد فريق منهم وجهة نظر الأديان التى تقول أنهم خلقوا لعمارة الارض وعمل الصالحات وعبادة الله .

وذهب فريق آخر إلى أن غاية الإنسان فى الحيـــاة هى المجد والسعادة ووسيلتهما المال والمرأة . . والقائلون بهذا هم دعاة الحضارة الغربية القائمة .

ويرى فريق آخر أن غاية الإنسان فى الحياة هى « المجد » والعمل الكبير الخالد الذى يعلى صفة البطولة .

وينقسم الفلاسفة والمفكرون فى الحياة بصدد هذه القصة إلى مدرستين : مدرسة ترى ان للحياة غاية ، أيا كانت هذه الغاية ، شخصية أو وطنية ، خاصة أو عامة . وأن الإنسان خلق ليأكل ويعيش ، ولا هدف له . وما الحيــاة

إلا أيام يقضيها الإنسان ثم ينطوى .

ويذهب الناس وراء هذه المذاهب إلى نهاية الشوط فيرى بعضهم أن الحياة مادية صرفة ولا غاية لها ، فيذهبون مذهب المتعة ويخرجون عن كل قيد . . ويبلغ هذا اللون ذروته فى التطبيق « بالوجوديه » ويذهب الطرف الآخر إلى نهاية الشوط فيرى أن الحياة تافهة لا قيمة لها وأنها لا تساوى شيئا ، وأن الغاية هى البعث والجزاء . . فينصرفون عن متاعها ولا يقبلون منها إلا القليل من الزاد وهؤلاء هم « الصوفيه » .

ويمضى فريق آخر « بين بين » ويرون أن الحياة جماع بين متاع الدنيا وبين البعث والجزاء وهؤلاء هم المعتدلون وفيما بين هذا الاعتدال وبين طرفى المسرفين فى الاخذ والمسرفين فى الامتناع درجات .

ويعيش الإنسان فى صراع فى سبيل النصر والعلاء والغلبة وفى سبيل الحصول على المال والجاه . . ثم هو يصارع نفسه فى سبيل الانتصار عليها والانصراف عن رغباتها .

الزمان ١٩ سبتمبر ١٩٥١

نهاية الاديب

هل يستطيع « رجل الفكر » أن يعيش فى الشرق من سن قلمه .. ؟

ذلك هو السؤال الذى يجب أن نطرحه الآن . . ونتلقى الإجابة عليه فى « صور من حياة المفكرين والادباء الذين عاشوا فقراء وماتوا فقراء .

المقطوع به أن « الفكر » وحده لم يصلح ـ حتى الآن ـ ليكون « حرفة » يمكن أن يعيش منها المفكر أو الكاتب أو الاديب .. ولا بد أن يكون «الفكر» عملا إضافيا ينتزع له صاحبه من عماله الوقت ، ويختلس له اللحظات . ولن يتأتى له أن يجعله عملا رئيسيا أو أن يجرد نفسه له بحال .

ومن هنا لا نجد فى مفكرينا وكتابنا ؛ تلك النماذج الرائعة التى نلمسها فى أفق الفكر الغربى أو الإسلامى القديم والتى لا توجد إلا عندما تيسر أسباب الحياة للمفكر والكاتب بحيث يستطيع أن ينتج وأن يعيش للفكر ، وأن

تختفي من حياته متاعب العمل للعيش .

ونحن لا نتشاءم ، ولا نقول أن هذا الأمر سيظل مظهراً دائماً لحياة المفكرين فى الشرق . ولكننا نطمع أن يجىء فى القريب . ذلك اليوم الذى تتهيأ فيه للمفكر والأديب الأساليب التى تفتح أمامه آفاق العمل الخالص المجرد دون أن يكون فى حاجة إلى أن يلتمس رزقه من عمل آخر غير الفكر ومن غير أن يبقى العمل الأدبى الخالد ذيلا .

ولو حاولنا أن ندرس حيوات الأدباء والمفكرين فى مصر ، لما وجدنا واحداً منهم أتيح له — حتى الآن — أن يعيش من الفكر وحده فهم بين صحفى أو سياسى أو مدرس أو موظف .

عمله الرئيسى غير الأدب وغير الفكر . ثم هو يجنح بين آن وآن إلى خلوته ويستقطع من وقته فراغا ليقرأ ويكتب وينثر على الناس تلك الآثار .

وما من كاتب من كتابنا الذين لمعت أسماؤهم . وتحدث الناس عنهم فاطالوا الحديث استطاع أن يعيش من الأدب أو لم يمت فقيراً .

وكان يقال قديماً فى وصف كل رجل بائس فقير « أدركته حرفة الأدب » ويبدو أن هذا القول ما زال صحيحاً بالنسبة الذين لم يقبلوا أن تطويهم السياسة أو الصحافة ولم ينزلوا إلى ميدان الصراع الحزبى . أو إرضاء رغبات الجماهير أو كتابة الأدب الخفيف .

عاش « الرافعى » للفكر مجرداً ينتج أبدع روائعه . وهو موظف فقير الحال .. وكان اسمه يدوى فى الشرق والغرب وهو لا يجد مصاريف تعليم ابنه الدكتور محمد الذى سافر إلى أوربا لإكمال تعليمه ولولا أن عمل والده فى الرسالة بأجر كان يبعث به إليه .

ومات « الرصافى » بعد أن أذاع فى العربية أروع آيات الفن ولم يترك

حلماً واحداً . ولا شيء يمكن أن يسمى أثاثاً سوى سرير خشبي عليه حشية بالية .

وعاش « حافظ ابراهيم » فقيراً ومات فقيرا ، وكانت الصحف تشيد به وتطلق عليه اسم « شاعر النيل » ومرتبه الضئيل فى دار الكتب لا يكاد يكفيه

وترجم « السباعى » أروع آيات الأدب الفرنسى . وترجم كتاب الأبطال لكارليل الذى أشاد فيه بالإسلام والشرق .. ومع ذلك فقد كان يشكو نفس اللوعة التى يشكوها من أدركته حرفة الأدب .

وكتب « المنفلوطى » قصصا كانت مدرسة الأدب الوجدانى الحديث ، ولولا أنه اشتغل بالسياسة إلى جانب الأدب لما استطاع أن يعيش .

ومات « المازنى » ولم يخلف شيئا ، وكان فى حياته من أبرز الأدباء وأبعدهم شهرة ، وترك للادب العربى أدبا خالداً .

وغير هؤلاء أدباء كثيرون عاشوا فقراء وسيموتون فقراء لأنهم جردوا أنفسهم للفكر . وهناك جنود مجهولون يعكفون على الأسفار والكتب ، ويخرجون آيات من الفن الرفيع ومع ذلك لا يعرفهم الناس ، ولا يجدون من موارد الرزق ما يهيء لهم الحياة الطيبة التى تعين على الدراسة والإنتاج والبحث. وفى الوقت الذى يقذى هؤلاء أعينهم تحت أضواء المصابيح فى سبيل خلق أعمال فنيه رفيعة تعز لغة الضاد . ولا يجدون الناشرين ولا القراء . بينا تجد طائفة أخرى مزيداً من الإعزاز والتقدير . لأنها قد شقت طريقها إلى العمل الذى يرضى النزوات والرغبات . إلى القصص الذى يطغى فيه الغرض على الفن وتعلو فيه الغريزة عن الفكره ، وتضعف فيه روح التسامى والعزة والقوة .. هذه الالوان التى يطلقون عليها الادب الخفيف ،

والساندويتش وما إليها . هى التى تدر المال على كتابها ، وهى التى تلق عند الناشرين الرواج .

ولكن متى كان مثل هذا اللون من الإنتاج العجول السريع الشيطانى ؟ يستطيع أن يواجه النور ، أو يصارع الزمن ، أو يقاوم الفكر الحق ؟

إن مثله كمثل القش العائم على صفحة الماء الجارية لا يلبث أن ينطوى ويزول ثم يتألق بعد ذلك الأدب الرفيع ، والفن الصادق ، والفكر الخالد .

الزمان ١٧ أغسطس ١٩٥١

قفص مدانة :

أحمد أمين

كتابان يفرقان فى نظرى بين شخصية أحمد أمين المطبوعة ، وشخصيته التى أرادها هو ، هما : « فجر الإسلام » و « فيض الخاطر » ذو الثمانية أجزاء .

فهو فى فجر الإسلام « عالم » متعمق ، وباحث قارىء مستوعب ألم إلماما وافيا بثقافة هذا العصر ودرس كل ما كتب عنه فى العربية والإنجليزية ، فجاء كتابه هذا بحثا وافيا لا يستغنى عنه قارىء يريد أن يصل إلى غاية القول عنه ومقطع الرأى فيه .

ومهما يقال من أن أحمد أمين فى كتابه هذا قد « جمع » آراء المستشرقين والعلماء الاوربيين . وأنه لم يأت بجديد فإن الكتاب وما تلاه من كتب عن الضحى والظهر .. يعطى لك لوحة دقيقة من ملامح أحمد أمين النفسيه وتقاطيع وجهه وطبيعته وروحه .

هو عالم ما فى ذلك شك ، نشأ فى بيئة الازهر ، ثم انتقل إلى دار العلوم ، ثم خلفها إلى القضاء الشرعى . واشتغل بالقضاء حينا . ثم تركه إلى التدريس فى الجامعة .

فيه تلك الشخصية العلمية المنطوية المنقبضة التى تميل إلى الحزن وإلى الوحدة والتى لا تتصل بالحياة كثيراً ولا تعرف أو لا تريد أن تعرف شيئا من مناورات الحياة أو مداوراتها أو فنون الصراع القائم بين الناس فيها .

وهذا هو السر فى أنه حين أراد أن يكون كاتبا أديبا أو صحفيا ، أو حين أراد أن يتصل بالمجتمع أو بالسياسة أو بأحداث الحياة ومنازعات الناس أخفق وتخلف .. ذلك لانه حاد عن طبيعته الخاصة ، وليس من بأس على العالم ألا يكون أديبا . وليس من عيب على المفكر أن يكون صحفيا ، وخير لمن أراد أن يصل إلى قمة التبريز أن يتقن فنه الذى تفرد به ، وأن يوقف وقته وفراغه عليه ، ولا شك أن فجر الإسلام وضحاه سيخلد ما شاء العلم له الخلود .. بينما لن يصل إلى هذه القمة العالية كتابه ذو الاجزاء الثمانية « فيض الخاطر » .

وذلك يجرى فى الواقع مع طبيعة أحمد أمين ومع سنة الحياة ، فهو لم يتفتح قلبه للحب ، ولم يكن فى خلال رحلاته وأسفاره إلا الدارس الباحث الذى يواجه الاسفار مواجهة العالم ، لا مواجهة الاديب ، لا يستمتع بالحياة ولا يتعرض لمتاعبها ولا يقارف مخاطرها . ولا يكلف بالمغامرة .

وقد أورد فى كتابه « حياتى » أنه لما تزوج ظل على طابعه المنفرد .. ذلك الطابع الذى يتمثل فى الوحدة وفى الحياة بين أسفار الكتب وقد أنكر أهله منه هذا ولكنهم قنعوا به آخراً .

وهو عالم بحكم أسلوبه العلمى الخالص ، الذى قد يوصف بالجفاف ، وبانه ليس له سمت خاص يميزه ، وقد خلت كتاباته من العاطفة والوجدان . أو

روح الفتوة التى تهز النفس وتأخذ بالب . وهو من الكتاب العقليين الموضوعيين ، والبيئة الأزهرية أثر عميق فى هذا الاتجاه ، غير أنه عندما اندمج فى المجتمع ، اندمج على طبيعته ، لم يتحول أو ينتقل أو يحدث فى نفسه ذلك الانقلاب الذى يبدو فى كثيرين ممن بدأوا على غراره أمثال طه حسين ، زكى مبارك الزيات ، ومصطفى عبد الرازق .

ولكن أحمد أمين ظل كما هو : النفس المنطوية التى تزهد فى لقاء الناس وتجنح إلى العزلة ، وتسرف فى المطالعة والبحث وأفناء العيون تحت أضواء المصابيح . والحياة بين الكتب وأفكار العلماء . وهو يصف نفسه عندما التقى بعملته الإنجليزية « رأتنى شاباً فى السابعة والعشرين أتحرك حركة الشيوخ وأمشى فى جلال ووقار . والتزمت فى حياتى . فلا موسيقى ولا تمثيل ولا شيئاً حتى من اللهو البرىء ، ورأتنى مكتئب النفس منقبض الصدر ، ينطوى قلبى على حزن عميق . ورأتنى لا أبتهج بالحياة ولا يتفتح صدرى للسرور »

وبعد فهذا أحمد أمين ، عالم من العلماء أولا وقبل أن يكون من الأدباء .

حاشية : فى كتابى أضواء على حياة الادباء المعاصرين فصل مطول عن أحمد أمين

الرسالة ١٣ فبراير ١٩٥٢

المؤرخ الجرىء

كنت لا أعجب لشيء - فى العهد الماضى - لكثرة ما تفشى النفاق فى الصحافة والأدب وكتابة التاريخ .. أن يقف عبد الرحمن الرافعى على قدميه . . وأن يكتب تاريخ مصر فى حرية ، دون أن يبالى غضب فاروق ، أو ينافق زعماء السياسة .

ولكن يزول العجب ، عندما تعلم أن عبد الرحمن الرافعى قد رضى أن يعيش « محاميا » وأنه لم يكن يطمع فى أن يكون عضواً فى شركة ، أو وزيراً فى وزارة ، أو رجلا من حاشية الملك .

كان قد أعد نفسه ليكتب تاريخ مصر فى حرية دون أن يخاف شيئاً . أو يجعل لعامل من العوامل أثره فى الحيلولة بينه وبين أن يقول الحق .

والحق أن عبد الرحمن واحد من الذين عملوا على تأريث الثورة ، وتهيئة الأذهان لفهم مناورات الحياة السياسيه التى كان الملك السابق وأعوانه من

الزعماء يفرضونها على مصر .

وليس يستطيع أى مؤرخ أن ينسى أن عبد الرحمن الرافعى كتب تاريخ الملك فؤاد تحت سمع الملك المخلوع وبصره .. فى حرية كاملة ، على الرغم من أن فاروق كان يحاول أن يصور والده بصورة البطل .

ولقد لقى عبد الرحمن الرافعى كل سخط يمكن أن يوجهه ملك طاغية مستبد مستبد إلى مؤرخ عندما كتب بحرية عن حياة والد الملك فى حياته .

لقد كتب تاريخ اسماعيل فى عهد فؤاد . وكشف عن الأخطاء التى وقع فيها . وصور المصائب التى حملها لمصر والديون التى وضعها فوق كتفيها فكان ذلك عاملا من عوامل تحطيم استقلالها .

كتب تاريخ اسماعيل فى حرية . فى الوقت الذى كان فؤاد يبحث فيه عن مؤرخين يكتبون عن اسماعيل المفترى عليه !

ولم يعبأ عبد الرحمن الرافعى بما يصيبه من جراء ذلك !!

وجاء فاروق . وفى إبان تسلطه وطغيانه ، كتب تاريخ « فؤاد » فى حرية وصوره على حقيقته ، دون أن يبالى شيئا ، كأنما كان قد قطع كل ما بينه وبين هؤلاء الناس من صلة ؛ ولم يكن طامعاً فى شىء مما يقتل فى المؤرخين أو الكتاب حرية الكتابة أو نزاهة تحرير النصوص .

ولكن ليس معنى هذا أن عبد الرحمن الرافعى كان يقبل أن يهاجم وضعا أو شخصا لهذا السبب أو ذاك . وإنما هو التاريخ الحر .. المجرد ، يراجع ويبحث ويستقصى ، إنه لا يوجه التاريخ ، وإنما يجرد التاريخ !

وقد جرى بينى وبين الأستاذ عبد الرحمن الرافعى عام ١٩٤٦ محاورة فى هذا الشأن . فقد تفضل وأرسل لى على أثر صدور كتابى «اخرجوا من بلادنا» خطابا فيه تحيه وتقدير وفيه عتاب على أننى تصرفت فى نصوص التاريخ .. وقد أرجع هذا فى خطابه إلى حكم السن .

ولما التقيت به ناقشت معه هذه المسألة طويلا ، فكان مما قاله لى أن على المؤرخ ان يكون متجرداً وهو يكتب . عليه أن يتحرى الحقائق وان يناقش النصوص وان يستخلص الصحيح من الزائف . ثم يدعه للقارىء الذى يحكم للشخصيات او عليها .

وكان من رأيى ان التاريخ عجينة طيعة . وان علينا ان نستفيد منها فى توجيه الشباب ، وإننى أؤمن بالاستفادة من النصوص التاريخية لكشف خبيئة الأشخاص الذين عدهم الناس فى بعض الظروف أبطالا ، ومن هؤلاء سعد زغلول وفؤاد وقاسم أمين ومحمد عبده .

فالأستاذ الرافعى يؤمن بتجريد التاريخ ، وأنا أؤمن بتوجيه التاريخ وهذا هو الفارق بين المؤرخ والمفكر . ولذلك فقد أدهشنى ما قرأته فى بعض الصحف من أن عبد الرحمن الرافعى جامل الخديو توفيق ولم يعرض له بلوم كبير . وهذا فى نظرى كلام سطحى ، فليس عبد الرحمن الرافعى ممكننا ان يذم الناس جميعا ليكون ذلك فى نظرنا هو المؤرخ النزيه .

وليس من المعقول أن يهاجم الرافعى إسماعيل وفؤاد . ولا يهاجم توفيق ذلك ان اساس البحث عنده هو السند التاريخى وحده . دون الهوى او الغرض او اى عامل نفسى آخر .

زينب

زينب : ابنة الرسول .

نمت وترعرعت فى بيت النبوة وفى أفياء القرآن وفى ظلال الإسلام .

ومن كانت مثلها قد رضعت الحكمة والذكاء والفطنة والجمال والخلق من خير أب وخير أم .

تزوجت ابن خالتها «أبو العاص» من خيرة فتيان قريش الذين عرفوا بالأمانة والخلق والذين تاجروا فكسبوا . وتم قرانه عليها مرضياً من «خديجة»

وظلا يكرعان كئوس الهناء والسعادة الزوجية مترعة .

وجهر محمد بدعوة الإسلام . وآمنت به زوجه وبناته ومنهن زينب . . ولكن أبو العاص عز عليه أن يفترق عن دين أهله . فوقف موقف الحياد لا لمحمد ولا عليه . وكيف يكون عليه وعنده زينب ابنة الرسول وهي عزيزة عنده حبيبة إليه .

وجنحت قريش إلى المكر فطلبت إلى ابن العـــاص أن يطلق زينب . ولكن كيف يرضى بذلك وهو يحبها أشد الحب ، وكيف يرضى وهى تملأ عليه نفسه وقلبه بأخلاقها النبوية الكريمة وسماحتها المحمدية الطاهره وعقلها الراجح وإخلاصها ووفائها .

وكيف ترضى هى ، وهى تحب أبو العاص أشد الحب ولا ترى له عندها بديلا .

وانتهى الأمر عند ذلك . وظل لها وظلت له مدى ثلاثه عشر عاما بعد بزوغ دعوة الإسلام . وجاءت موقعة بدر وانهزم فيها المشركون ووقع أبو العاص أسيراً فى يد المسلمين مع غيره من الأسرى .

وكان النبى طوال ذلك الأمد ـ أمد الهجرة ـ دائم الحنين إلى ابنته وصورتها تمر بذهنه فتشوقه وتصور له مكة وبطاحهـــا ومنزل أبو العاص وغير أبى العاص بصورة الأماكن الغالية المحبوبة .

وافتدى الناس أسراهم . والرسول مشغول عن زوج ابنته يطيل التفكير فى أمره وأمر افتدائه ، وأنه بما عرف عنه من خلق يريد أن يسوى به غيره من الأسرى .

ووردت بعض رسائل الفداء وفيها رسول أبى العاص يحمل فدية زينب لأبيها عن زوجها . وكان فداؤها أموال وبينها قلادة غالية لها تاريخ وماض ، ولها عند محمد أثر وذكريات .

ولقد رآها الرسول فشغل قلبه فأعادت إلى نفسه خواطر دافئة عن أيام مضت .. إنها قلادة خديجه ، التى كانت تتبدى بها أمامه ، الإصباح والامساء ثم وهبتها بعد لأى لابنتها حينما تزوجت أبى العاص .

وغاب محمد فى تفكير عميق طويل . ومرت به ذكريات ثلاثة عشر عاماً أو

يريد بفصولها جميعا . ومن بينها خديجه الزوجة المحبة الوفيه التى توفيت وخلفت فى القلب أثراً لن يمحى . وهو أيضاً مفكر مطيل التفكير فى أمر زينب وزوجها وفديتها .

وكانت القلادة قد فتحت باباً من أبواب الذكريات كله الصور السعيدة الماضية . وكله التذكر لخديجة وأيامها وحنانها .

وكان ذلك التفكير الذى طال بمحمد قد ملأه بالحزن فقال :

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا .

أرأيت إلى لغة الرسول وبيانه ورجائه .

بات أبو العاص ليله مؤرقا سهداً ، فهو مشوق أعنف الشوق أن يعود إلى زينب وقد ردت إليه حريته وماله ، وردت إليه قلادة زينب الغالية .

ولكن كيف يعود . وها هى زينب تتكلف السعى إلى مدينة الرسول وقد روعتها قريش وهاجتها وأخافتها فسقط جنينها فى الطريق ، ودافع عنها كنانة ابن الربيع . وانزعج النبى غضباً لما حدث لابنته وأمر أصحابه إن لقوا تلك الفتية أن يقتلوهم .

عاد إذن أبا العاص إلى مكة حين لحقت بالمدينة . وظل مشغولا بأسفاره ومتاجره من مكة إلى الشام . وقد لقيه بعض جنود الرسول مرة وهو عائد من الشام فاسروه . ولكنه هرب وظل يسعى مسرعا حتى دخل دار زينب . فدهشت حين رأته وأمنته وحمته . ولا عجب فهى تحب أبا العاص فلا يحول بين ذلك الحب دين ولا مذهب .

فلما اصبح الصباح أعلنت زينب فى المسجد انها قد اجارت ابا العاص .

ثم دخل الرسول على ابنته فقال :

— أى بنيه – اكرمى مثواه ، لا يخلصن إليك . فانك لا تحلين له .

أرأيت إلى ادب الرسول وكرم خلقه .. وخرج الرسول إلى أصحابه فقال لهم

— إن الرجل منا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالا فان تحسنوا وتردوا عليه الذى له فانا نحب ذلك . وإن ابيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به

أرأيت إلى محمد الرسول إمام الإنسانية والأستاذ الأول كيف يسير دفة الأمور؟

ورد مال ابن ربيع وحمل عروضه وتجارته وعاد قافلا إلى مكة ، وهناك وزع على الناس اموالهم وقال يامعشر قريش هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه

قالوا : كلا . قال . أشهد ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا الخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم

وعاد ابو العاص إلى المدينة مسلما مبايعاً وعاد إلى جناح زينب .

جريدة الافكار ٢٥ سبتمبر ١٩٤١

كتابات فى السجن

لا غرابة فى ان تصدر عن السجن رسائل ومؤلفات خالدة تبق على الزمن وتظل تحدد موقف اصحابها من التاريخ . فان السجن كثيراً ما يكون من اصلح البيئات للتأمل والتفكير والدراسة الخالصه . ولعله يكون كذلك على وجه اكثر صلاحية لأولئك الذين عاشوا حياتهم فى خضم ذاخر من الكفاح او المتاعب او الأعمال المتشعبة التى لا تدع فرصة للراحة او للتأمل .

فاذا وقع امر السجن كان بمثابة القضاء الذى لا يرد . والفاصل الكثيف بين الواقع والخيال . والحجاب السميك بين عالم الحياة التى تجرى وبين عالم محدود يجرى فيه التفكير كل مجرى ، يذهب فيه التأمل كل مذهب . وهنا تتاح الفرصة لدراسة الإنسان لنفسه دراسة قوية بليغة ما اظن انه يستطيع ان

يوفق إليها فى مكان آخر .

فهذه الوحدة الخالصة ـ تعطى عالما جديدا من الحياة ، فيه آلام وفيه لذته . ولهذا كان هذا السجن بالنسبة لأوسكار وايلد فترة تكفير ومراجعة للنفس وتطلع إلى مستقبل أكثر سعادة . وكان قد قدم للمحاكمة بسبب آراء اذاعها فى محاضراته ومؤلفاته وقال فيها إنه لا يبحث عن السعادة وإنما يبحث عن اللذة . وكان قد جمع إليه طائفة من الشباب الناشئين ، فاثار هذا الخطا ثم وقع الخلاف بينه و بين مركيز كوينزبرى الذى كان ابنه صديقاً لوايلد .

واشتد الخلاف بينهما مما أدى إلى تقديمه للقضاء . وأمام المحكمة عرض لكتابات وايلد وقال خصومه إنها ذات نزعة منافيه للآداب . وكشف عن جانب من حياته الشخصية ، وصدر الأمر بالقبض على وايلد وتنكر له اصدقائه وسخر منه الجمهور واعلن بعض معارفه سرورهم بالحكم عليه وحجز الناشرون عن الجمهور كتبه وسحبت مسرحياته من المسارح . وأدى ذلك إلى الحكم بافلاسه وبيع اثاث بيته ومجموعات تحفه .

ودخل السجن ليقضى فيه سنوات انشأ فيها كتابه « من الأعماق » الذى يعد اروع ما كتب فى حياته .

وقد استطاع السجن ان يطهر روحه . وان يغير وجهته ، وان يحوله عن هذا الاتجاه الخارج عن القيود والخلق وعن مذهبه فى الإغراء بجمال الرذائل كما حجزه عن اسلوب الحياة الناعمة الذى اوقعه فى الفسق والرعاوة ، وقد وصف نفسه فى كتابه حيث قال : « لقد اخذت الشرود والتسكع والمغالاة فى التأنق خطة لى فى الحياة واحطت نفسى بأصحاب العقول الصغيرة وبأصحاب النفوس الصغيرة . واسرفت فى تبديد ذكائى . وفى تبذير ما زرقته من شبابى وكنت اظنه لا يفنى ابد الدهر ، وكنت اجد فى هذا التبديد والتبذير لذة عجيبة » .

وقال فى كتابه : إن نقطة تحول حياته هى يوم أرسلة والده إلى جامعة اكسفورد ويوم قذف به الناس إلى السجن . ولكننا نرى أن حياته فى فرنسا هى التى غيرت طباعه وعدلت مذاهبه الفنية ودفعته إلى هذا اللون الذى عرف به « فى صورة دوريان جراى »

وخرج اوسكار وايلد من السجن لا يجد صديقا ، وعجز عن أن يواصل إنتاجه . وقال عن نفسه : « إنه وضع عبقريته فى حياته ، على حين أنه وضع ذكائه فى كتبه » .

*

وكتب سرفنتس كتابه « دون كيشوت » فى السجن ؛ كان يطمع فى الخلود والشهرة ولا يجدهما ؛ فلما عجز عن ذلك وآوى إلى سجنه كتب تاريخ حياته فعاش على الأيام وظل مصدراً لإلهام الكتاب والأدباء ، ومن بين هؤلاء جاستون باتى صاحب « دولسينه » .

لقد بدأ حياته محبا المغامرة ، شغوفا بقصص الفروسيه ، وخلق بذلك لنفسه جواً نفسيا حالما من المعارك والحروب والقتال . وأتيح له أن يحارب فى إيطاليا وتونس والبرتغال . ويشهد معارك المسيحيين مع الأتراك فى ارض اليونان . وقد أصيب فى هذه المعركة ومرض بعدها بالحمى وأسر فى طريق عودته حيث وقع فى يد قراصنة البحر الذين قادوه إلى الجزائر حيث عاش أسيراً أربعة اعوام . وفى خلال سجنه هذا كتب قصته — قصة حياته — واستنزف فيها احلامه ، وصور الفروسية التى كان يحلم بها فلما اراد ان يحققها فى حياته فشل وعجز .

وكانت الأيام قد أكسبته ذلك اللون من السخرية والفكاهة المريرة فعاشت قصته على الأيام لأنها صورت احلام الشباب وسحرها الخالد فى النفوس ، الباقى فى الأعماق ، لقد اراد سرفنتس ان يخلد فى كمحارب وفارس . فلما لم يوفق اتاح له السجن ان يكتب قصه مغامراته ليخلد كقصصى وكاتب .

لقد أعادت السجن ذكرياته، وصفحات طفولته، وأفسح أمامه مجال الخيال التام والتصوير، وأعطاه ذلك اللون من الدوران حول النفس الذى يحتاج إليه السجين حين يحرم من عاطفة الناس حوله فيعوضها بالحديث عن ذاته. وقد عاشت صور أبطاله: الفارس «دون كيشوت»، وحصانه «روستانت» وحبيبته «دولسينه»، على مدى الدهر يرسم صورة البطل الذى وكل إليه إصلاح ما فى العالم من شرور والحبيبة الريفيه الساذجة التى تحمل إسم الأميرات

*

وفى السجن كتب نهرو بعض مؤلفاته وفى مقدمتها استكشاف الهند وكتب هتلر كتابه كفاحى الذى كان دستور دولته.

وفى السجن أيضا كتب ابن تيمية تفسيره الضخم للقرآن الكريم.

أدب الاعتراف

ينفر الإنسان بطبعه من «البوح». ويكره الاعتراف، إذ يرى فيه إحساساً بالنقص أو اضطراراً إلى كشف خفايا حياته. والكاتب المفكر والفنان لا يخرج من هذه القاعدة، إلا من ناحية واحدة. هو أنه معنى بدراسه الطبيعة الانسانية والكشف عن خفاياها والبحث وراء أسرارها، فهو لا يمتنع قط أن يكون هو بنفسه موضع التجربة، وأن تكون أحاسيسه وعواطفه وخلجات نفسه وتصرفاته نموذجا إنسانياً يمكن عرضه. بل إن الكاتب لأقدر بالطبع على أن يصور التجربة النفسية المتصلة به، أصدق من تصويره التجارب التى تمر بالناس.

غير أن الكاتب والفنان يستطيع أن يبوح دون أن يكشف نفسه،

او يقف فى محراب الاعتراف ، وأن يلبس المعانى التى تضطرم فى نفسه أشباحا من الحياة تتحرك فى قصصه ورواياته . ولذلك فقلما يلجأ الكاتب إلى البوح إلا تحت ضغط عاصفة نفسية، أو أعصار ذاتى ، يدفعه إلى أن « يعرى » دواخله ويضع نفسه على المشرحة .

ولكن هل إذا جلس الكاتب ليكتب اعترافاته أمكن أن يقول كل شيء ، وأجاز لنفسه أن يكشف الستار عن طبيعته بما فيها من خير وشر ، وهدى وضلال ، وبر ونكر . أم أنه ينسرق من غير إرادة ليصور نفسه فى صورة البطولة ، ويضفى على جانبه المشرق أضواءاً تزيده لمعانا وإشراقا ، وهل يحاول أن يبرر أخطاؤه إذا صورها حتى تبدو أيضا صورا من الرجولة أو الفحولة أو القوة التى تبهر النساء أو الرجال أو التى ترسم له لوحة من لوحات الجرأة والحيوية ؟

وأمامنا الآن أربعة من الكتاب كتبوا اعترافاتهم ، وأعلنوها ، وأذاعوها فى الناس ، ثلاثة من الغرب هم جان جاك روسو وأوسكار وايلد وتولستوى . وواحد من الشرق هو الغزالى ، فلننظر فى مذكراتهم المكتوبة لنرى إلى أى حد يبدو « الاعتراف » طبيعيا ، ومتسقا مع منطق الحوادث فى حياة كل منهم ولنحاول أن نلقى الضوء على « أدب الاعتراف » .

*

بدأ « روسو » تدوين اعترافاته وهو فى الثالثة والخمسين . وهو تحت ضغط عاطفة معينة تتصل ولا شك بحالته النفسية والعقلية فى هذه السن ، حيث يقول « إن كتاب اعترافاتى وثيقة تصلح أساسا لدراسة القلب الإنسانى وهو الكتاب الوحيد من نوعه فى الوجود » .

ولقد حرص روسو أن يصور جانبه العاطفي على أوسع نطاق فتحدث عن قصص حبه وسرقاته وخطيئاته . وتدل عبارات روسو فى تقديم اعترافاته على الايمان بهذا العمل وعلى أنه أمر نافع وجديد ، لم ير فيه غضاضة ، ولم يدفع إليه إلا تحت ضغط شعور الرجل الذى قضى حياته مسرفا فى الملاذ حين تبدأ عاطفته فى الهمود . فقد كان روسو فى ذلك الوقت يشكو حالة من الضعف العقلى والجسمى ، لعل هذا الاعتراف جاء رد فعل لها حين أراد أن يبدو فى صورة الفحولة والجرأة فى عراك الملذات . يقول روسو : « . . . وهكذا بلغت السادسة عشرة من عمرى وأنا قلق مضطرب ، وأنا غير راض عن نفسى وعن كل شىء ، وأنا لا أعرف مسرات الحياة التى يعرفها لداتى وأندادى ، وأنا أبكى لغير سبب . وأنا كثير التنهدات دون باعث أو موجب .

وكان أندادى يدعوننى كل يوم « أحد » بعد الصلاة لأشاركهم اللعب . وكنت أسر السرور كله لو استطعت ان لا أجيب الطلب . ولكننى كنت إذا بدأت اللعب معهم أصبحت أكثرهم لهواً فى اللعب وإصراراً . ووصلت فى الشوط إلى أبعد مما يريدون ، وكنت فى ذلك صعب المراس فى البداية ، وصعب التوقف فى النهاية .

وكان فى طبعى اندفاع ونقص فى الاتزان . فكنت يوما ضحوكا مرحا ، أجمع حولى أندادى الصغار ثم لا ألبث أن أهجرهم على حين غفلة ، وكنت أجلس فوق السطوح أفكر فى السحاب العابر . أو أنصت إلى صوت المطر وهو يهطل فوق أوراق الشجر .

ويقول روسو : « أول فكرة جاءتنى عندما استجمعت أفكارى كانت فكرة كذبة بشعة ارتكبتها فى شبابى الباكر . وما فتئت ذكراها تقلقنى طيلة حياتى . وظلت حتى شيخوختى تملأ بالى قلقا . ولم تكن هذه الكذبة جريمة كبيرة فى ذاتها . ولكن لا بد أنها كانت أكبر جرما بنتائجها التى جرتها دائما

والتى صورها لى ندمى قاسية أعظم ما تكون القسوة . ومع كل فلم تكن هذه الكذبة إلا ثمرة الحياة ، ومع بعدها عن وقوعها بقصد إيذاء هذه التى وقعت ضحيتها أستطيع أن أقسم أمام السماء أنه فى نفس اللحظة .. كم كنت أود أن أبذل دمى كله بكل سرور ، لأحول نتائج هذه الكذبة إلى أنا وحدى »

ويروى بعد ذلك قصة السرقة التى ارتكبها عندما كان تابعاً عند مدام دى فارنس وقد أغراه ذلك الشريط القديم الصغير الذى فى لون الفضة على أن يسرقه فلما بحثوا عنه وجدوه فى أمتعته وحاولوا معرفة السارق ، فقال روسو : إن ماريون الطاهية هى التى أعطته إياه وكان كاذباً ، فقد عرف عنها الأمانة فلما واجهوه بها اتهموه بضعفه وأنكرت ماريون التهمة وبكت وقالت له : « آه روسو ، كنت أحسبك شريفاً » وكانت النتيجه ان طرد روسو وماريون من الخدمة . وقد عاش روسو نادما طوال حياته على هذه الفريه ؛ ثم يصور بعد ذلك طبيعته « لم أكن أخاف العقاب إلا قليلا ، لم اكن اخاف الا الفضيحة اكثر مما اخاف الموت او الجريمة او اى شىء فى العالم . كم كنت اود ان تنشق الأرض وتبتلعنى . وقد طغى الحياء الذى لا يغالب على كل شىء ، واصبح وحده سبب كل قحتى . وكلما شعرت باثمى جعلنى الخوف من الاعتراف به اكثر جرأة » .

وتحدث روسو فى اعترافاته عن حبه لمدام دوفان ومدام فارنس ، وصور كيف ان امه الصغيرة « مدام دوفان » عرضت عليه نفسها لتدفع عنه خطر العذارى الحسان .. « كانت قد استأجرت دارا ريفية خارج المدينة فدعتنى وعنيت باتخاذى صغيرها الاثير حتى لا اتهالك على العذارى الحسان .. ؟ واستطعت ان ادرك مدى طيبتها نحوى حين بصرتنى بالضرر الذى قد يصيبنى من فتنة تلميذاتى ، فى حين انها كانت ترانى جديراً بحب امرأة تعمل لخيرى وتعيننى على تحقيق احلامى . ثم انتهت إلى ان تجعل من نفسها عشيقة لى لتنقذنى

من الفساد الذى خشيت ان انحدر إليه فى صحبة الأخريات ، وهكذا تمضى اعترافات روسو لتصور جوانب حياته وفق القاعدة التى وضعها .

« ليس أحد بقادر على ان يكتب حياة المرء مثل نفسه . ذلك لأن المرء وحده الذى يعرف خفايا نفسه ، ولكنه حين يريد ان يدون ما تنطوى عليه نفسه ، يغلف تلك الخفايا بغشاء من الكتمان . وهو باسم الترجمة لحياته يكتب اعتذاره عن مساوىء تلك الحياة ، وهو يصور نفسه كما يريد ان يكون ، وليس كما هى كائنة فعلا » .

وقد وصف سانت بيف روسو من خلال اعترافاته بأنه لم يرزق عراقة الأصل ولم يولد فى مهاد النعمة . وقد كان به ميل إلى الرذائل الدنيئة ونزوات حب يخفيها ويستحى من إعلانها .

وكان فريسة لخلة الجبن والتهيب . كما انه اسلم للذات قياده ، ولم يكن يفكر فى الغد .

*

فاذا انتقلنا إلى « أوسكار وايلد » وجدنا طبيعة اخرى وحياة اخرى ، لقد كتب « وايلد » اعترافاته « من الأعماق » فى السجن ، على اثر زوبعة عاصفة وفضيحة نكراء ، تتصل بالشرف والخلق ، هى التى قذفت به إلى ما وراء السدود والقيود .

قال مؤرخوه أنه كان مترفا ، وقد اغراه المجتمع الفاسد بحب الرذائل . فذهب فى البحث عنها إلى ابعد الحدود ، إلى حد الشذوذ . وخرج عن كل قيد وتقليد وخلق . فقدم للمحاكمة باسم قصه كان مذهب الفن للفن هو مصدرها . وحكم عليه بالسجن عامين .

ولا شك أن الحياه الناعمة التى كان يحياها هى التى اودت به إلى الرخاوة والفسق .

وفى السجن حيث تقطعت بالكاتب أسباب الحياة ، وحيل بينه وبين متاعها . بعد عاصفه من الفضيحة على صفحات الجرائد ، جلس يكتب عن نفسه « لقد وهبنى الله كل شىء ، فأنعم على بالذكاء والشهرة والمقام الاجتماعى العالى .. ثم اتخذت الشرود والتسكع والمغالاة فى التأنق خطة فى الحياة ومذهبا فأحطت نفسى بأصحاب العقول الصغيرة ، وبأصحاب النفوس الصغيرة وأسرفت فى تبديد ذكائى وفى تبذير ما رزقته من شباب كنت أظنه لا يفنى أبد الدهر . وكنت أجد فى هذا التبديد والتبذير لذة عجيبة . . وكأنى قد تعبت من وجودى فى المكان العالى ونزلت عامداً إلى الأعماق لأبحث عن متعة جديدة .

والشذوذ فى مسائل الشهوه كان حكمه عندى حكم التناقض فى مجالى الفكر ثم استحالت الشهوة عندى مرضاً أو جنوناً وغاب عنى أن أى عمل مهما صغر مقداره يبنى الخلق ويهدمه ، وإن ما يفعله المرء بين جدران غرفة مقفلة سوف يفعله يوما على رؤوس الأشهاد .

ثم فقدت السيطرة على نفسى ، بل قد جهلت نفسى . فأبحت اللذة أن تسيطر على ، ثم انتهى الأمر بفضيحه لا حد لبشاعتها ، ولم يبق لى الآن إلا الذلة والضعة » .

ثم يصف الأثر النفسى للسجن « .. تولانى القنوط البالغ واليأس الشديد وغشيتنى غاشية من الحزن وانتابتنى نوبة من الغضب وطاف بى طائف من الغم لم يطق الكبت والكتمان فانفجر » .

ويصور حيـاته بعد خروجه من السجن « . . لقد عقدت العزم على الاستفادة من كل ما حل بى . وأن أحيل إلى تجربة روحية كل ألوان العذاب التى ذقتها فى السجن .

إن نقطتى التحول فى حياتى هما : يوم أرسلنى والدى إلى جامعة اكسفورد

ويوم قذف بي الناس في السجن . ومن الثابت عندي أني قد حوكمت على خطيئات لم أجترمها . وكذلك من الثابت عندي أن خطئا أكبر وأشد جرما لم أجاز عليها مطلقا .

وإني لأعرف أن المغمورين من اللصوص والمشردين الذين تضمني وإياهم جدران هذا السجن هم ـ من نواح كثيرة ـ أسعد حالا وأوفر حظاً » .

وهكذا يبدو « وايلد » في اعترافاته في صورة التائب الذي يذكر آثامه ، ويحاول أن يبدأ حياة جديدة . ولكنه لا يلبث أن ينحى باللائمة على المجتمع

أما « تولستوى » فيختلف كثيراً عن روسو ووايلد ، إنه افتتح حياته على أسلوب أبيقورى ، ثم انقلب بعد أن بلغ سن الخمسين إلى زاهد مصلح ، فعكف على الإنجيل ، وأخذ يدرس المسيحية ، ويذيع دعوة جديدة اشتراكية يدفع فيها بكل أعصابه وماله حتى ليغضب زوجه وأولاده .

جاءته أزمته هذه وهو في نحو الخمسين من عمره فتحول من الأدب إلى اللاهوت . ومن الملموس إلى الغامض . أحس كأنما هناك شبح مخيف يطارده واسودت الدنيا في عينيه . وأصبح كأنما زوجه وأهله غرباء عنه « ماذا دهاني ما هذه الكآبة التي عرتني بغير سبب ، ما هذا التبرم وما هذا الانزعاج ، إني لم أجد في الحياة متعة او اشعر فيها بما يهز مني الحس والعاطفة . لقد باتت زوجي غريبة عني . وتخلى عني أبنائي غير آبهين وأمسى العمل إلى نفسي بغيضاً ممجوجا » .

ومضى يسأل الله أن يهبه إيماناً قويا يملأ قلبه .

وكتب في اعترافاته ، إن العقيدة الدينية التي لقنتها منذ الصغر اختفت عندي كما اختفت عند غيري إذ بدأت في سن الخامسة عشرة أقرأ الكتب الفلسفية .

لست استطيع ان اعود بذاكرتي إلى تلك السنوات دون ان احس بالفزع والألم النفسي الشديد . فقد قتلت الرجال في الحروب ، وتحديت الكثيرين إلى المبارزة كي أقضي على حياتهم . وقامرت وخسرت واستغللت مجهود الفلاحين وحكمت عليهم بمختلف العقوبات ، وعشت عيشة إباحية ، وخدعت الناس . واقترفت كل الآثام : الكذب والسرقة والكذب بكل ضروبه ، وشرب الخمر واستخدام العنف والقتل .

في غضون ذلك شرعت اكتب مدفوعا بالغرور والطمع والكبر وفعلت في كتاباتي ما فعلت في حياتي . فلكي اظفر بالشهرة والمال — ومن اجلهما كنت اكتب — كان لزاما علي ان اخفي الخير واظهر الشر وهذا ما فعلت .

ومضى يصور حياته الأدبية « .. معتقدات هذه الفئة من الناس — اقصد زملائي — في الحياة ، كانوا يعتقدون أن الحياة في جملتها تتطور . وإننا نحن رجال الفكر نلعب اكبر دور في هذا التطور وان الفنانين والشعراء من بين رجال الفكر هم اصحاب النفوذ الأكبر . مهمتنا في الحياة أن يعلم الناس . فان سال سائل ماذا أعلم وماذا استطيع ان اعلم ، اجابوه ان هذا بناء على طريقتهم امر ليس من الضروري ان يعرف فالفنان يعلم غيره دون أن يشعر بذلك » .

وهكذا أنكر « تولستوي » ماضيه كله ، وتحدث اكثر ما تحدث في في اعترافاته عن عقيدته في صغره ، وانصرافه عن الدين . ثم صور كيف هانت عليه الحياة ولم يعد بريقها يملأ نفسه . وقد توارى من نفسه الغرور والطمع ، وزهد في مظاهر الدنيا . وبدأ يغمره شعور قوي بالإيمان وبالعمل لله ورعاية الفقراء .. وكان يقول : « قبل ان نمد ايدينا لمعاونة الفقير . ينبغي أن نرفع المعاول ونهوي بها على هذا الحائل القائم بيننا وبينهم » .

وكره حياة الأدب وعدها عبثاً من العبث ، فكرت في الشهرة التي تجلبها إلى مؤلفاتي وحدثت نفسي قائلا « حسنا، إنك ستصبح ابعد صيتاً من جرجول

او بوشكين او شكسبير او موليير . او اى فرد ذكراً من كتاب العالم طراً . . ولكن اى طائل لك من وراء ذلك ! »

وصور تحوله من الأدب . هذا التحول الذى أزعج ترجنيف فكتب إليه وهو فى فراش مرضه وعلى وشك الموت يقول : « عد إلى الأدب موهبتك الحقيقية . اسمع توسل رجل يموت » .

يقول تولستوى : « فكرت فى الفن والشعر . ولكن سرعان ما أدركت أن ذلك خداع ، واتضح لى أن الفن زينة للحياة ، ومما يغرى بها . بيد أن الحياة فقدت جاذبيتها عندى . وإذن فكيف استطيع ان اجتذب الآخرين ، ولما كنت فيما مضى لا احيا حياتى الخاصة وإنما احمل على امواج حياة اخرى ولما كنت أعتقد أن للحياة معنى ، فان انعكاس الحياة فى الشعر والفن بكل ضروبه كان يدخل السرور إلى قلبى . فكان يسرنى أن أنظر إلى الحياة فى مرآة الفن ، ولكننى لما بدأت ابحث عن معنى الحياة ، واحسست بالضرورة إلى أن احيا حياتى الخاصه ، اصبحت تلك المرآة بالنسبة لى غير ضرورية ، زائدة على الحاجة » .

هكذا صور « تولستوى » نفسه بعد تحوله ، رأى الحياة فى صورة أخرى وبانت معالم الشهرة والأمجاد أشبه بالزيوف والأوهام . ولكن تولستوى كتم عنا الجانب المتصل بالمرأة والحب والشهوات . فلم يتعرض له فى اعترافاته ويبدو أن هذا الجانب لم يتغير ، ولم تتغير نظرته إليه كما تغيرت فى الدين والأدب .

وكان تولستوى معروفاً بقوة البدن وبالحيوية وعرامة الشهوة ، وقد ظل كذلك حتى جاوز الثمانين .

ولكن هل يمكن استخلاص اعترافات أخرى لتولستوى فى هذا الجانب

بالذات ، لم يكتبها فى وضوح وعلانية وإنما دسها برفق ودقة فى قصته « موت إيفان اليتش » حيث يقول : « إن أهم أسباب عدم السعادة فى الزواج يرد إلى أن الشباب يخلطون بما يلقى فى نفوسهم عن الزواج إنه شيء يجلب السعادة . ولكن بعدما بين الزواج والسعادة فهو شقاء أبداً . وهو ثمن الاستجابة للرغبة الجنسية ، وإنما نتناسى فيه بقدر ما وعدنا به أنفسنا من وعود » .

تلك كانت إحدى عقد حياته الخاصة . ولكنه لم يجرؤ على أن يعترف بها وأن يتناولها على أكثر من صورة فى رواياته .

ويأتى بعد ذلك « الغزالى » إنه قريب الشبه من تولستوى ، لقد تبين له بعد أن أمضى عمره فى دراسة الفلسفة أنه كان مخطئا ، وأنه كان يضيع حياته بغير ثمن ، وظل هذا الخاطر يراوده حتى جاء اليوم الذى توقف فيه لسانه عن النطق . وأحس بأنه لابد ان يذهب بعيداً فى الحياة ليفتش عن الحقيقة

هذه الأزمة النفسية العاصفة دفعته إلى أن يقرأ كل شيء ، وأن يشك فى كل شيء ، ولندع الغزالى نفسه يحدثنا عن أزمته كما صورها فى كتاب اعترافاته « المنقذ من الضلال » قال : « .. وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود . والإقبال بكنه الهمه إلى الله تعالى . وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعوائق ، ثم لاحظت أعمالى فاذا أنا منغمس فى العلائق ، وقد اخترقت بى من جميع الجوانب ، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس والتعليم ، فاذا انا مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعه فى طريق الآخرة ؛ ثم تفكرت فى نيتى بالتدريس فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أنى على

شفا جرف هار ، وانى قد اشرفت على النار . إن لم اشتغل بتلافى الأحوال ، فلم ازل افكر فى ذلك مدة وانا بعد على مقام الاختيـــار . اصمم العزم على الخروج من بغداد . ومفارق تلك الاحوال يوما . واحل العزم يوما . واقدم فيه رجلا . وأؤخر عنه اخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الاخرة بكرة ، إلا ويحمل عليها جند الشهوة فتفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تتجاذبنى بسلاسلها إلى المقام . ومنادى الإيمان ينادى الرحيل . الرحيل . فلم يبق فى العمر إلا القليل ، وبين يديه السفر الطويل ، وجميع ما انت فيه من العلم رياء وتدجيل . فان لم تستعد للآخرة من الآن فمتى تستعد . وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تنقطع ؟ فبعد ذلك ينبعث العزم على الهرب والفرار .. فلم ازل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة اشهر ، آخرها رجب سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاضطرار إذ قفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس . فكنت اجاهد نفسى ان ادرس يوما واحد تطييبا لقلوب المختلفين إلى ، فكان لا ينطلق لسانى بكلمة ولا استطيعها البتة ، ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم . وقرب الطعام والشراب ، فكان لا يستساغ لى شربة ولا تنهضم لى لقمه . وتعدى ذلك إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطبـــاء طمعهم فى العلاج . وقالوا هذا امر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج ؛ فلا سبيل إلى العلاج » .

هذه هى الدوافع التى دفعته إلى ان يمضى فى الأرض على وجهه فيذهب إلى الحجاز ومصر وبيت المقدس والشام .. ويختفى فى منارة المسجد الكبير ليكتب كتابه الضخم « إحياء علوم الدين » .

ولكن هل حدثنا الغزالى عن اهله ، عن قلبه ، عن زواجه وحبه ، وهل

كانت هذه الأزمة مرتبطة بشيء من الجنس او العاطفة او غير ذلك من دقائق الأمور التى تتصل بفحول الرجال ؛ والتى تحول التقاليد والأوضاع عن الكشف عنها .. لا ندرى .

وشأنه فى ذلك شأن تولستوى ، فهما متشابهان فى هذه الاعترافات ، وفى صورة الأزمة التى ارتبطت بالعقيدة . فقد بلغ كل منهما اوج المجد والعظمة والشهرة .. ولكنه زهد فيها ونفر منها واحس بتفاهتها .. حينما تكشفت له الحقيقة . وعندما احس بأنه منقطع عن الغاية التى اتجه إليها القلب وقد بدا له غول الفراغ بعد ان اوغل فى جوانب الحياة . وزهد فيها ، واحس بأن لا بد من شيء جديد يملأ هذه النفس !!

*

وبعد فماذ تعطينا هذه الاعترافات ؟

هل تعطينا الصورة الكاملة الواضحة ، ام إنها تقدم لنا زاويه واحدة من زوايا الحياة ؛ هى الجانب الذى حرص الكاتب على ان يعترف به . إن هذه الاعترافات قد القت من غير شك اضواء واضحة على جوانب هذه النفوس الإنسانية الكبيرة وعلى ما يضطرم فيها من ازمات واحداث .. ولكننا نجدنا بعيدين جداً عن الصورة الكاملة ، إذ لا شك ان عوامل مختلفة كانت وما زالت تحول فى كل بلد وفى كل عصر دون إيراد الحقيقه كاملة ؛ فضلاعن ان النفس الإنسانية مولعة بأن تكشف جانب القوة وتتغاضى عن جانب الضعف عندما تمسك القلم لتعلن صورتها على الناس .

والمرأة ايضا ، ما امرها عند تولستوى او الغزالى ! لا ندرى .

—

مجلة الفصول : أغسطس ١٩٥٤

ذكريات رمضان

ماذا يحمل لى « رمضان » من ذكريات ؟

إن ابرز ما يغمر نفسى بالذكرى هو يوم ١٧ رمضان ، إن له فى نفسى ذكريات تاريخية متعددة فى مقدمتها : ذكرى بدر ، ففى هـذا اليوم من العام الثانى للهجرة خرج النبى مع اصحابه فى ثلاثمائة وأحد عشر رجلا يترصدون عير قريش وهى عائدة من الشام . وكانت قافلة ضخمة على رأسها ابو سفيان وقد اشترك فيها اهل مكة جميعا وقدرت قيمتها بخمسين الفا من الدنانير ، فلما علم الرسول بعودتها ندب المسلمين لها وقال : هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله ان ينفلكموها . إن الله وعدنى أحدى الطائفتين : العير او النفير . فخرج المسلمون كل ثلاثة منهم يعتقبون بعيراً .

واخذ الرسول يبث عيونه فى حصافة القائد الخبير ويتنطس الأخبار ،

فلما وصل المسلمون ادنى ماء بدر تبينوا ان ابا سفيان قد اتخذ طريقا مغايراً فقد حاذى سيف البحر ومضى بالعير فى الوقت الذى خرجت فيه قريش تدفع عن قافلتها عدوان المسلمين . ومن ثم تغير وجه الأمر من العير والغنيمه إلى ذات الشوكة والحرب .

واستشار رسول الله اصحابه فتكلموا واحداً اثر الآخر . ورسول الله ما يزال يردد عبارته : « اشيروا على ايها الناس » ومن ثم وثب سعد بن معاذ وقد أراده رسول الله واحب ان يعرف رأيه ورأى اصحابه من الأنصار الذين بايعوا يوم العقبة على ان يمنعوا رسول الله فى حدود مدينتهم . فقال كلاما طويلا ايد به الرسول ، ومن ثم نزل المسلمون بدراً وافطر الصائمون ونشبت الحرب وأيد الله رسوله بالآيات والملائكة والمطر . والتقى الجمعا صبيحة الجمعة لسبعة عشر خلت من رمضان .

*

اما الحادث الثانى فهو مقتل الإمام على ليلة ١٧ رمضان من العام الأربعين الهجرى حيث خرج ثلاثة من الخوارج فى هذه الليلة لقتل على بن ابى طالب وعمرو بن العاص ومعاوية بن ابى سفيان ، وقد فشل اللذان وجها إلى مصر والشام ، ونجح عبد الرحمن بن ملجم المرادى ، فقد قصد الكوفة وانتظر امير المؤمنين علياً فى صبح هذه الليلة التى اتفق عليها . فبينما هو ينادى الناس : الصلاة الصلاة .. إذ ضربه عبد الرحمن بالحربة : قائلا الحكم لله لا لك يا على ولا لأصحابك .

وكان هذا هو ختام حياة هذا البطل العظيم الذى لم ينهزم فى معركة ما ، وكان صورة صادقة ... حة والشهامة والبأس .

*

ويذكرنى رمضان دائما بأجل حادث فى تاريخ الإسلام ، هو فتح مكة ..

ففي يوم ٢٠ رمضان من السنة الثامنة الهجرة كان الموقف بين الرسول وخصومه وأمر الدعوة الإسلامية يأخذ سبيل الحسم والقطع .

لقد دعا الرسول إلى التجهز للقتال والاستعداد له . وزحف الجيش وهو لا يعرف وجهته ؛ بل يمضى فى طريقه بأمر قائده ، وبلغ الجيش مر الظهران فنزل بها وأوقد النار وضربت خيام ألف فارس من المسلمين فغمرت الوادى فأمسى رهيبا مهيبا . وخرج زعيم قريش « أبو سفيان » يلتمس خزاعة التى خمشتها الحرب كما ظن قبل أن يصل إلى المعسكر ، فلما بلغه عرف أنه رسول الله والمسلمون ، وحاول عمر أن يقتله لولا أن أمنه الرسول . وأذن للعباس أن يذهب به إلى رحله حتى الصباح ، واستعصت شهادة الإسلام على لسان أبى سفيان فما نطق بها إلا بعد أن وقف يستعرض هذه الكتائب والنجائب وقد أرهبه امرها ، وهزه من الأعماق حتى سأل العباس فى لهفة وذهشة « لقد اصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيما » .

واستجاب رسول الله لرغبة الفخر والزعامة فى نفس أبى سفيان ، فأعلن أن من دخل المسجد فهو امن . ومن دخل دار ابو سفيان فهو امن . وعاد ابو سفيان إلى مكة يحدث أهلها بان محمد جاءهم بما لا قبل لهم به .

ودخل رسول الله مكة دون ان تلق جيوش المسلمين مقاومة تذكر بعد أن انحنى لربه شاكراً . أن فتح عليه مكة دون ان يراق فيها دم . وأوى إلى خيمته التى ضربت له قبالة جبل هند . وذكر رسول الله وذكرا سا ون كيف اخرجوا مهاجرين بعد ان اضطهدهم أهل مكة .

وخرج رسول الله فاعتلى ناقته « القصواء » وسار بها حتى بلغ الكعبة فطاف بالبيت سبعا . ثم وقف على باب الكعبة . ووقفت قريش تسمع ما سيكون من امرها بين يدى رسول الله وهى التى آذته واخرجته ولم تدع مكيدة فى سبيل تحطيم دعوته إلا اقترفتها ثلاثة عشر عاما كاملة . ثم كيف مكرت

بعد ذلك بالمسلمين فى أحد والخندق .. ولكن رسول الله كان عفواً صفوحا ؛ قال يا معشر قريش : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا :أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء !

*

ويرتبط[1] رمضان فى نفسى دائماً بموقعة عين جالوت ؛ فى اليوم الخامس والعشرين من رمضان عام ٦٥٨ هجرية تحقق لجيش مصر والشرق على يد جيش مصر ظفر كان بعيد الأثر فى سير التاريخ كله . نعم كانت « عين جالوت » ولا تزال فى نظر طائفة من كبار المؤرخين فى الشرق والغرب موقعة فاصلة من المواقع المعدودة التى غيرت مجرى التاريخ .

وكان جيش مصر هو عامل الإنقاذ الذى حفظ الحضارة وحال بينها وبين الفناء ووقى حوض البحر الأبيض وأوربا شر الغارات الهمجية التى كان يشنها التتار منذ خرجوا من قلب آسيا قبل ذلك التاريخ بقيادة جنكيزخان بأربعين عاما .. ولن يستطيع منصف أن يقدر خطر هذا الدور الضخم والنتائج المترتبة عليه إلا إذا استعرض هذا الزحف الهمجى الضخم الذى بدأ عام ٦١٧ عندما تحركت غارات جنكيزخان من سهول آسيا الوسطى وأطراف الصين واجتازت نهر جيحون .

فقد اندفع جيش التتار لا يقف فى وجهه شىء . وظل يحطم ويدمر ما فى طريقه من الصين حتى وصل بغداد فسقطت تحت سنابك الخيل عام ٦٥٦.

ووصل جيش التتار إلى الشام وكان قد استنفذ حياة هولاكو وجنكيز خان وسقطت جل أمارات الدوله العباسية فى يد تيمورلنك . وكان الموت والدمار فى ركابه أينما حل . ومضت أربعون يوما لم تنقطع فيها المذابح

(١) الاهرام : رمضان ١٣٧٣

والحرائق وقتل الألوف ونهبت القصور والخزائن ودور العم وأطفئت منابر الخلافة والحضارة .

وساد الشرق كله ظلام كثيف . واقتحم التتار أسوار حلب بعد حصارها وتفرقت القوى أمام هذه القوة الخيفة المهولة . ودخل «كتبغا» قائد التتار عاصمة الأمويين ، وذهل الناس وتوجسوا شراً وخيفة . وكان معروفا أن الدور على مصر . وكان النصر المتتابع الذى كسبه التتار منذ خرجوا من أعماق الصين قد ملأ قلبهم غروراً حتى ظنوا أن قوة ما لا تستطيع أن تقف فى وجههم فهم لم يهزموا منذ أربعين عاما .

واندفع جيش مصر فى سرعة فائقة ، وحطم كل الحواجز التى أمامه ، وفاجأ جيش التتار قبل أن يخطو خطوة واحدة عند الصالحية ، فقد طوت قوات الجيش صحراء سينا فاذهلت التتار الذين أخذوا على غرة . وبضربة واحدة كسب الجيش نصف المعركة ، وتقهقر جيش التتار لأول مرة وأخلى غزة . وتقدم جيش مصر من غزة إلى الشمال ، حتى وصل إلى جبال الكرمل وفى عين جالوت وفى يوم ٢٥ رمضان منذ سبعمائة عام التقى الجيشان . . وكان التتار فى ٤٠٠ ألف مقاتل ؛ وكان الجيش المصرى أقل من ذلك بكثير ولكن رجاله كانوا يحملون قلوباً عامرة بالوطنية فلم يرهبهم هذا العددالضخم من جيش العدو . .

وكان جيش مصر يؤمن بأنه يصنع التاريخ ويكتب مصير الشرق كله ، بل ومصير أوربا . واقترح بعض القادة على «كتبغا» أن يطلب النجدة ولكنه رفض تعاليا . . فقد ظن أن مصر لن تنتصر ، والتقى الفريقان ، الفريق المؤمن بوطنه وربه ، والفريق المدل بكبريائه وجبروته ، ودوى نفير الحرب . وقرعت الطبول والتحم الجيشان .

وأعمل المصريون سيوفهم فى جند التتار ، وأحدثوا ثغرة دفعوهم إليها ثم أطبقوا عليهم من ثلاث جهات . ووقف « كتبغا » قائد التتار يقول لجنوده إننا نزحف وندمر ونحطم منذ خرجنا من الصين . وقد سقطت الدولة العباسية تحت سنابك خيلنا ، وقتلنا الألوف ، ونهبنا القصور وخزائن المال . وأقمنا من كتب العلم العربى جسراً فوق نهر دجلة . . وهذه مصر أمامكم بخيراتها ، ولكن . كل هذا الهذى قاله « كتبغا » لم يثن جيشه عن الهزيمة ، ويثنه هو شخصياً عن أن يقتل شر قتلة .

الجمهورية : رمضان ١٣٧٥

ذكرى شكسبير

فى ٢٣ ابريل ، منذ نيف وثلاثة قرون . قضى الشاعر العالمى ، الذى أبدع خير ما أنتجت البشرية على مر العصور . من تراث مازال يبهر الألباب ويلقى المزيد من التقدير والإجلال .

وفى مناسبة الذكرى لوفاة شكسبير وفى مجال القول المحدد ، لا نستطيع أن نفصل الكلام فى أعماله الأدبية وآثاره المسرحيه . وكل ما يقال اليوم أن هذه الآيات من الفن المسرحى والتمثيلى ما تزال تلقى بعدهذه الحقب الطويلة من الزمن ، وبالرغم من اختلاف الأذواق ؛ وتغير المناهج فى الموسيقى والأدب ، وتحول الأفكار فى الفن والمسرح ؛ وبالرغم من التطورات المضطردة فيها جميعا ، ما تزال تثير المشاعر وتهزها وتفعل فيها فعل السحر .

وما تنى تنبض بالحياة الدافقة ، وتردد الصدى الصادق لخلجات المشاعر

والأحاسيس . وقد ظلت تصور أعماق النفس الإنسانية ، فى جدها وهزلها ، وإجرامها وأحلامها ، وقسوتها ورقتهـــا ، كأصفى ما يكون التصوير ، وكأقوى ما يكون .

وروائع شكسبير ، على كثرتها وتنوعها ، تكاد تكون جملتها مجتمعا إنسانيا كامل العناصر والأحاسيس والشخصيات التى تضطرب فى محيط حياتنا دائما ونلقاها فى كل مكان .

وما يزال هذا المجتمع الانسانى الذى أبدعه شكسبير يجرى مع الزمن فى مجراه ويمضى مع الحياة فى تطورها فلا يتحول ، ولا يتعارض ولا يتخلف وكأنه كتب الغداة ، ليرسم صورة النفس الإنسانية فى هذا الجيل .. وأصدق ما يقال فى « شكسبير » فى يوم ذكراه . أنه شاعر عبقرى ، أوتى القدرة على النفاذ إلى النفس الإنسانية والانغماس فى الحياة . والفهم عنها وتغلغل فى دراسة « المجتمع » دراسة استيعاب دقيق . أقرب إلى الإحاطة والشمول ثم أوتى إلى ذلك موهبة الشعر والبيـــان . ومنحه الفن والذوق ، فسكب هذه الصور قصصاً ومسرحيات ، دبت فيها روح الحياة مرة أخرى . وظلت على مر الأزمان تعبر عن أعماق مشاعر النفس الانسانية ، وأصدائها أبلغ تعبير

ويكاد يعطينا خلود مسرحيات شكسبير ، بالرغم من مرور ثلاثة قرون أو سبعة اجيال الدليل على أن التطور الاجتماعى والتحول الثقافى . وهذه الثورات والنهضات والحروب العالمية . التى غيرت وجه التاريخ وجغرافية الأرض . كل هذه العوامل لم تستطيع أن تمس جوهر النفس الانسانيه . وطبيعتها الفطرية . لا من قريب ولا من بعيد . وبقيت أصداء هذه النفس وأهواؤها ومطامعها وأحاسيسها . كما يعرضها شـــكسبير . نقرأها اليوم ونشاهدها فنستجيب لها ونرضى عنها .

تراه فى مسرحياته : هنرى الرابع والملك لير . ويوليوس قيصر وأنطون

وكليوباترة ، يرسم ملامح القصور والملوك ، وصور البطولة والفتح . ومظاهر الصراع بين الحب والحرب .

وفى تاجر البندقية . وماكبث . وهاملت . وعطيل . والعاصفة . يصور الحياة الإنسانية المضطرمة بالعواطف والأهواء والمطامع التى تصور فى مجموعها قصة الصراع بين الرجل والمرأة ، وبين الشرف والحب ، وبين العاطفة والعقل ، وبين النفس والغريزة . هذا الصراع الخالد على الأجيال ، المتجدد على حقب التاريخ .

ترى كيف تفعل المصادفة بالواقع المرسوم . وكيف تطيح بالخطط المقررة والنظم الموضوعة . يكشف لك الشاعر العبقرى عن سخرية القدر ، وينقل لك صورة الحياة البشرية ، حين تقسو وحين تلين . وترى أبطاله نماذج من من « الإنسان » فى مختلف أدواره وأحواله .

هذا « عطيل » وهذا « مكبث » وهذا « هاملت » وغيرهم صنوف من الناس فيهم الثائر والهادىء والمعتدل والشموس .

فى صدر هذه المسرحيات صور من الوشاية والغيرة والحقد والخداع وفى خواتيمها المآسى الفاجعة التى تنتهى بالندم على التعجيل فى إصدار الأحكام حين تنكشف الحقائق وترفع الأستار .

مملكة كاملة من الحياة الإنسانية فى صراعها الدائم الخالد ، تجدها فى مآسى شكسبير ومسرحياته ، تعطيك صورة العبقرية الفذة ، التى أوتيها ذلك الشاعر الخالد .. حين ينفذ إلى أسرار النفوس والمجتمعات .

لقى شكسبير فى حياته مايلقى دائماً كل عبقرى وعظيم ، الخصومة والانتقاد والحقد ، والسخرية بآثاره ومسرحياته ، فلما قضى زالت غشاوة الأحقاد ، وعرف له الناس قدره فأشاد به النقاد والأدباء ، وأنشئت المدارس

الرومانتيكية فى ألمانيا وإنجلترا لدراسته والفهم عنه .

وما زالت الأجيال تتناقل أدبه وشعره ومسرحياته فتترجم إلى لغات العالم وتمثل في مختلف مسارحه ، فيصبح شكسبير علما على المآتى الشعرية وعنوانا للأدب المسرحى جميعا .

وتعرف بلاده قدر شاعرها الفذ فتنشئ له مدونة كاملة ، ومسرحا خاصا ؛ وتصبح بلدته ومسقط رأسه محجا ، يزوره النـــاس من أطراف الأرض ، ليعيشوا لحظات ، فى تلك البقعة الخالدة التى تنفس فيها من قبل شكسبير ، ويشاهدون منازل وحيه ، وحبه وهواه .

اتسم شعر شكسبير بالحرية والطلاقة والخيال ، فهو رومانتيكى مبتدع ، يغلب على شعره الطابع الغنائى فى بعض الأحيان .

ومهما يكن من جلال شعر شكسبير فى لغته الأصلية ، فان الترجمة لا تفقده كثيراً من معانيه وإبداعه فى التصوير . كانت تمثيليات شكسبير فى إبانها لونا مستحدثا جديدا فى الأدب الانجليزى بعد أن ظل المسرح يعمل خلال فترة طويلة من تاريخه لحساب النزعات الدينية التقليدية .

خرج شكسبير على قيود اللغـــة والفن المتداولة جميعا ، فابتكر وأبدع واستحدث بالخيال والفكر والاتجاه وأدخل فى المسرحية تلك الآفاق الجديدة من المشاعر والوجدانات ، وأدخل على اللغه اصطلاحات وتشبيهات وأساليب لم تكن معروفة من قبل .

وأظهر ما تتسم به مسرحيات شكسبير وتمثيلياته ، تلك الحياة القوية الدافقة ، بالحماس والحركة والمفاجئة . وتلك البراعة فى الانتقال من عاطفة إلى عاطفة مغايرة ؛ ومن إحساس إلى إحساس مضاد له ، دون صدام أو اضطراب . ولعل أغرب ما يلفت النظر ، هذا الإنتاج الضخم الذى خلفه شكسبير والذى يتميز بالجودة ، ويتسم بالخلود .

وإن كان شكسبير قد ظهر فى ختام القرن السادس عشر ، ومات فى أوائل

القرن التاسع عشر ، وبالرغم من أن فحولا من الأدباء والنقاد حاولوا تحطيم ذلك الشاعر العبقري والغض من آياته ، فان أدب شكسبير ظل قوياً جباراً كالجبال الراسيات ، لا تنال منه معاول فولتير ولا سخريات برناردشو .

وخير ما يقال في « يوم الذكرى » هو ما كتبه كارليل في الفصل الذي عقده باسم « البطل كشاعر » يقول : « ترى لو سئل الإنجليز ، أي الأمرين يفضلون . أتتخلون عن امبراطوريتكم في الهند ، أم عن شاعركم شكسبير ، أتؤثرون ألا يكون لكم امبراطوريه هنديه أو لا يكون لكم شكسبير ؟ حقاً إنه لسؤال خطير ! ونحن على يقين مما يجيب به الســـاسة في لغتهم الرسمية ، لكننا إن لم نرغم على الاجابة إرغاما ، فسواء لدينا أكانت لنا امبراطوريه هنديه أم لم يكن ، فلن يغنينا شيء عن شكسبير » .

وبعد فشكسبير أحد الخمسة من كتاب العالم الخالدين على التاريخ والزمان.

جريدة الاهرام : أبريل ١٩٥١

نصف ضمير

ما زلت أذكر أن يوم الحادث كان آخر أيام رمضان ، كنت أركب إحدى سيارات الأتوبيس متجها إلى ضاحية حدائق القبة . . وكانت المحفظة في جيبي الخلفي ، والعربة مزدحمة .. والوقت ظهرا .

ذلك الوقت العصيب الحاد ، الذى تكتظ فيه المركبات وتحتشد جموع العائدين إلى بيوتهم بعد العمل المرهق وجه النهار .

ونزلت من العربة وتحسست جيبي فاذا كل شيء قد انتهى ، ولولا دريهمات قليلة كانت تائهة في جيب آخر لقطعت الطريق عائداً إلى منزلي في أعالي القلعة ، ماشيا .. أو معلقا باحدى رفارف الترام .

وأخذت أفكر فيما تحوى المحفظة .

كانت تحوى أشياء كثيرة لها أهميتها في نظرى أكثر مما تحوى من المال .

وكنت أتمنى لو افتديت هذه الأوراق التى جاهدت فى سبيل الحصول عليها بكل ما أملك وتركت عوضى على الله .

.. وفى صباح اليوم التالى .. يوم العيد .. حدثت المفاجأة التى لم تكن منتظرة !! كان الخطاب عجيبا ، غلافه مكتوب بخطوط مرتعشة تائهة انقبضت لها نفسى ، وحاولت أن أتكهن بمعرفة مرسله قبل أن أفضه فلم أوفق .

وأخيراً فضضت الخطاب فاذا بى أمام محتويات محفظتى التى فقدت منى بالأمس ما عدا شيئا واحداً هو النقود .

ومن بين الأشياء المعادة سقطت ورقة ضامرة من صديقنا النشال .. « حضرة فلان ..

رأيتك أمس فى مركبة الأتوبيس .. فخيل إلى منذ النظرة الأولى أنك عامر الجيب ونحن فى وقفة يوم عيد وكنت فى حاجة إلى مبلغ ما لأستقبل به هذا اليوم المبارك .

وظننت — أنك أحد الذين يكسبون أموالهم من الحرام .. من سباق الخيل ، من القمار ، من المراهنات ، من الرشوة ..

فاعطيت لنفسى حق تجريدك ، ومددت يدى الخفيفة - الخفيفة جداً - إلى الجيب الخلفى ، فلما اصطدمت بالمحفظة فرحت . ونزلت فى أول محطة أعدو .

وفتحت المحفظة فلم أجد فيها إلا ورقة من فئة الخمسة قروش ويا للأسف وعجبت كيف أن شابا وجيها مثلك يمشى فى الشوارع وينتقل فى الضواحى . وليس فى جيبه إلا هذا المبلغ .

.. وأسفت على أن نظرى قد أخطأ لأول مرة .

فان لنا معشر النشالين لنافراسة صادقة فى معرفة الناس . وما عزمت على نشل إنسان إلا ووجدت محفظته تستجيب لمظهره .

إلا أنت فقد كنت معك فاشلا ..

لقد وجدت فى محفظتك أوراقا وعناوين وبعض أسماء المؤلفات الجديدة التى ظهرت سنة ١٩٥٠ وبعض أوراق البريد العالمية وقصاصات من صحف وبعض صور فوتغرافية .

وعلمت أنك أديب أو كاتب أو صحفى .. تهتم بالمؤلفات الجديدة وتهوى جمع الطوابع وتشغل نفسك بالتصوير .

وعلمت أن مثلك ممن أدركته حرفه الأدب يستحيل أن يكون غنيا أو ميسوراً . وقد صدق ظنى فلم أجد فى محفظتك إلا هذا المبلغ الضئيل الذى أنفقت منه عشرة مليمات فى سبيل إرسال هذا الخطاب لك .

وقد أعدت لك هذه الأوراق بالعنوان الذى وجدته على البطاقة فأنت أولى بها ولا حاجة لى بمثلها » .

وأدهشنى خطاب النشال ، وأدهشنى إعادته لمحتويات المحفظة وسماحته فى هذا المبلغ الزهيد .. إنه نشال ولكن له نصف ضمير .

الزمان : ١٩٥٢

وراء كل فنان امرأة ملهمة

هي عبارة عابرة قرأتها تحت صورة « أبيلار وهلويز » التي نشرت في مجلة كل يوم . . غير أني وقفت عندها طويلا ،هل حقا ما قال القائل : إن وراء كل فنان امرأة ملهمة ؟ . . وهل يصدق هذا في مصر والشرق ، إن كان قد وقع في الغرب . . ؟

وأخذت أستعرض في ذاكرتي كتاب العالم وعباقرته وفنانيه ، وأنا ارجو أن أصل إلى الحقيقة .

ثم بدا لي أن هناك عبارات تناقلتها الأجيال ، وردها الناس دون أن يجرؤ أحد على أن يبحثها أو يتبين مدى ما تحمله من صواب أو خطأ ، ومن بين هذه العبارات تلك التي تربط بين الفنان والمرأة الملهمة .

هي قضية خالدة ، تتجدد على الزمن والتاريخ والأجيال ، ويرى أهل كل

عصر فيها رأيا ، وقد مرت على أوروبا عصور . آمنت فيها بهذه القضية ، ثم مرت عصور تنكرت لها ورفضتها . . وهل حقا توحى المرأة إلى الفنان وتفتح أمامه آفاق الحياة الفنية وتفجر ينابيع الحكمة على لسانه أو قلمه أو ريشته ؟

وهل صحيح أن الكثير من آثار الفنانين والكتاب والمثالين والموسيقيين كان مصدرها امرأة ملهمة .

وما أمر هذه الملهمة ؟ أهو الحب الذى يلهم فيها ، أم الحرمان أم الجمال ، أهو حنانها وعطفها أم كبرياؤها وعتوها .

لا شك أن الفنان الذى لم تمر فى حياته امرأة لا يستطيع أن يخلق الخلق الفنى الكامل ، ولكن هل هى حقا الصورة فى إطار الحياة ، والعطر فى الزهرة ، والنور فى الكوكب الذى يضيء . ذلك ما أشك فيه ..

ليست المرأة هى التى تلهم وعندى أنها تصرف عن الإلهام وعن الفن ، وعن كل شيء .

إنها تريد الفنان لها وحدها ، والفن مقصورا عليها .. إن أنانيتها تدفعها لأن تستأثر بالقلم وصاحبه ، وبالريشة والرسام جميعا .

ولو استسلم لها الفنان لحطم أدواته ، ولطوى أوراقه ، ولذهب فى الحياة فى عدد القطيع ، وفى جملة الجموع التى لا يذكرها التاريخ ، ولا يحسب لها أى حساب .

إن الفنان يريد المرأة ليكمل ويتسامى . . وليضع النقط فوق الحروف لحياته وفنه ، ولكنه قلما ينجح ، فى الحب والفن معا .

إنه لا بد أن يضحى بأحدهما فى سبيل الآخر ، وكثيرا ما يضحى بالحب ، وهنا عند نقطة « الحرمان » « والألم » تتفتح العبقرية وتجود النفس بالروائع المبدعة ، من شعر وألحان .. ومن صور وتماثيل .

إذن فنفس الفنان ، الزاخرة ، ذلك الكنز الكبير ، هى مصدر إلهامه الأصيل . وإنما كانت المرأة أداة لإثارة ما كمن فى أعماقه ، عندما تنبه كبرياؤه وإلا فأين المرأة الملهمة التى وقفت وراء كاتب أو فنان حتى رفعته إلى سماء العبقرية .

والعكس هو الأصح ، فان عباقرة رجال الفن ، هم الذين سجلوا أسماء النساء اللاتى التقوا بهن فى طريق الحياة الطويل . . فخلدت هذه الأسماء .

الزمان ١٩٥٢

الاديب الذى كان يقدم الطعام

هذا أديب مجهول ، لا تعرفه دوائر الأدب والفكر ، لأن اسمه لم ينشر . ولأن آثاره لم تعرف . لا أعرف إلا ان اسمه محمد ، وأنه كان يعمل « سفرجياً » لدى المرحوم الأديب زكريا مهران . وكان ذلك فى « القوصية » حيث كان يقضى الرجل فترة من الوقت كل عام مع أسرته .

كان محمد يزورنى فى بنك مصر . لا أعرف كيف التقيت به أول مرة . وكان ذلك منذ خمسة عشر عاما . ولكنى أحفظ له فى ذاكرتى صورة حية لشاب مثقف ممتاز الثقافة .

نحيل . لا يدل مظهره على شىء . وعلى الرغم من عمله المرهق . فانه يجد الوقت ليقرأ ويستوعب ما يجده أمامه من كتب الأدب على أوسع نطاق .

كان يمر عندى كل يوم ليأخذ كتابا ضخما . ثم يعيده إلى فى صباح اليوم

التالى وقد قرأه واستوعبه ، يقول لى أنه يعكف منذ المساء ـ وبعد أن ينتهى عشاء أسرة زكريا مهران ـ على سريره ومصباحه وكتابه . ويظل يقرأ حتى يطلع الفجر . فينام ساعات . ولا أظن أن كتاباً . أو كاتباً . أو موضوعا . أو قصة فى الدوائر الأدبيه .. كان محمد يجهلها . ومما يذكر أنه بينما كان يقدم الطعام مساء أحد الأيام للباشا . . كان الباشا يتحدث إلى زوجه عن مناقشة حادة دارت بينه وبين أنطون الجميل ذلك المساء . فى مجلس الشيوخ حول بيت من الشعر ورد فى كلام لرئيس تحرير الأهرام.

ورد علية زكريا مهران بأن الشاعر الذى نسب إليه هذا الشعر هو فلان وليس بفلان . ورفع محمد يده من صحائف الطعام التى يقدمها . ونظر إلى الباشا نظرة فاحصة وقال : يا باشا أنت غلطان وأنطون الجميل صح .

وبهت الباشا لهذا الخادم النوبى . وأحس أنه ربما أصابه مس من الجنون ، مال هذا ومال هذا الحديث . وهذا الشعر !

ـ ماذا تقول يا محمد ؟ ــ بيت الشعر هذا ليس للشاعر فلان ولكنه للشاعر فلان . كما ذكر أنطون الجميل . ــ ومن أين تعرف هذا يا محمد ؟

ــ إنه يا سيدى فى الجزء الواحد والعشرين من الأغانى !

وقفز محمد فى سرعة . ونزل إلى الطابق الأرضى ـ إلى البدروم ـ وأحضر الجزء الحادى والعشرين من الأغانى وعاد يقفز السلم مرة أخرى صاعداً .

وهو فى هذه اللحظات يفتح الصفحة التى ورد بها هذا البيت من الشعر .

وقدمه إلى الباشا الذى عرته دهشة عجيبة ! !

ــ وكيف ذكرت هذا يا محمد ؟ ــ إننى قد قرأت الأغانى إلى الآن ثلاث مرات . ولا يوجد بيت شعر فيها لا أعرفه .. ونظر زكريا مهران إلى زوجته وابتسم . وأخذ محمد كتاب « الأغانى » وعاد به إلى « البدروم »

*

كان زكريا مهران ـ رحمه الله ـ أديبا . وكان يحب مجالس الأدباء والشعراء وله ندوات كنا نحضرها فى القوصيه ونعد لها من بعض المقول والمنقول والمنظوم والمنثور . فاذا أصبح اليوم التالى جاءنى « محمد » وجلس معى فى البنك وأخذ يعلق فى إفاضة على المحاولات التى دارت فى ندوة الباشا فى المساء وملاحظاته على ما قيل . والأخطاء الذى وقع فيها هذا أو ذاك من المثقفين .. كان « محمد » شعلة من الذكاء المتوهج .

أين هو الآن ؟ لقد ترك خدمه زكريا مهران فى اول الحرب العالمية الثانية ومضى .. إننا ندعوه . ليته يقرأ هذا .. إنه من الأدباء المغموورين الذين نرحب بهم وبآثارهم .

مجلة الصباح ١٩٥٣

رجلان..

رجلان : ما تذكرتهما . إلا وأشفقت من أن يذهبا قبل أن يتما الأعمال التى تشغلهما منذ أكثر من ثلاثين عاما.

أشفق على موتهما قبل أن يتحقق لهما إذاعة هذه الأعمال الفكرية الجليلة التى جردا لها نفسيهما منذ وقت طويل ، وعاشا يجاهدان فى سبيل مراجعة المجلدات الضخمة . والبحث فى المؤلفات المطولة . والسعى وراء كل كتاب يتضمن فقرة . أو فصلا أو كلمة تصلح مرجعا او مادة لهذا العمل الذى يقوم به كل منهما .

هذان الرجلان : هما السيد محب الدين الخطيب والأستاذ عبدالحميد قناوى أقول هذا لأننا فى مصر . التى لا تقدر الأديب أو الكاتب أو المفكر

إلا إذا ترك الأدب والفكر والمثل العليا ، واتجه إلى الميدان الذى يعطى المال والشهرة والجاه !

أما أولئك الذين يجاهدون صابرين قانعين ، والذين يعيشون بين الكتب والمجلدات ، ويقضون أيامهم معتصمين بالصبر فى سبيل إخراج عمل جليل فان مصيرهم أن يظلوا فى حياتهم مغمورين لا يعرفهم أحد ، فاذا ماتوا انطوى اسمهم إلا من قصيدة تقال أو كلمة تكتب .

أقول هذا بمناسبة صدور كتاب جديد للأستاذ عبد الحميد قناوى عن « الأحجار الكريمه وتأثيراتها الكوكبية » . ليس هذا الكتاب فى ذاته إلا لمحة خاطفه ولمحة سريعة لتلك الدراسات التى يفنى فيها المؤلف عمره ، بين علوم الكواكب وأسرار العدد والتنويم المغنطيسى وهى علوم كانت فيما سبق ضرباً من الشعوذة .

ولكنها الآن أصبحت علوما يدرسها متخصصون فى أوربا وأمريكا ؛ ويصنفون فيها المؤلفات المطولة ، وترتبط بالعلوم الحديثة برباط وثيق .

لقد شغل الأستاذ قناوى نفسه بهذه الدراسات ، وأفنى زهرة عمره فى هذه البحوث . فجاءت خلاصة لتجاريب طويلة .

.. فهل يتحقق لنا أن نرى هذه الآثار العلمية مطبوعة منشورة .. وهل يتحقق له أن يجد التقدير والمكافأة عن جهده الضخم .. نرجو .

الزمان أول أغسطس ١٩٥١

كان القمر عنصر حياته

ودعنا جثمان فقيدنا « عبد الحميد قناوى » فى طريقه إلى مقره الأخير . .

وما أن واريناه التراب حتى أقبل المساء وطلع القمر من وراء السحب ، قاتما ، حزينا كأنما هو ملفع باطار من الحداد .

. . القمر ، الذى رصده فقيدنا ، أكثر من ثلاثين عاما ، وشغل نفسه به ، شغلا كاد أن يطغى عنده على كل شىء .

كان عبد الحميد قناوى يؤمن بالقمر كعنصر فعال فى نظـــام الفلك ، والكواكب ، وتاريخ البلاد ، والأحداث ، والوقائع .

وقد ورث هذا العلم عن والده وتوافر على المؤلفات العربية الضخمة التى عنيت به ، وأحبه حبا شديدا ، غير أنه لاحظ على المصادر العربية بعض

القصور ، فاتصل بالدوائر العلمية والجمعيات الفلكية التى عنيت بهذه الدراسات وأخذ يراسلها ويقرأ تقاريرها ، حتى وصل فى ذلك إلى درجة القدرة والإجادة التى عرفها كل من اتصل به .

والأستاذ « قناوى » أول من عنى فى الصحافة الحديثة باستخراج الطالع وكان من أبرع الذين عملوا فى هذا الميدان ، زرته إبان مرضه الأخير فوجدته يتطلع فى شوق إلى المكتبة الضخمة التى أسكنها إلى جوار سريره .

وأخذ يتحدث معى عن أوامر الطبيب فى منعه من القراءة ، ومدى الجهد الذى يقاسيه نتيجة هذا الحرمان .

والحق أننى ما زرت هـذا الرجل مرة ، وتطلعت إلى رفوف المكتبة الضخمة ، ورأيت كيف يضع القصاصات فى أفواه المجلدات أرهاصا باعداد بحوث فيها حتى أشفقت عليه ، وكنت أقول فى نفسى متى سيتم الرجل كل هذه البحوث العلمية الضخمة .

وكان يوالى ترقب الكتب الجديدة الواردة من أمريكا وأوربا ويطالعها فى جهد ، ويستخلص منها ما يساير به تطور علوم الفلك التى شغل نفسه بها فى عناء ، فأدهش لإيمان الرجل بفكرته وتضحيته من أجلها .

وكان الرجل قد أعد كثيرا من البحوث العلمية ، من أهمها ذلك البحث الضخم الذى كتبه عن « ألف ليلة وليلة » . والذى استفاد منه كثيرا كل من كتبوا فى هذا الموضوع .

ومنها كتابه عن « الفارابى » و « ابن سينا » من الناحية الفلكية وهى جوانب لم يعرض لها كاتب معاصر على النحو الذى جلاها به « عم قناوى »

وكنت أحس فى الأيام الأخيرة دبيب الموت إليه ، وأشعر بمدى ما يعانيه

الرجل الذى يتصدر لعمل ضخم ، فى بلد قلما يقدر المتجردين للأعمال الضخمة. فيه أى جزاء .

وحدث ما توقعته ، فقضى الرجل وهو يعمل ، وقبل أن يتم رسالته وسوف تبقى هذه الأعمال الناقصة ، وقتا طويلا ، دون أن يتمها أحد .

. . هى مشكلة قاسية ، نعانيها فى مصر . ونحس بها . كلما قضى رجل مفكر ، أين إنتاجه ، ما مصير بحوثه ، كيف يعيش أهله .. والكتاب فى مصر . خاصة والذين يؤمنون بالهدف منهم لا يخلفون وراءهم درهما ولا ديناراً .

. . رحم الله عبد الحميد قناوى فقد كان يحب الفلك . وكان القمر عنصر حياته .

الزمان ١٥ مارس ١٩٥٢

صـــــديق

لست أدرى لم تصفنى دائما بالقلق والحيرة . سواء أكان ذلك ـ فيما تزعم ـ بالنسبة لحياتى العامة . أو كتاباتى .

ولعل هناك أناس قد خلقهم الله وفى طابع نفوسهم هـذا القلق الدائم . أو ترى أن هذا القلق عيبا من عيوب الخلق .. أو عيوب الشخصية الإنسانية!

إننى لا أراه كذلك . بل أعده مصدراً من مصادر الحيوية والقوة والنشاط.

إنه رمز النفس الإنسانية المتطلعة دائما . الباحثه عن آفاق جديدة . الذاهبة وراء الآمال العريضة . هذه الآمال التى لا تنتهى .

نعم . لقد خيل إلى فى فترة ما . أننى وصلت إلى خير ما كنت أطمع فيه من دنياى ولكنى تبينت أن الآمال تتبلور وتتطور . فاذا تحقق أمل برز أمل جديد جلست أمس فى القطار بين ديروط والقاهرة . أنظر فى نهم عجيب إلى

المروج الخضراء . ساعة الأصيل . والقطار ينهب الأرض .

. . منذ أكثر من أربعة شهور . لم أر هذا المنظر الساحر . هذه الصورة الرائعة التي تذهب النفس وراءها . إلى أبعد حدود الخيال والفكر .

لقد تفتحت عيناى منذ الصغر على هذه اللوحة الطبيعية الرائعة . وأنا حين أعاوده ، كلما أعود إلى الريف . أذكر تلك الآمال المحببة الغالية . التى كانت تضطرم فى نفسى . وتكمن فى أعماق . وأقول : ترى إلى أى حد حققت هذه الآمال .

أرانى اليوم أسعد حالا من أمس . ولكنى ما زلت أشعر بذلك الفراغ العجيب . أشعر أن قلبى كالصحراء المقفرة الموحشة . ليس فيها واحة أو ظل ظليل . أننى أحس كأنما تلفف قلبى بضباب كثيف . ليست الموسيقى ولا الادب ولا الفلسفة ولا السينما . تستطيع أن تملأ هذا الفراغ .

ترى هل هى المرأة : لقد صادقت فى حياتى الكثيرات . ولكن إنسانة ما لم تستطع حتى الآن أن تملأ فراغ هذا القلب . .

من خطاب للاستاذ عبد العزيز الدسوقى ١٩٥٢

رفيق الريف ..

عدت من « ديروط » أمس . وكان قيام القطار وقت الغروب : كانت الكرة الشمسية تتدحرج على سنان الجبل . ولم أجد فى نفسى ذلك الجحود المعهود . فوقفت فى النافذة أرى ديروط . ديروط الخالدة وهى تلبس ثوب المساء .

كم كنت جميلة يا ديروط أمس . وكانت شرفاتك القريبة والبعيدة تشرق بالجمال . ودارت الدنيا أمامى فقد حرمت من المتاع بمصاحبة الجمال فى ديروط عندما خرجت منها منذ عشر سنين لأعود إليها لماما .

أتذكر يا طه تلك الأيام الجميلة التى قضيناها معا . يوم كنا محبين عاشقين محرومين ، تضرب الأيام بيننا وبين أحبابنا . وكنا نقضى الليالى نقطع ذلك الطريق الطويل ونستعرض تلك الذكريات الحلوه ..

أنت تعرف أن للابراهيمية فى نفسى ذكرى . عميقة عزيزة . فعلى شاطئها تعيش اليوم تلك الإنسانة التى أحببتها فى أول الصبا .

لك الله يا طه . فكم لك على من ايادى . يوم كنت ترعانا وتحمل لنا الطعام . كم كنت نبيلا فى محبتك وأخوتك .

أتذكر ذلك الصباح الباكر .. الجميل من صباحيات الربيع ، عندما خرجنا إلى الحقول وأوغلنا وأخذنا نستجلى الطبيعة قبل الشروق . ونأخذ الندى من فوق أوراق الشجر لنغسل به وجوهنا ..

أتذكر كم كان ليل الشتاء عندى شقوة بجدده . يوم كنا نقضى الليل . نطوى البلاد والأحداث والذكريات نسعى أن نجد فى ظلام الليل قبسا من النور

كانت الدنيا تلقانا بوجهها المنقبض . وتصابحنا بصنوف المتاعب . وتماسينا بألوان الضيق ، كم كانت حياة الريف تصلينا كل يوم عذابا . وتزيدنا شقاء .. والقلب متمرد أبداً . إذا أمسى تذكر أشواقه وإذا أضحى شاقته رغائبه .

يوم اختار لى القدر أجمل فتاة فى القرية . ومنحنى حب أصبح وجه . وقال هذه من حظ قلبك وليست من حظ حياتك . فأمضيت السنون جاهدا أكدح . ومناضلا كى أفوز بها ولكن هيهات ..

أتذكر يوم كانت تبخل النفس الضيقة بالواقع . التى كاد أن يضيع أملها وراء سحابة كثيفة من اليأس . تبخل حتى بالابتسامة التى تصدر عن صميم القلب

لقد حرمت نفوسنا الفرح والمرح . ومضى ذلك العنصر الثائر فى أعماق يؤرق هدوئى . ويفسد لحظاتى ويشعرنى بالنقص . ويدفعنى إلى الكمال

يوم كانت الوظيفة سجنا من تلك السجون المتحركة الكبيرة ، التى تتمرد لها النفس كل يوم وكل لحظة ، وكنا ننادى : متى تنطلق قلوبنا خالصة من متاعب العمل الرتيب ، متى تتحرر . لتؤدى رسالة أعظم

من خطاب إلى الاستاذ طه السعيد ١٩٥١

عام فى الصحراء

١٩٤٩

ويمضى اليوم والشهر . ويمضى الشتاء ، ويقبل الصيف .. وما من دليل على أن السفينة التائهة فى عرض المحيط قد صادفت براً أو شاطئاً . ولاسلوى لأولئك المقيمين هناك إلا ذلك البحر ، يذهبون إليه بين حين وحين ليشكون له هذه الآلام . ويجلسون على الصخرات الكبار يسمعون خلال زمجرة المياه أصوات الأحباب .

وينطلق الطرف فى البحر ، فما يرى له نهاية ينتهى إليها . إلا حين يتصل البحر بالسماء على مد البصر .

ليس هناك استقرار على حال ، وإنما هناك اضطراب لا يرى معه ضوء ، وظلمة لا يرى من وراءها نور ، وغموض يكتنف الليالى والأيام .

وصحراء على مد الطرف . تسفى الرمال الصفراء . والأعاصير الزعازع ،

والرياح النكباء . وجبال سامقة عالية تراها فى الليل موحشة مظلمة . كأنما تسكنها الجن والشياطين .

وشمس تطلع ثم تغرب . ونهار يمضى . وليل يقبل . ولا شىء هناك يبعث على العزاء والسلوى . إلا ذلك الخطاب القصير الحائر . الذى كتبته اليد المرتعشة . بدموع العين الهاطلة .

وأسمار القمر فى الصحراء تبعث على الأسى والألم فى غالب الأحيـان ، فهى تذكرنى بالليالى الباسمة . وتشعر بالحرمان .

وتقترب أيام العيد فتضيق النفوس وتفيض بالألم الصامت الذى يأكل حبات القلوب . ويضيق على الحياة ضيقا وظلاما فى هذه اللحظات الفاصلة . تمر النفس بمرحلة جازعة عاصفة فيها تساؤل مرير .. ولا جواب . .

والأيام تمر فى بطء عجيب . ويعود الشتاء مرة أخرى بزمهريره القـاسى فى الصحراء ، والريح تعصف . والزوابع تدور كالدوامة . والرمال تقذى العيون . وكلما أقبل يوم جديد . تجدد الأمل . وبدأت النفس الحيرى تستشعر الحرية . ثم يذوى الأمل كلما تقدم اليوم . حتى يصبح فى الغروب ركاما ودخانا .

ويقبل الليل مؤلماً قاسياً . فياضاً بالأحزان والهموم .

وتمطر السماء فى الصحراء . فحسركأنه أشبه بالعصفور الفزع الخائف الذى يقرع النوافذ فى عنف وقسوة . ويسبح من وراء فجوات النوافذ كأنه الدموع تنسكب على الحائط . دموع امرأة ثكلى مولهة .

كان البقاء فى الصحراء فرصة ذهبية له . فقد أتاح له أن يلتقى بمجموعة ضخمة من الناس ، من ثقافات وأخلاق وأفكار متنوعة .

وكان للاشتراك فى نظم الحيـاة معهم أثره فى تكوين عاداته وطباعه وأخلاقه . فقد أحس بأنه يخلق خلقاً جديداً ، وأنه يزداد كل يوم فهماً

للأمور . وإيغالا فيها .. كان يعيش قبل ذلك كناسك فى صومعة ، لا يعرف أحداً ، ولا يتصل بالناس إلا لماما . كان يعيش فى بطون الكتب . والتاريخ وبين قبور الأفكار والآراء . فلما جاء الى الصحراء . كان كمن نزل من القطار السريع المندفع فجأة . وكمن قطع رحلته بغتة ..

هنا تحطمت الأفكار المنطلقة وتبددت الرؤى الذاهبة . وتفضت الأيدى ما بها من خيوط . ووقف فى الصحراء يفكر على مهل . ويدرس فى أناة . وينظر إلى الحياة من برزخ فيتعرف إليها ويحس بها ويحاول أن يفهمها من جديد .. كان فى السنوات الأخيرة قد أغلق تفكيره عن الفهم . وقد شغلته الأبحاث والدراسات . فلما آوى إلى كوخه ومضت الأيام . أحس بأنه يستأنف التفكير فى الحياة من جديد . وأنه يصنع مستقبله على ضوء البحث والخبرة .. العميقتين !

من مذكرات (السكاب الاسير)

أجازة [1]

الشمس تشرق . ثم تغرب ، ويقبل الليل ثم يطلع الفجر . وأنا بين الإصباح والإمساء قابع فى هذا الركن أعد الأيام وأحصيها .

ليس لى عمل هنا إلا التفكير والتأمل ، التفكير الطويل والتأمل البعيد فى ماضى ومستقبلى ، أما القراءة التى كنت أحبها من قبل . فانى أنفر منها اليوم نفوراً عجيباً .

يبدو لى أننى كنت فى حاجة إلى مثل هذه الإجازه من دنيا العمل بعد أن قضيت أكثر من عشرة أعوام فى عالم الأدب والكتابة لا تفارق عيناى القلم والورق . بين تحرير ومطالعة عشرة ساعات فى اليوم ، فقد أغرقت نفسى فى دراسات متصلة عميقة . وحرصت على أن أجرى مع ركب الحياة وألحق به وخيل إلى فى الأيام الأخيرة أن أعصابى بدأت تنهـــار وتتحطم ، وأن صحتى

(١) كتبتها فى السجن صيف ١٩٤٩ .

بدأت تتأثر بهذا المجهود الشاق . كنت فى حاجة إلى هذه الإجازة لترسب فى أعماق نفسى تلك الدراسات الكثيرة المتوالية ، فقد فقدت فعلا خلال هذه الأعوام العشرة شيئاً هاما . كان خليقاً بى أن أحرص عليه . هو معرفة الحياة من خلال معرفة الناس وفهم الأمور وفق أوضاعها الواقعية . لا على صورها المثالية التى نقرأها فى الكتب .

وبالرغم من أننى قرأت الكثير عن تجاريب الناس وعبر التاريخ وعظات القرون فاننى كنت فى حاجة إلى تجربة عملية تمدنى شخصياً بالخبرة ، وكانت هذه التجربة حاضرة .

لقد أفردت نفسى للتفكير عميق ، يذهب هنا ويمتد هناك فى حرية كاملة ونظرت إلى الحياة من على الشاطىء . لقد كنت أعيش فى خضم الحياة فلا أستطيع أن أميز بين الخير والشر والحق والباطل ، كنت أعيش فى حيز محدود فى زاوية واحدة من الحياة ، وكنت أعيش فى أصداء رغباتى ومطالبى ومعتقداتى ، وكنت فى هذا الموقف المحدود كالرجل الذى تحتويه حجرة صغيرة مغلقة فلا يرى إلا فى حدود جدرانها ولا يستطيع أن يرسل الطرف إلى ماورائها

كنت كالسابح فى لج عميق من بحر محيط . أما اليوم فانى أرانى على شاطىء البحر ألاحظ الناس وأدرس أمور الحياة

وقد علمتنى هذه الإجازة أن الحياة لا تقتحم اقتحاما ، وأن الأمور لا تؤخذ بالحماسة ولا بالعاطفة . وأن بواطن الأمور تختلف عن مظاهرها . وأن المثالية مطلب بعيد المنال . وأن ما يسمونه الأهداف العليا من حق وجمال وحرية ما هى إلا صور نتمثلها فى زوايا أنفسنا ومن العسير أن نحققها عملياً وأن ما قد نسميه حقائق ما هو إلا وهم يلح على النفس ويتكرر حتى يوحى إلى صاحبه بأنه حقيقة .

لقد علمنى هذا اللون من الحياة الذى أعيشه اليوم أن أحرص على الحياة

وعلى السلام فيها . وأن أعرف قيمة الحرية فلا أبددها .

لقد كنت أحرص على الوقت . وأحاسب نفسى عليه أعسر حساب فاذا الأيام تفرض على أن أستقبل الأيام طويلة ملولة دون عمل . وقد ترهلت وأصبحت ثقيلا كسولا . لقد كنت أحاول أن أكون حياً بكل وسائل إثبات الحياة . فاذا القدر يرغمنى على أن أموت وأصفد فى قيود المغمورين .

ولقد علمتنى هذه الإجازة فضيلة الحرص .

إن أسوأ ما يضايقنى هنا : حالة النفس الإنسانيه عندما تصل إلى الضعف فتثور رواسبها ويتصل بها الجزع وتتطلع فى الأفق فلا ترى بارقة من ضياء أو مشرق نور أو مطلع صباح .

ويحضرنى شبح « أبى » هذا الرجل الذى رعا طفولتى وشبابى على خير وجه يطلب إلى أب . فلما شببت عن الطوق اتخذنى صديقا . وأعطانى حريتى كاملة فلم يقيدنى بوضع . ولم يفرض على منهاج . فاخترت طريقى فى حرية وجرأة ، ثم جاء الزمن فكان هو الآخر « أباً » وأستاذاً .

أدب الحب

كاتبان عاشا فى جيل واحد . كان الحب أبرز مظاهر إنتاجهما . هما مصطفى صادق الرافعى وزكى مبارك ، فالى أى حد بلغ كل منهما فى فهم الحب وتصويره

أما الرافعى فقد أصدر كتبه : « السحاب والاحمر رسائل الأحزان وأوراق الورد » على فترات متباعدة ، وقال إنه إنما يريد أن يضع للغة العربية فناً جديداً هو فلسفة الحب والجمال . وحاول أن يحيط صورة الوجدانيه بشيء من الجلال . ينأى بها عن أن تصم شخصيته بشيء من الهوان .

وأحاط صوره بجو من الغموض والتقييد قيل أنه تكلف . ولكنها فى الواقع لم تكن إلا محاولة لإعزاز هذه الصورة والبعد بها عن أن تكون حجة فى يد خصومه ، على أنه ـ وهو مدرة الإسلام والمدافع عن الدين ـ ينزل إلى ميادين الهوى والحب والتشبب بالنساء .

وفى الحق إن حب الرافعى كان نقيا ساميا مرتفعا فوق معانى الشهوات ودوافع الغريزة . كان على أى حال نار تتلظى فى كبده وتحرق فؤاده ، حب فيه الكبرياء والاستعلاء ؛ وفيه الحنان والشوق وفيه الألم والحرمان والندم فلا عجب أن يأتى على هذه الصورة المعقدة التى جاءت فى كتبه الثلاث .

وقد دفعه وقاره وكبريائه أن يكتب على أسلوب التجريد . فيزعم أن هذا الكتاب رسائل منه إلى صديق مجهول أحب وأحس اللوعة والوحشة ، فهو يعزية ويحمله على السلوى . وما اراد الرافعى من هذه الرسائل إلا أن تصل إلى إنسان واحد ، هو ذلك الإنسان الذى أحبه .

ولذلك يقول فى مقدمة كتابه (رسائل الأحزان) .. كان لى صديق خلطته بنفسى زمنا طويلا ، ثم وقع فيما شاء الله من امور دنياه حتى أنسينى وطاو على وجهة حتى غاب عن بصرى ، والتقت عليه مذاهبه فلم يقع إلى من ناحيته خبر

.. وإذا به بعد عام يرسل له خطاباً يصور له فيه سجنه الذى كان فيه . . « إن هو إلا سجن عينين ذابلتين . كان قلبى المسكين يتمرغ فى أشعة ألحاظهما » ثم يصف حبه : « ما أحسبنى قط رأيت امرأة جميلة كما هى فى نفسها وتركتها كما هى فى نفسها . بل هناك نفسى . وآه من نفسى . وما اسرع ما تمتزج فى هذه النفس بعض الإنسانية المحبة ببعض الإنسانية المحبوبة . وإذا انا بشىء إلهى قد خرج لى من الإنسانيتين ، هذا هو الشعر ، هذا هو البلاء ، هذا هو الحب »

ثم قال : « وجعلت رسائل الصديق تترادف إلى مسهبة ضافية . تقطر فيها نفسه كما ترسل السحابة المنتشرة قطرات انعقدت وانحلت ، ثم جعلت نفسه تنطوى على ناحيه حبيبته . واشتد علي أمرها . ثم أسهل وانقاد . واعتادها هاجرة » .

ثم اخذ يصور نفسه فى صورة صاحبه : « أما هذا الصديق فاعرفه أساوبا

من الكبر ولكن على نفسه ، ومن الشذوذ ولكن فى نفسه » .

ثم قال : ويؤخذ من رسائله ان صاحبته كانت من قوة الجاذبية كأنها كوكب جذب منه كوكب آخر . ومن فتنه الحسن كأنها رسالة إلهية إلى هذه الأرض بل إليه وحده فى هذه الأرض .

يصف حبيبته فى هذه الرسائل كأنه مسحور بها . فيجى بكلام علوى مشرق كتسبيح الملائكة . يمازجه أحيانا شىء يحار فيه الفهم . لأن أحدنا إنما يرسل فكره وراء قلبه . اما هو فيرسل نفسه وراء فكره . ويستمد قلبه منهما .

لقد كان هذا الحب هو الكائن الحى فى أعماق الرافعى . ومن ثم كانت رسائله (اوراق الورد . السحاب الأحمر . ورسائل الأحزان) هى تنفيس عن هذه العاطفة المكبوتة .

ولقد عاش الرافعى لحب واحد نذر له حياته كلها . وكانت حبيبته هى « مى » الكاتبة صاحبة صالون الثلاثاء .

لم يمض هذا الحب فى وصاله إلا قليلا . ثم وقعت القطيعة . ثم بدأ الرافعى يعيش فى آلامه وأحزانه ، وثقلت عليه الوحدة وضاقت بها نفسه ففزع إلى قلمه يشكو إليه ويستمع إلى شكاته ، فبدأ يكتب رسائله إلى نفسه يبث لواعجه إلى الورق .

ويقول الأستاذ سعيد العريان : « الحق أن الرافعى أنشأه ـ أى رسائل الأحزان ـ وهو فى غمرة بلغت به من الغيظ والحنق . أن يتخيل أنه قادر على ان يبغض من كان يحب . بغضاً يرد عليه كبرياءه وينتقم له . فما فعل إلا ان اعلن حبه فى اسلوب صارخ عنيف . كما تحنو الأم على وليدها فى عنفوان الحب فتعصه . وأنها لتريد ان تقبله » .

*

أما زكي مبارك فهو في شخصيته وطريقته يختلف كل الاختلاف عن الرافعي إنه أجرأ من الرافعي من ناحيه لأنه أعلن عن حبه كثيراً وفضح نفسه في أكثر من موقف. وكتابه: ليلى المريضة في العراق: صورة لهذا الحب ولهذه النفسية في مواجهته. ويبدو أن زكي مبارك كان يحارب في أكثر من ميدان ومذهبه في الحب هو التطلع إلى كل جمال. والجرى وراء كل ثغر ضاحك. ولذلك فهو قد أحب أكثر من ليلى. وعرف أكثر من غانية قال فيها شعراً ونثراً. ولقد بدأ هذا الطابع الوجداني منذ ألف كتابه «حب ابن ابي ربيعه وشعره» وقيل إن هذا الكتاب كان تصويراً لنفس مبارك وأهوائه في هذه الفترة من حياته.

ولكن زكي مبارك وضع إلى جانب ذلك كتاباً لم تنشر منه غير فصول قليلة في مجلة الصباح. ولقد تحدث عن ذلك فقال: «هناك كتاب لم يسبق له مثيل أو نظير. وهو رسائل «مجنون سعاد» التي أنشأها الدكتور بديع الزمان». أنا ذلك الدكتور وأنا ذلك المجنون وأنا ذلك البديع! كانت تلك الرسائل ترسل بطريقة سرية إلى صاحب الصباح لأنني كنت من أكابر المفتشين بوزارة المعارف ولا يجوز لرجل من أكابر المفتشين ان يتحدث عن الحب والجمال. بدأت تلك الرسائل في بغداد. ولم تكن الموحية ليلى البغدادية وإنما كانت ليلى قاهرية رمت سهمها فاصمتني وأنا في بغداد.

وقد صدر رسائله بهذه العبارة «رسائل تصور اعنف مأساة غرامية في العصر الحديث» وفي هذه العبارات يقول: «أنا أعرف ذنبي. يا سعاد. وهل لي ذنب غير الثقة بوعود الملاح. ما ذنبي. ما ذنبي وقد وقفت عليك أهواء فؤادي. ما ذنبي وقد رأيت جسمك الفينان وثنا تباح في حبه الذنوب

سأذكر وتذكرين. يا سعاد. سنذكر معاً ايام تصافينا. وهي ايام مضت وكأنها بروق خواطف لا رجع لها ولا معاد. سنذكر ايامنا التي مضت

وكأنها خفقات قلب مبهور فى حلم رائع لن تسمح بعودته الليالى .

سنذكر . ولكن متى ؟ فقد صرت اخشى الاعرف التصافى بعد ان ابتليت من هجرك بما ابتليت . وهو هجر سهد عزيمتى إن قضى الدهر بأن يطول .

لا نفع فى العتاب ولا غناء فنمض فى الهجران إلى آخر الشوط . ولننظر ما تصنع الأقدار بمصاير الحب المعتدى عليه بلا جريرة ولا ذنب . وهو اطهر من الماء وارق من الهواء .

لا اكاد اصدق انك نسيت العهد . لا اكاد اصدق ان الهجر ينتهى إلى قطيعة آثمة مجرمة لا يكون بعدها لقاء . فمن وقع ذلك ـ وهو ما اخشاه ـ فستكون نهايتنا عبرة لجميع العاشقين .

والخسران سيكون من نصيبك وحدك . يا سعاد . اما انا فسأتخذ من فجيعتى فى الحب قيثارة ارجع عليها الحان الوجد والحنين . لأخلد على الزمان كما خلد قيس بن الملوح وقيس بن زريح . والخلود صورة وهمية ولكنها من مشتهيات الرجال »

ويعد كتاب « ليلى المريضة فى العراق » من اروع كتب الحب . فقد استقاص زكى مبارك فى تصوير عواطفه بجرأة وحرية واستغل الأسلوب الرمزى إلى ابعد حد .

ولعلنا نستطيع ان نكتب فصلا خاصا عن هذا الكتاب .

ويصور زكى مبارك حديثه عن الحب بقوله « حديثى[1] عن الحب صار مذهبا ادبيا اشرح به ما يتعرض له الناس فى ميادين النوازع والأهواء . وانا اريد ان اخلق جواً من البشاشة ادفع به ظلمات الزمان . فالحب لا يغزو

(١) تشريح عاطفة الحب : الرسالة : ١٩ فبراير ١٩٤٠ .

إلا قلوب الأصحاء . وهو يساور قلوب الجنود فى اصعب اوقات الحرب ، ونحن لم نبتكر الكتابة عن الحب فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ اقدم عهود الوجود ، وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب ولأى غرض يحيا الناس إذا اصيبت افئدتهم بالاعتلال فلم تحس ذلك الروح اللطيف »

ومن هذه الصورة يتبين مدى الفروق الواضحة بين ادب الحب عند زكى مبارك وعند الرافعى .

فالحب عند زكى مبارك فيه جنس وفيه تصوير للجسم والذات فى حين يرتقى الرافعى إلى المعانى الروحية الخالصة .

وعند زكى مبارك ليلات كثيرات : منهن واحدة التقى بها فى باريس وهو يصورها فى هذه العبارات : « اتحدث عن روح لطيفة عرفتها فى باريس - روح جميلة لها لى حياتى تاريخ وتواريخ . كان اسمها مادلين فسميتها مادليه » .

ودعته فى محطة ليون . وارسلت له برقية على البـاخرة شامبليون « ثم اخذت مادلين توالينى بالرسائل االطاف ، وبلغ بها الوجد مبلغا قضى بأن تنظم الأشعار فى حبى حتى شاء هواها ان تزور القاهرة لترانى » فلما لقيته قالت متى تتزوج ؟ فقال لها : إننى متزوج ولى أبناء .

*

ومن استقراء وقائع الأحداث نجد فى الرافعى الوفاء والكبرياء ، فهو لا يبتذل حبه فى رسائله ، ولا يقول تلك العبارات التى تجرى دائما فى رسائل مبارك وما فيها من تذلل وضعف ورجاء فى المحبوب واستعطاف له .

ونجد فى الرافعى ذلك الإيمان الصادق المستعر لعاطفته : وعدم ابتذال العاطفة ، وذلك الوهج واللهيب والاحتراق الذى يبدو من وراء كلماته .

أما مبارك فالحب عنده شىء يمكن ان يقع فى كل يوم وأن يتحول من الزمالك إلى مصر الجديدة إلى بغداد إلى باريس ، وان يجمع بين اكثر من

حب . فهو خافق القلب يترصد الجمال والابتسام ، وسرعان ما يقع فى شراك أول من يصادفه ، وليس له حب واحد قوى ، مزلزل ، عاصف كحب الرافعى ولعل مباركا فى هذا أشبه بعمر بن أبى ربيعة فى حين ان الرافعى أشبه بجميل غرة ، وقيس بن الملوح وغيرهما من الموحدين الذين يعيشون لحب واحد طوال حياتهم .

وأدب الرافعى فى الحب على ما به من تعقيد فهو أجدر بالخلود من أدب مبارك الذى ليس فى نظرى أكثر من خفقات القلب لصور الجمال لا لتجربة كاملة من الحب اتخذت طريقها الطبيعى وتطورها فى مراحل حتى بلغت غايتها .

من كتاب لم يطبع عن (زكى مبارك)

القلب الموزع

أريد أن أتحدث عن مشاعرى فى الوقت الذى أعد فيه هذا الكتاب . فان هذه المشاعر تستطيع إلى حد كبير أن تصور الاتجاه النفسى الذى يملى على فصوله . .

إننى جالس الآن إلى مكتبى فى هدوء الليل . ليل رمضان . الساعة تقترب من الثانية عشرة . الراديو يرسل بعض الألحان الموسيقية التى تعيننى على أن أسجل هذه الخواطر . وهذه هى الكتب من حولى تغمرنى فلا أكاد أرى شيئا من تطويقها لى . وهى ليست إلا بعض المراجع التى أريد أن أنظر إليها فى سبيل إعداد بعض الدراسات . وهى خطة درجت عليها منذ عشر سنوات تقريبا . إننى لا أكاد أنتهى من موضوع كتاب حتى أرانى أفكر فى موضوع

جديد . إننى أصنع الطفل الجديد بمجرد أن أنفض يدى من سابقه . . وإنى لأحس كثيرا بالسعادة فى هذا الاعتكاف بعد يوم طويل أقضيه فى مصارعة العمل الصحفى ولقاء الناس والتحدث إلى كثير من الأعلام . .

ولكنى أضيق أحيانا بهذا الأسلوب الذى فرضته على نفسى . وهذا الاتجاه الذى يأكل أعصابى وقلبى وعاطفتى ويذيبها فى هذه الطاحونة الدائرة التى لا تمل من الكتابة والطبع والنشر .. إننى أود أن أحطم هذا الستار الحديدى الضخم الذى أقمته حول نفسى. وأخرج إلى الحياة ولقد حاولت هذا مراراً . ولكنى فيما يبدو قد أخفقت فى أن استمر فانى أرانى وكأنما أجهل أساليب الناس ولذلك سرعان ما أفشل . فاذا فشلت ارتددت إلى جحرى هذا أكتب وأقرأ .

وكأنما أستعين بهذا على شغل منطقة فراغ ضخمة ، أو إيجاد أصوات ذات دوى ورنين من شأنها أن تحول بينى وبين مواجهة نفسى . .

وهاأنذا الليلة أكتب هذه الصفحات وفى نفسى مرارة فقد انطفأ الليلة حب جديد ، كنت أتصور أنه سيدفعنى إلى الأمام ثمة . أو يملأ نفسى بذلك الرحيق الحلو المسكر الذى لا يستغنى عنه الأديب والكاتب والذى لا بد منه لمواصلة رسالة المفكر وتجديدها وبعث روح الحياة فيها . . وإلا فان هذه المعانى تصبح راكده أسنة مكررة لا جديد فيها ولا حياة .

ترانى أدفن رأسى فى الرمال كالنعام فأقتل عاطفتى فى هذا العمل الذى أرهق نفسى به .. إذاً ما قيمة هذه المشروعات والأعمال والمؤلفات إذ لم تكن وسيلة لبعث السعادة فى النفس أو تحريرها من الجفاف والعمل والحرمان .

ولكن هل أستطيع حقا أن أهجر هذا النوع من الحياة . وأن أنصرف فعلا عن هذا العمل الذى أراه عماد حياتى .

إن الصحافة ما تزال تأخذ من اعصابنا وروحنا كثيرا لها . ولكنها

تدفع لنا ثمن الخبز الذى نأكله . اما الأدب فانه ما زال يأخذ منا كل شيء ، حتى ثمن الخبز الذى تعطينا إياه الصحافة دون ان يمنحنا شيئاً .. أى شيء .. اقول حتى الآن ولا ادرى ماذا يكون بعد .. إلا هذه الشهرة التى لا ادرى قيمتها إذا لم ترد إلى النفس بعض الحياة . وتمنح الروح قبسا من الهناء .

وإنى لأتساءل : احقا يستطيع الأديب يوما ان يعيش من ادبه ولأدبه . وان يزيح عن كاهله مسئولية الحياة الرتيبة . وان يكتفى بانتاجه وحده .. مصدراً لرزقه .

إن هناك كثيراً من العقبات ما تزال تحول دون ان يقف الفكر على ساقيه بغير حاجة إلى معونة عكاز آخر كالصحافة .

القلب الموزع بين الحب والمجد ما زال يحس انه فى الطريق . وان المعجزة المترقبة فى كلا الميدانين لا تزال بعيدة .

إن الوضع الذى يعيش فيه فى عمله، لا يزال دون مكانه ، ولا يزال هناك من التافهين من يتقدمه . ويسبقه . إن واحدا من الذين بأيديهم الأمور فى عمله لا يستطيع ان ينكر إنه كاتب ممتاز وإنه من الكفاءات التى لم تأخذ مكانها بعد . ولكنه اصبح يسمع هذا الكلام ساخراً لأن احداً منهم لم يجد الجرأة بعد لكى يضعه فى مكانه الحق .

ترى هو القصور النفسى الذى يحول بين بعض النفوس وبين اداء ما يرونه حقا ،أم الحرص على ان يظل كل فى مكانه ، أم هو الخوف من ان يلمع هذا الاسم فيطغى على ضياء بعض الاسماء!

ام اننا قد تعودنا فى الشرق ان نكون ذيولا لشخصية أدبية كبيرة ، سواء فى ميادين الأدب او الصحافة . وانه بغير هذا الأسلوب لا نستطيع ان نأخذ وضعنا الصحيح . وان الإنسان الذى يعزف عن هذا الاتجاه ويترفع عن

هذا الإثم يظل فى نهاية القطار الطويل . . كعربة « السبنسة » .

ولست ادرى من نفسى انى استطيع ان اكون تابعا لأحد ، لقد كرهت هذا فى ميدان الأدب . ونفرت من ان اسير فى ركب فلان او فلان من الأدباء الكبار ، فهل ارتد مرة اخرى لأسير فى ركب الصحفيين الكبار .

لا . إننى لن اذل وسأظل قويا بالله وبالحق ، وسأجعل قلبى وحده ؛ وسيلتى إلى إحراز مكانى الحق .

وحيرتى فى ميدان الفكر ، هى حيرتى فى ميدان العاطفة .. فالحرمان يأخذ بروحى وعاطفتى جميعا ، ويجعلنى أحس مدى الفراغ الضخم فى حياتى .

وهى قضية طويلة . هى مرحلة انتقال . مرحلة قلق طويل .. ما تزال ممتدة منذ خمس سنوات . مهما قيل عن مدى المراحل التى قطعت فيها فان ضوءاً باهتاً لا يرضينى وإنما أنا أطلب الضوء الواضح القوى . انا لا احب انصاف الحلول ولا ارضاها . ولا اطمئن إذا قطعت من الطريق مرحلة او مرحلتين ولا اقنع بدون الوصول إلى الغاية .

فى غمرة هذه الأفكار استقبلت شهر رمضان . لم اكن سعيدا . كنت لا زلت غارقا فى العمل الذى اقوم به وامضى فيه . وكنت خلال ذلك اعجب لهؤلاء الذين لمعوا فى سرعة خاطفة ، واقتعدوا مكانهم فى عالم الشهرة واخذوا نصيبهم من المجد فى وقت قليل . اقل كثيرا من ذلك الوقت الطويل الذى ما زلت اقطعه ، ولكنه رغم الغيرة التى كانت تملأ صدرى لم اضق بذلك كثيرا فقد كنت اعرف تماما ان الصعود السريع لا يمكن صاحبه من البقاء طويلا على القمة الباردة ، وان نحت الصخر هو الذى يمكن من الوصول إلى الغاية فى ثقة ويضمن استمرار البقاء .

ان هذه الألوان البراقة التى تدفع إلى الشهرة فى مصر الآن ليست إلا تفاهات بالنسبة للأعمال الأدبية التى اقوم بها ، ومع ذلك فان هؤلاء الذين الآن يحتلون

الآن مكانة ضخمة . وكتبهم تقرأ على نطاق واسع ومؤلفاتهم تطلب من الناشرين في الوقت الذي أتردد فيه على أصحاب دور النشر فلا أجد إلا التعويق . فاذا تحقق نشر كتاب لي فلا فائدة مادية تذكر تصل إلى منه . هؤلاء لن يستمروا طويلا ستصبح هذه النار - غير المقدسة - رماداً بعد قليل لأنها نار القش الهش السريع في توقده وانطفائه .

إنني أعرف تماما كيف استطاع هؤلاء أن يأخذوا مكانهم هذا دون مجهود كبير . فان أحدهم قد سلك سبيل الكتابة الجنسية فأعجب به القراء . وإن الآخر كانت له صلة بكبير يتصرف في ورق الصحف إبان الحرب الماضية فرفعته المجلة فوق الذرى ليحصل لها على الورق . وإن ثالث قد فرضتـــه الظروف وهكذا لا تجد في هذه المجموعة واحداً وصل بجهده إلا قلة قليلة مكافحة، وإذا كنا أخذنا على أدباء الشيوخ أنهم وصلوا عن طريق السياسة هذا أســـلوب لا يغض من الشرف بقدر ما يغض هذا الأسلوب الذي عرفه أدباء الشباب .

وهناك هذا الكاتب الذي يصابحنا كل يوم بالكتابة عن الفضيلة والخلق والمثل العليا . والذي يحاول ويلح في المحاولة ليجعلنا نرى صورته من وراء كتاباته شيخا مطمطما وعابدا زاهدا وإماما ومصلحا كبيرا .

ولطالما ضحكت وسخرت .. وأنا أقرأ كل كلمة له ، لأني أعرفه شخصيا ولأني عميق الصلة وبه مطلع على كثير من مظـاهر حيـاته وأعرف أسـلوبه النفعي وطريقته الوصولية بكل معاني الوصولية . وأعرف نفاقه وتملقه وتقلبه بين الموائد المختلفة وتضحيته كل شيء في سبيل الاحتفاظ بمكانه ، وأعرف أسلوبه في حياته الخاصة ، أعرف سطوه على بعض الزوجات ومفاخرته بذلك وأعرف أنه في هذه الحياة مناقض أشد المناقضة لهذه الصورة التي يعرضهـا في صوره ويضحك بها على القراء ويبدو في إهاب هذا الشيخ المطمطم صاحب الفضيلة .

إن علينا أن نسأل عن كل من وصل ؛ كيف وصل . فان طريق الوصول هي التي تعنينا . ولا يهمنا ما يقوله من زيف القول الذي يبـدو به في إهاب

المصلحين الكبار . أو أنصاف الآلهة الذين يقفون فى شرفات والناس تحت أقدامهم خاشعين .

فالطريق الذى وصلوا به هو كل شىء عندنا . هو المقياس الوحيد . هل استطاع حقا أن يفطم نفسه عن الشهوات والأهواء وأن يجعل من فنه وفكره وأدبه وسيلته الوحيدة . أم اتخذ أسلوب المهرجين الذى يعجب بهم الناس من الطبقات الدنيا لأنه يحسن الإضحاك أو يكشف عن الجوانب التى ترضى الغرائز أم أنه وصل عن طريق النفاق والتملق والسير فى ركاب الكتاب الكبار ، أم أنه كان من حملة القماقم .

لا قيمة مطلقا للشهرة أو المال أو المجد إذا كان قد تحقق بأساليب الوصولية أو الخداع أو الإغراء .. إن المهرجين هم أعظم الناس شهرة وأكثرهم غنى وأعلاهم رتبة فى نظر مجموعات الناس . أما المثقف . أما المفكر فشىء آخر غير هذا .

إنه هو الذى يضع للإنسانية تقويمها ويقعد قواعدها .

إن الشهرة قد تأتى للصوص والوارثين والعاهرات . وإن الثروة قد تأتى ألف مرة من طريق غير طريق الشرف . وتأتى مرة واحدة من سبيل الكرامة.

وعظماء الناس لم يكونوا أغنياء ، واقطاب الفكر والعلم عاشوا حياتهم فقراء لا يجدون ما يأكلون . لم تدع لهم الحياة فرصة ليستمتعوا . عاشوا فى كهوف يعملون ولا يلقون جزاءاً حتى الشهرة البراقة الضخمة لم يحصلوا عليها ، إلا بعد أن ماتوا وذهبوا ولم تعد لها نتيجة عملية بالنسبة لهم . وهذا من سخرية القدر

ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يشكون ظلما ولا فقرا ، كانت نفوسهم الكبيرة تأنف من مظاهر الناس وتكالبهم على المال والظهور . لقد عاشوا آنفين من هذه السفاسف . كانت فى نفوسهم تلك الزهادة الطبيعية فى المال . كان شيئا

قليلا من العلماء يكتبهم كالأنبياء . كانوا ينظرون بغير اكتراث إلى ما يهول الناس ، كانت افكارهم وآراؤهم تشغل كل اوقاتهم وتملأ عليهم نفوسهم ، كانوا يؤمنون بها صادقين .

.. وعلى هذا المقياس نرى انفسنا أقل من هؤلاء الأعلام . إيمانا بأنفسنا لأننا نبحث عن هذه التفاهات ونتكلف بها .

ولكن ماذا انا نعمل عندما يجيء المجد وتتألق الشهرة ونصل إلى القمة يقيني إن مرحتي تكون قد انتهت .

إنى اشفق من هذا اليوم واتوقاه واتمنى ان يتأخر . إنه يجيء معه التفاهة والركود والبلادة والكسل ويحمل معه الغرور والكذب والنفاق ويحمل معه المجاملة والتقليد .

إن اليوم الذى ينتهى فيه هذا القلق ويذوى هو يوم مزعج . إن هذا القلق هو الذى يدفعنا ويقودنا ويلهب ظهورنا بسياط من نار لنلحق إلى القمة فاذا وصلنا فان القلق سيذهب حتما . وهناك نجد البلادة . أليست قد ظهرت لنا المؤلفات وكتب عنا الكاتبون ووصل إلينا المال .

ولكن متى نصل . إن الشعر الأبيض قد مس العارضين والسن قد اقتربت من الأربعين . إننا لن نصل إلا بعد ان تدخل ظلمة الشيخوخة مع النضار .

مقدمة كتاب مصابيح على الطريق كتبت فى إبريل ١٩٥٦ أ. ل

عند ضريح الشيخ

لم أكن من زوار الأضرحة ولا من زبائن القبور ، قبور المشايخ .. ولا من الذين يؤمنون بشفاعات المشايخ والأولياء ، وإنما أعتقدأن الباب مفتوح على مصراعيه بين المرء وربه ليدعو وليجاب له ، ذلك أيضاً لم يمنع مطلقـا من أن أزور أى ضريح . وأن أتنفس فى تلك الأماكن الفيح وأرى الزوار الباكين المتضرعين الممسكين بأبواب المقصورة يرجون ويتوسلون .

*

كان الوقت غروبا ، وكنا وصديقى قد ضقنا بالقرية الضيقة وجوهاوصورها المتكررة وايامها المتشابهة ، فاردنا أن نجعل من الخروج إلى الابراهيمية وسيلة التمتع بالهواء الناعم على ضفافها الفيح ، وانطلقنا رويداً بجوار (قنطرة العزاء) هذه التى وعت ما وعت وضيعت ماضيعت من ذكريات سبع سنين فى القوصية عرفت فيها عشرات من شباب الأصدقاء . كنا نخرج زرافات ووحدانا نجتلى

جمال الابراهيمية وطريقها الطويل إلى «قنطارة العزاء» ونحن نقص ألواناً من الذكريات والحوادث والأقاصيص . ثم مضى كل هؤلاء ، وخلفوا لنا ذكريات عاطرة من امسيات رغيدة كنا نقطع فيها ذلك الطريق الطويل ميممين نحو الابراهيمية لنقف قليلا عند الحديقة القديمة التى أهملها أهلوها ونسوها فبدت على حوائطها وأشجارها معانى الذل والغبن والكآبة .

وكانت أمسيات ناعمة عاطرة .. لأننا كنا نهنأ فيها بمنظر الماء يضطرد ناعماً ولا يرتطم بالشاطىء إلا فى خجل وحياء ، ومنظر القوارب الخفاف وهى تجرى على سطحه تحمل صيادو السمك الفقراء الصابرين الذين يقضون الليل أمام الماء يرجون من الله الرزق .

وقد يطول بهم الانتظار فينظرون إلى النجم وكلهم ضراعة وتوسل بالقلوب الهاجدة الخاشعة هناك فى الأكواخ تنتظر أوبة ذلك الرجل ومعه زرق يبيعه نظير بضع دراهم ينفقونها على لوازمهم وحاجياتهم .

ضقنا أنا وصاحبى بالقرية . فقد أشقتنا الأيام المتشابهة والفراغ الطويل وكنا قد ضقنا بمجلسنا فى الحديقة نتمق الأحاديث ونعلو بها ونهبط ونتناول بها الناس من بعيد وقريب .

ولكنها أحاديث تافهة لا فن فيها ولا جمال ، لانها أحاديث الكسل والاسترخاء وإزجاء الفراغ .

فلما دنونا من الابراهيمية وكانت الشمس على سنان الجبل تنحدر نحو المغيب مخلفة حسرات وخيوط من الحزن والحرمان ، رنا صديقى نحو الابراهيمية فرأى على الجانب الشرقى لها ضريح تحوطه مصلاة ، وقد بنيت هذه المصلاة بالطوب .. والقبر يبدو صغيراً جميلا ، فتاقت نفوسنا أن نذهب هناك لنصلى بجوار ضريح ذلك الشيخ .

والحق أن نزعة روحية هى التى دفعتنا إلى ذلك . فقد كنا نضيق بالقرية

ونقضى أوقاتنا فى الحديث حول ما يحفظه الغيب ويطويه من آمال فى المستقبل القريب ، تنصب كل هذه الآمال على وداع هذه القرية وداع الضائق الحزين، وكنا نزجى الأحاديث فى خيال عميق يصور هذه الآمال وكأنها قد أصبحت حقـائق .

وليس أدل على هذه الرغبة من انطلاق منذ الصباح إلى العرافة التى جاءت القريه أخيراً لأسألها بعض ما لديها من أسرار عن مستقبلى .

فالتوسل إلى مقابر الأولياء والبحث وراء العرافات من أسباب الحرمان والشعور بالضيق والكآبة . التى لا تجد لها مصرفا إلا أن تتقرب وتتعزى ببضع كلمات .

وصلنا قبر الشيخ ومصلاته ، وتوضأنا وصلينا المغرب ، وتذكرت ايام (المصلاة الأولى) التى كنت اجد فيها بعض الأنس من وحشة الحياة والتى بناها أبى تجاه منزلنا فى ديروط .

*

والحق أن زيارة الشيخ والجلوس على قنطارة العزاء والهروب من جو القرية الضيق قد بعث فى النفس بعض السلوى من شقوة الحياة ، وفتح للقلب أبوابا جديدة من النور والهناء .

والرغبة فى التنقل والتجديد . هى رغبة تمتلك نفسى وتصلينى ألواناً من العذاب ، ذلك أن الحياة فى الريف تحد هذه الرغبة وتقتلهـــا : وإنى لشديد الايمان بأن أزماتى النفسية تنصرف وتتلاشى وتتبخر عندما أقوم بسفر قريب

وركوب القطار نفسه يشعرنى بألوان من الحنان والشوق والانشراح ، يفتح أمامى دنيـــا جديدة من الأمانى والافراح وتقليب النظر بين الحقول والمزارع والبلاد من النافذة وبين المسافرين والمسافرات داخل العربه ، يبعث فى النفس بهجة ولذة وسلوى .

فما سافرت مرة إلا وعدت سعيداً ، وقد جددت قواى الروحية بما رأيت

من مناظر وأشباح ، والحياة فى الريف شقاء عنيف دفعنى منذ عامين إن أكتب مقالا عنه اسميه (فى محاريب الحرمان) .

والدنيا فى المدن : دنيا عامرة ترى لها كل يوم وجه وكل ساعه صورة ، والغيد الحسان تخطر فى طرقاتها الغداة والعشى فتشيع فى النفوس معنى الرحمة والحنان والخير والجمال .. والراديو والسينما هما مدرستى المدينة ولهما الفضل فى خلق جوانب قريه فى القلوب والعقول والأرواح ، فما أسعد المكدود حين يلجأ إلى مفانيح الراديو ساعة لأصيل أو زلفاً من الليل .

وما أهنأ المحروم حين يقبل على الشاشة ليرى مباهج الحياة بالخيال ومظاهر الحضارة بالصور .

هو خيال تراه العين وتسمعه الأذن فى هذا وذاك ، ولكنه يدخل إلى القلب فيبعث الرضى والسعادة والاطمئنان . . ليت شعرى . . متى ينتهى حرمانى وأعود لأعب من الجمال والنعيم بين السينما والمذياع .

أيها الورد ، جميل أنت . لكنى حزين . أيها الأفق رحيب أنت . لكنى سجين . أيها النور ؛ رطيب أنت ؛ لكنى دفين .

هذه الخواطر التى أثارها فى صدرى ذلك الشيخ الذى يقوم قبره على الابراهيميه تجاه القوصية ، وهو قبر دهن بالجير الأبيض فبدا جميلا ، ومن حوله المصلاة .. فلك أيها الشيخ المجهول منا التحية ، ولأمسيات الصيف الهانئة عند ضفاف الابراهيمية منا السلام .

جريدة الافكار ١٦ سبتمبر ١٩٤١

إلى الصديق الوفى الاستاذ محمد محمود حمدان

الزاد الممنوع

أنا شاعر يا صديق ولكن قوافى قد ماتت على أبواب « محارب الحرمان »
أنا شاعر يا صديق فافهم كل ما أقول على انه الشعر والوجدان .
أنا شاعر يا صديق فنى قلبى قصائد ليس لها اوزان .
أنا شاعر يا صاحبى من عباد الحسن والجمال .
أنا شاعر يا صديق ومن المتيمين بالطبيعة والمرأة والفنون .
أنا شاعر يا صديق منذ الجدود واسم أسرتى « الشعراء » فالشعر والفن والحب والجمال والوجد والنور فى دمى منذ أجيال .

أنا شاعر يا صديق ، والشعراء مباح لهم تصوير ما فى قلوبهم من أهواء
أنا شاعر يا صديق ولكن الشعر لايضلنى ولايقودنى إلى مهاوى الشهوات
أنا شاعر يا صديق ، ولكن فى قلبى قوى عارمة من الروحية والإيمان والدين .. أنا شاعر يا صديق ولكن فى روحى بقايا من الخير والسماحة والصفاء.

أنا شاعر يا صديقي ولكن الشعر يقربني من مراتب العباد والمتصوفة والمؤمنين .. أنا شاعر يا صديقي ، ولكن الإيمان في دمي .

أنا شاعر يا صديقي ولكن النزوات والرغبات والشهوات واللذات تقترب مني وتدنو ثم ترتد عني باهتة خائفة .

أناشاعر ياصديقي ، ولكني أجيد فهم الحياة وسرائر النفوس وقيم المجتمع وسبل الإنسانية العالية .

انا شاعر يا صديقي ولكن النقد والتاريخ والعقل والمنطق والرياضة والفلسفه في كياني ودمي . . أنا شاعر ولكن قلبي يخفق خفقات الإعجاب بما بث الله في الكون من جمال رائع متع به أفراداً وحرم منه آخرين .

أنا شاعر ولكن الحرمان قد ملأ دمي بالحقد الهائل وبالثورة الملتاعة وبالتمرد الحزين .. أناشاعر يا صديقي ، ولكن مزاميري قدتحطمت وأوتاري قدتقطعت لأنني أمضيت حياتي في ذلك الظلام ، ظلام القرى والريف .

أنا شاعر ولكن يعوزني الجو الطليق والمدن الواسعة والمباهج الممطرة الناعمة التي تحفل بها المدن الواسعة ويمتع بها ناس لا قلوب لهم ولا عقول ولا أرواح .. أنا شاعر أرتفع فوق عوالم البشرية لتصفو روحي عند معـــالم الإنسانية والحب والخير والنور !

أنا شاعر قلبه عاطش إلى الوحي والإلهام ، فقد اشقيت نفسي بالتأمل في دنياي ، والبحث في سرائر النفوس وشمائل الاعلام .

أنا شـــاعر يا صديقي ولكني سعيد بحياتي ، راض عنها ، فانا اجد فيها العزاء من لؤم الناس ومن جهلهم ومن غرورهم ومن اقتتالهم نحو المـادة .. أنا شاعر احب الجمال وأومن به وأترصده وأترقبه في كل مكان لأعرف أن نور الله يغمر الدنيا فلا بدع بقعة ولا مكان . ولكن زادي هذا

هذا ممنوع لدي ، فهنا يأخذ الناس الأمور بمقاييس ... س وتضليل وكلها هواى وجحود .. أنا شاعر ولكن زادى فى جمال المرأة لا أريد منها جسداً ولا شهوة ، إنما اريد لبابها الروحى ، أريد منها الزاد الفنى والقوة المعنوية

أنا شاعر يا صديقى ولكن اريد ان اتعرف إلى الوف الوجوه لأعرف ما وراءها الوف النفوس .

أنا شاعر يا صديقى والمرأة هى زادنا الروحى الأول ، منها نستمد الفن والقصة والإيمان والصدق والخير .. أنا شاعر يا صديقى واحب ان اكون مثل استاذى مبارك .

اسجل الملاحة فى البلاد المصرية .. وارسم صور الحسن الناضر العاطر المضمخ بعبير الحق والجمال والنور .

أنا شاعر .. أحب أن ازور دمشق وبغداد وشرق الأردن ، وإن كنت احب اولا ان ازور المنصورة والاسكندرية وان اعيش حياتى كلها فى القاهرة وعلى ضفاف النيل الغناء .. أنا شاعر .. وقد حرمت من نعمة الحياة فى المدينة فحرمت لأجل ذلك الاستماع الى عبقريات الموسيقى فى الزوارق الماخرة عباب النيل فى ليالى القمر والتمتع والاسمار الناعمة مع المثقفات والمثقفين ، والمتعة بأسمار زكى مبارك وطه حسين والعقاد .

والاستمتاع بالرحلات الطروبة فى السيارة والطائرة والباخرة والجلوس إلى المذياع فى الليالى والأصائل .

أنا شاعر يا صديقى اعيش فى الريف مظلوماً مقهوراً ، وخيالى يسبح فى أودية عميقة من الشعر والحب والجمال .. أنا شاعر باصديقى ولكن الحرمان يتنكب طريقى ويزعج قلبى ويرد نفسى عن المتاع الناعم بالمدن ... صور

ولكن الخير فيما فعل الله ، فنحن لا نزال فى رحمة من عواء صفارات

الإنذار .

ولا نزال فى أثواب كلها العفاف والايمان والشرف، والوقار الذى خلعته المدنية وألقته جانبا .

أنا شاعر قبل كل شيء .. والشعر فى دمى ، والحرمان فى قلبى ، ولا يزال زادى ممنوعا ، ولا أزال منذ عشر سنين أدعو وأجاهد فى سبيل ذلك الزاد الممنوع .

القومية ٤ نوفمبر ١٩٤١ : جريدة الافكار

ابنتي فاطمة ..

ما أسعدنى بك يا ابنتى وما أجملك وما أبهاك .

إنك أزهرت روحى بعدأن طال بها الجفاف وعلمتنها الاستقرار والهدوء والرضى بعد ان أفرط بها الشطط والنكوص والجموح

ما أحلى اسمك يا فاطمه وما أرقه .

أى اسم يستطيع أن يتسامى إلى عذوبة اسمك وموسيقاه .

أليس هو الذى اختاره الرسول لابنته فازدهت على بنات العالمين ؟

كم فى اسمك يا بنيتى من جمال وموسيقى وشعر وحب ونور .

أتعرفين يا ابنتي لم أسميتك فاطمة ؟ وقد كانت هناك أسماء أخرى يتحلى بها أهل العصر وتملأ الأفواه والقلوب .

إنك سمية أعز من عرفت فى دنيا النساء .

إن سميتك قد أخذت قلب أبيك وهربت به منذ سبع سنين ولم تعد وظلت بعد غيابها وفراقها مأخوذا تتقلب أعطافه على الجمر . وتمتلأ نفسه بالشقاء والحرمان كلما أصبح وكلما أمسى كأنه موكل بأن يبدد من عينه النوم أرقا . ومن قلبه الأمن فزعا .

إننى كلما ناديتك وذكرت اسمك فانما أناديها من وراء عوالم الغيب فأنا أتعلل باسمك وأكثر نداءه وأردده ، وأتمززه ، وأعابثه . والله محبا مشوقا مملوءاً بحنان جارف لا لأنك ابنتى فاطمة بل لأنك أنت سمية صاحبتى الخالدة فى أعماق ذكرياتى .

وإنما أنا أتخذ منك تعلة لذكرها حتى لا تناسينى ذكرها الأيام المنطوية والليالى المارة .

وإنما أنا أناديك وأعابثك لأخفف عن نفسى غلة الشوق الجارف لفراق سنين لا أعرف ماذا كان فيها من أمر الحبيبة الوفية وإنمـــا أنا أتخذك وسيلة لأرد إلى نفسى بعض أسباب الحنان والأنس بالذكرى وبالاسم . وحتى لا تشعر أمك بأنى أصرف حنانى إلا إلى ابنتها الوحيدة .

هل تعرفين هذا كله . ومالك تعرفينه وأنت فاطمة العام

إنما تعرفه فاطمة الأعوام السوالف ، التى ناداها قلبى وأطال النداء ، فلما جزع من الفرقة الملتاعة ، بنى لها فى جوانبه قصراً يعبدها فيه ويذكرها عنده ويبكيها لديه فقد طال هجرها ، وبعد العهد بها . وإن ظل القلب مقيما على الذكرى وفيا .

يا فاطمة أتذكرين أنى قد أحببتك يوما ، فهانت هذه الحياة لدى وتلاشى من أمام عينى الأبد والأزل . وانطوت السنون فهتف بك القلب هتافا موصولا ظل يردده لا يسلو ولا يشفى ولا يؤوب .

يا فاطمة . هلا تذكرين ذلك المحب المحروم الذى فتنته عيناك ، وقتله لحظك ، واضناه ثم اشقاه حرمانه من الجلوس إليك . ومناجاتك فاندفع فى الحياة متمردا ثائراً ، كأنما قد قضى عليه ان يضرب فى صحراء قفر لا يعرف كيف السبيل ولا متى الوصول ولا اين الشاطىء .

يا فاطمة يا ابنتى . ما احلاك وما اجملك ، إنك تعيدين صورة سميتك الغالية كل لحظة بين يدى قلبى الذى حرم لقائها فأحبها عفيفا طاهراً مؤمنا متبتلا ، وجاهد الدنيا اشد جهاد . فما رضيت ان تهديه ذلك الهدف الحنون ، إنما ظل يطوف مظلوماً مقهورا فى دنياه لا يعرف متى يعود .

منذ سبع سنين يا فاطمة لم تكتحل عيناى بك فكيف انت الآن ؟وكيف الحياة حولك وقد كنت احب ان اسمع بغامك كل مساء فاذا انت ـ الآن ـ تباغميننى متقمصة فاطمة الصغيرة بلغة خرساء لا اعرف منها معنى ولا كلاما وكأنما تكلميننى من وراء الآباد .

منذ شتاء سبع سنين لم تترفق بى الدنيا القادرة لتريني وجهك الصبوح فهل سأظل محروما إياه حتى اموت .

ليت شعرى . كيف تقضين ايامك ولياليك واصباحك وامسائك وانا بعيد .

هل سلانى قلبك الوفى وقد كنت قبلته ومرآته وصداه .

هل انتهى حزنك وشوقك وانتظارك الطويل وقلقك الموصول إلى لون من الحزن الطريد المطلق .

هل قنعت أخيرا بأن تغلقين نافذتك وتسلمين عيناك الجميلتان إلى ذلك البحر الغزير وماذا بعد الآن ؟

هل يعيدنى إليك البكاء . وكيف وقد قيدت إلى سارية فلا يمكننى الافلات ؟ إنك لا زلت تجترين احزانك واحمرتاه . تواصلين ظلام الليل بظلام مثله فى النهار . وكيف لا . وقد علمت انك قد اغلقت نافذتك منذ مضيت ولم اعد

اى حين يملأ قلبى لأنى أعيش حياتى كما رسمها القدر وانت هناك يقتلك الحزن ويضنيك السهاد .

هل الحب إليك ان تخرجين عن وجدانك الحبيس ؟

هل تنتظرين ان اعود . انه امل لن يتحقق إلا إذا شاء الله ولا راد لما يشاء

إننى لا اعرف يا فاطمة . ترانى هل قنعت بهذه (الفاطمة) تناجينى واناغيها كيف اشاء . فليس بينى وبين فاطمة فود واملال . إنى لألقاها فى كل وقت وفى كل مكان !

وبعد فهل اسمع يوما ان ذلك الراحل الذى سوف يسعدك قد آب . وانه قد احتك إلى داره وسقاك كؤوس الحنان فانساك ما مضى من وصل وهجران وجرتك من احزانك السوداء التى تلفعت بها فاحالتك إلى الشيخوخة قبل الأوان

وما لى اغلو بانك ذاكرة إياى وماذا يمنعك ان يكون ذكرى قد مضى يوم مغيبى ولم اعد اخطرلك فى بال . إلا حين تنظرين إلى صحيفة المعجبين العاشقين

وإن كنت استغفرك فما اعرفك إلا مثال الطهر والكبرياء

إنى حين اناديك ابنتى فطمة فانما اناديك من وراء الحجرات .

إن قلبى وخيالى مسافر معك فرديه إن شئت أو خلى عنه .

جريدة الأفكار ٢١ أبريل ١٩٤١

أضواء على الحب

ليس احب إلى من ان اتحدث عن الحب واكتب عن الحب !

هذه الكلمة الحلوة العذبة ذات الصدى الناعم والرنين الموسيقى . هى قوام الحياة كلها . وانا اعنى هنا نوع واحد من انواع الحب ، هو ذلك الذى يقوم بين الرجل والمرأة ، هذا الآسر القوى العنيد الذى يغزو القلوب بقوة وعنف وتعنو له الجباه والذى لا يعرف حدودا ولا سدوداًولا أديانا ولا أوطانا.

فهذا السيد المسيطر المهيب . وهذا البطل المحارب الذى يحصد الرؤوس وتخر له الحياة وهذا الفقيه الورع الذى طوى قلبه على الإيمان . كل هؤلاء سواء أمام سلطان الحب ، يعرفون عن طريقه الذل والشقوة والحرمان والشوق ويتلهفون على الكلمة والنظرة والابتسامة .

لقد راعنى وأنا أقلب صفحات التاريخ والفن والأدب وتراجم الأعلام أن أجد الحب ظاهرة لا تتخلف ، كأنما هى قوام الحياة وروح الوجود . إنه القاسم الأعظم الذى خفقت له قلوب وتحرقت نفوس وعاشت تترقب وعود وأمانيه أوراح ، وهو الذى حطم العبقريات وبدد الثروات . وهو الذى أنشأ الأمجاد ودفع إلى الذروة ورفع إلى القمة .

ولقد عرفه الناس من كتاب وشعراء وعلماء وزعماء فما اجتمعوا على رأى فيه ، ولا توافقوا على تصويره ، لقد رآه كل منهم من الزاوية التى واجهته وأحس به على حسب هواه وعاطفته واستعداده .

إنه يأتى بغتة . ويدخل الحياة فجأة ، فيغير الطريق ، ويحول التيار ، ويدفع إلى سبيل جديد وأسلوب غير أسلوب ، وإنه حين يفعل يرقق الطبع ويدمث الأخلاق . ويسمو بالنفس ويهز المشاعر فاذا أدبر كان ناراً وجحيما وكان عند رجال الأدب والفكر حرمانا يعصر القلوب ، فتنشىء الآثار الرائعة ويكشف عن العبقريات المدفونة ويسجل أجمل آيات الفن .

وعاطفة الحب . كيف يمكن فهمها : هل بالتجربة وحدها أم بالقراءة ، وفى أى سن يفهم الحب . فى الشباب أم الشيخوخة . وأى فهم هو أصدق وأنفذ وأبعد فى مجال الخبرة ؟

إن رأى الشباب فى الحب مشوب بالنزق . ورأى الشيوخ فى الحب يصدر عن السن المرتفع فأيهما الأصدق . وهل تغنى فى الحب تجربة الآخرين عن تجربة الانسان نفسه .

إن الحب كالماء يتبلور فى صورة الإناء ، ويختلف عند كل إنسان عنه عند كل إنسان . وكم من الشيوخ يرون الحب نزقا ويندون أن جوته أحب فى سن السبعين بعنف وقوة ، والحب : هل يهدف فى حقيقته إلى الزواج أم إلى تحقيق الدافع

الحسى . أم إنه يرمى إلى معنى رفيع أسمى من هذا كله . وهل هو مادة أم روح أم هما معا .

والحب عند المرأة هل هو عند الرجل . وهل تحب المرأة الحب . وهل تحب الغانية كما تحب الفتاة . كما تحب الزوجة .

والرجل هل يحب قبل أن يتزوج . أم يحب بعد أن يتزوج .

وهل يجوز الجمع بين الزوجة والعشيقة وهل هو حق للرجل وحده أم يجوز للزوجة أيضا .

وهل يدوم زواج الحب . وهل يعود الحب بعد أن تنطوى صفحته ؟

وهل حب العظماء والعباقرة مقياس صادق للحب .

كل هذه أسئلة حائرة خالدة فى الحيرة لا تجد الجواب عليها !

*

القاعدة الأزلية التى أقروها عن الحب أنه أداة سد الفراغ . إن المحب إنسان يشعر بالفراغ . يحس بأن شيئا ينقصه . يجد فى أعماقه منطقة خالية ، ويتوق إلى شىء مجهول . ويتبلور هذا المعنى فى نفسه على صورة إنسان آخر يرى ملامحه قائمة فى أعماقه ولكنه لا يعرف طريقه . إنسان يذهب وحشته ويملأ قلبه سعادة . ويدفعه بقوة إلى الإنتاج والخلق والمجد .

ولكن هل تدفع المرأة حبيبها إلى المجد حقاً كما يقولون .

هل المرأة دائما من أدوات الخلود . أم أنها حين تحب لا تدفع إلى المجد بقدر ما ترغب فى أن تستولى على حبيبها وتغار من كل ما يحوطه ويشغله لأن أنانيتها تجعلها تريد الرجل لها وحدها .

يقولون إنه فى حالة واحدة تستطيع المرأة أن توحى إلى الرجل أو تلهمه . تلك هى

الحالة الأخيرة . عندما تنصرف عنه وتهجره وتقع بينهما القطيعة . عندئذ تنفجر فى نفسه شعلة الحرمان والغضب . وتلفه الأحزان وتدور الدنيا به . عندئذ يأتى الفن فى صورة أدب أو لوحة أو قطعة موسيقية رائعة !

ولكن هل يبقى الحب ويخلد ، ذلك كلام نقوله ونحن فى ذروة الحب . عندما نلغى عقولنا ونعيش فى أعماق عاطفتنا وحدها .

يقول لوسيان بوبيه « لا تقل دائما أبدا فان ذلك فى الحب كفر وتجديف فليس هناك من يعرف . والمرأ إذا أحب الآن أقسم بأغلظ الأيمان . ثم بكل بساطة ينساها . لا تقل أبدا فليس فى الحب ما يربطك . إن الإنسان يمل حتى من الهناء »

ولقـــد عاش الحب قوة آمرة تحطم تدمر . كم أذلت وكم رفعت . وكم دفعت إلى الأمام . حتى القديسين لم يسلموا من الحب . بل لعل هؤلاء كانوا أقرب الناس إلى الحب بنفوسهم الشفافة النقية . وهذا أبى عربى وابن حزم وغاندى وسافونا رولا .

وليلى عند الصوفية هى فى حقيقتها امرأة عاشت فى شباب المتصوفة ، فلما انقضى الشباب عاشت مرة أخرى فى عواطفهم الدينية .

وأنت لا تستطيع أن تجد حياة عظيم خاليا من حب أو امرأة . ولطالما تصارعت الزوجة والعشيقة فى الفرس الكبيرة وكان لصراعها دوى .

ولقد عاشت للحب نساء ضاريات . سحقن الرجال وأسلمنهن إلى المرض والموت ومن هؤلاء جورج صاند .

ونساء أحببن فصنعن المعجزات ورفعن من أحببن إلى السماء .

وهناك امرأة عاش بحبها العشرات . ومضت تتلقى العواطف الزاخرة ، ثم إذا بها تجن فلا تجد من حولها أحد .

وهناك أمثال هلويز فى روعة الحب وجلاله . وغاده الكاميليا فى اندفاع الهوى وضلاله .

وهناك المرأة سالومى التى قتلت النبى زكريا . والمرأة دليلة التى قتلت شمشون الجبار وهناك شهر زاد التى صنعت شهريار خلقا جديدا .

وتاييس التى فتنت الراهب فلما تابت دفعته إلى الخطيئة .

وهناك الزهراء التى بنى لها الخليفة مدينة وهناك « تاج محل » ما زال قائما يروى قصة حب عنيفة .

وكليوباترة باسطولها الذى كان يمخر النيل من الاسكندرية إلى الكرنك. قصة امرأة . وشجرة الدر التى قادت جيشا وحكمت أمة . والعباسة التى سحقت البرامكة . وكم من وراء الحب من قصص ومن أحداث .

وفى التاريخ قصص لغدر المرأة وفى الأساطير قصص لوفاء المرأة .

وبعد : ترى هل يحب الإنسان منا بارادته ، وهل هو يختار من يحب ؟

هذا سؤال حير الفلاسفة والباحثين . منهم من يرى أن الحب ليس بالانتقاء والاختيار فان الإنسان يقع فى الفخ قبل أن يدرى أو يختار . ولكن هذا الكلام لا يؤخذ على علاته ، فان الصورة النفسية الإلهية التى يحملها كل منا فى أعماقه للمرأة ، والتى هى من مجموع قراءاته وذكرياته والصور التى خزنتها ذاكرته ، يكون لها أبعد الأثر فى الالتقاء مع المرأة التى يرتضيها من النظرة الأولى إن كانت النظرة الأولى هى مفتاح الحب .

وعندى ان الرغبة فى الحب تدفع إليه . فينحو نحو الوجه القريب من الصورة الإلهية القائمة فى اعماقه .

ويكون الالتقاء بين رجل وامرأة احيانا من صنع القدر . ولقد تلعب الصداقة دورا خطيرا فى الجمع بين اثنين فى ظروف نفسية من شأنها ان تقر بينهما وتدعو إلى الامتزاج .

وليس ضروريا ان يكون الحبيب والحبيبة متلاقيان فى الآراء او الآمال او متشابهان فى الاتجاه والأهداف . بل لعل العكس هو الأصح وان الرجل يطلب فى المراة ما ينقصه . فيحب الرجل الهادىء النفس المراة الثائرة ويكره تماثيل الرخام الباردة .

وقد يعذب المحب حبيبه عامدا او غير عامد لأن فى نفسه اصداء تعذيب قديم ، وقد يتلقى العذاب راضيا .

وعندما يحب الرجل يرى فى المرأة مثال الجمال ، ويجد فى معالم وجهها وجسمها المقاييس الرائعة للصورة الإلهية . وعندما ينغمس فى الحب تزول من نفسه كل صورة سواها . فاذا فقدها او جفته ، بحث عن ملامحها فى صور من يصادف من النساء .

وفى الحب انانية . فصاحبه لا يقدم على التضحية إلا مضطرا ولا يهجر محبوبه إلا تحت ضغط عاطفة اخرى .

وهناك فارق بين الصداقة والحب . والكثير من المحبات يتحدثن عن الصداقة ويكسبن تصرفاتهن لونا من الهدوء ليصلن من وراء هذا المظهر إلى معرفة مدى صدق الحب الذى يكنه الرجل . وفارق بين الصداقة التى هى كياسة ومود هادئة وبين الحب الذى يقوم على مجموعة من معانى البهجة والخوف والعنف

ولعل مرد هذا الجوح هو خوف الحبيب الدائم من إفلات صاحبـه من يده .

ويقول المازنى « إن الطراد هو كل ما فى الحب من لذائذه . ومتى انتهى

الأمر . ووقعت الفريسة فتر الحماس وسكنت النفس وهدأت الأعصاب . ومن هنا يخطىء الذين يتوهمون أن للحب عمراً أطول من عمر المطاردة . ومن هنا أيضا يخيب أمل الذين يتزوجون وهم يحسبون أن الحب يدوم .

ويقول العقاد أنه ليس لزاما أن يحب الرجل المرأة التى تستحق حبه . أو تصلح له وتصلح أبنائه بل يتفق كثيرا أن يترك المرأة التى تسعده ويتعلق بالمرأة التى تشقيه ويتفق كثيرا أن يهواها للأسباب التى توجب اجتوائها والإعراض عنها .

*

ولكن كيف تواجه المرأة الحب ؟

إنها - فى الأغلب - تتلقاه متجاهلة إياه ، منصرفة عنه ، ولكنها تظل ترعاه فلا تقطع الحبال وعندما تحس أن الرجل صادق فى حبها وأنها أصبحت بالنسبة إليه شيئا ضخما لاسبيل إلى تجاهله ، تذهب مذهب المجافاة والحرمان والعناد وتتغيب عامدة عن مواعيدها تدعى المرض لتعتذر له وذلك رغبة فى أن تلهب أعصابه ، ولتدفعه إلى ذروة الثورة والحماسة . وتظل تتنكر لعاطفتها ، فتزور مشاعرها تبدو كتمثال من الجليد . ولا يبدو حبها فى صورته الطبيعية إلا عندما تحس بأن حب الرجل قد أخذ فى الفتور .

وتحيط المرأة المحبة دائما نفسها بالغموض . وتتلفع بالضياء . وتحب أن تبدو وكأن معها سراً وأن وراءها ماضيا وقصة ، ليظل الرجل باحثاً عن هذا السر دائبا فى الوصول إليه .

وقلما تقول المرأة للرجل الذى تحبه كلمة الحب صريحه . وإنما تحرص على أن يفهم حبها من عينيها .

وتحب المرأة دائما أن تصارع الرجل . ولا تستسلم . إنها تخشى أن تكون

فى أمان وهى لا تكون فى أمان — كما يقول زكى مبارك — إلا حين تزهد فيها القلوب .

ويرى المازنى أن الحب ينشأ فى النفس من رغبة الإنسان فى الحركة المضطردة وتبرمه بالركود الذهنى والعاطفى . والحب الغريزى هو الذى يلهب حاسة الخيال فى ذهن الرجل . وهو الذى يدفعه إلى مواصلة العمل والإنتاج . أما امتلاك المرأة المحبوبة فهو يجردها من إطارها الشعرى . ويحول دون أن تكون مادة للوحى . »

وهذه فى الحق هى مشكلة رجل الأدب ورجل الفن .

إن الحب يتحول بعد الزواج إلى شىء من الروتين فتخمد جذوته ويجد الفنان نفسه فى حاجة إلى أن يفتح آفاقا جديدة أمام فنه يستوحى منها لآثاره ، فيغامر فى سبيل حب جديد . ولكن إلى أى مدى يكون أثر الحب الجديد فى حياته وعاطفته هل يمنحه ، هل يصارعه ؟ وكيف يوفق بين الحب والزواج ؟ من هنا تدخل النفس فى أعماق صراع جبار لعله يكون مصدرا رائعا للأدب والفن .

صورة أبى

كان يلقانى دائماً بوجهه الوضاء وطلعته المهيبة وجبينه الوضاح . فكانت تذوب فى نفسى عند لقياه كل معانى الشر .. كأنما كان الشيطان الكائن فى أعماق يخافه ويرهبه ، فما أن يقع بصرى عليه حتى يولى الأدبار .

ما من مرة ، كنت فى طريقى إلى أمر ، إلا وأراه يطالعنى فجأة من حيث لا أدرى ، وما من مرة رأيت وجهه إلا اهتززت من الأعماق ؛ وازوورت فى نفسى كل معالم الغرور ومطامع الحياة .

وهو لا يفاجئنى إلا وأنا فى الطريق إلى الأمر المهم ، الذى أكون قد صرفت وقتاً طويلا من حياتى باحثاً عنه والذى أكون قد أنفقت الساعة بعد الساعة واليوم بعد اليوم فى سبيل تذليل عقباته وتهوين مشاقه .

فاذا انقاد لى وأصبح طوع أمرى ، وحددت موعدى .. وكنت

من أمرى هذا أشبه بالطفل عندما يترقب يوم العيد ، ومن فرحتى بحيث أكون لم أنم ليلى ، ولم اصرف قلبى ونفسى عن التفكير فيه ، وإذا قلبى يخفق . وأنا أدير فى نفسى الكلام الذى أقوله ، أتخير منـــه ما يصلح ، وأحاول أن أجعله موسيقياً شجياً مؤثراً .

وإذا أنا فى هذا كله ، وفى طريق راكبـــا سياره أو تراما .. إذا به يفاجئنى ، ألمح وجهه المشرق بين مختلف الوجوه ، فاذا بى أهتز اهتزازة عميقة وإذا به قد مسح من صدرى كل أوهامى ووساوسى ومطامعى فاحس كأن همودا قد أصاب نفسى ، وكأن حاله من الفتور قد أصابتنى فاذا بى منصرف عن أمرى هذا .. مستوحش له ، متنكراً لنفسى فيما جرت فيه من طريق . نادم على أنى مضيت وراء الأهواء ، ساخر من أنى تجنبت ما رسم لى الرجل من طريق ، وما هدانى من سبيل ، وما وجهنى إليه من هدى .

إنه قضى منــذ طويل ، ولـكنه خلف فى نفسى آثاراً لن تمحى ، آثاراً قوية بارزة واضحة .. لا سبيل إلى نسيانها أو إنكارها ، كأنما قد اختلطت بالدم فلم تعد هناك من وسيلة إلى تجاهلها .

مضى ولم أره .. لقد فارق دنيانا ، وأنا بعيد ، فلم تتح لى الفرصة أن أراه فى ساعاته الأخيرة أو أودعه .

وكأنمـا قد تحين هو فرصة غيابى ليذهب ؛ حتى أظل أحس بأنه لا يزال موجوداً .. ولـكنه بعيد .

وإننى ليعتورنى الشك احيـــانا فى أنه ذهب ، ويذهب بى الخيال إلى أننى سألقاه مصادفة فى الطريق .

إننى لأذكر يوم التقيت به آخر مرة ثم حال السفر بيننا وبين اللقـاء حتى توارى كما يتوارى النجم الوهاج حين يمضى ويترك من ورائه الضياء الذى

لا ينقطع .. وكان قد علمنى فى الوقت الأخير ووجهنى .. بل غير طريق فى حياتى . وحول مجرى تفكيرى ، ودفعنى إلى آفاق واسعة علوية : غايتها الرفعة والسمو والارتقاء .

كنت أحس إزائه أنى أكثر من إنسان ، إنسان قد انصرفت عنه أوهامه ومطامعه وغروره وأهوائه .. وصفا قلبه ، ورق حسه ؛ وبدأ يحلق فى دنيا عالية الذرى ، لقد سكب فى أعماق ماء الخلود ، وضياء الحياة - وكان من فرط ما ألقى فى روعى - أنى كنت قد أحس بأنى قطعة منه ، وأنى أجرى فى طريقه ومجراه . ولا غرو أن أكون كذلك ، أليس هو أبى !

فلما بلغنى إلينا النبأ الفاجع وأنا بعيد وقريتنا أشد ما تكون حاجة إليه وهو منشور الاسم بعيد الصيت .. انتابتنى حالة نفسية مفزعه ، وضاق صدرى بالحياة والمبادىء والآمال ، وفزعت إلى الأصداء المدوية أنسى بها واقعى المؤلم ؛ وأدفن فى ضوضائها حقيقة نفسى .

وتطلعت فى قلبى إلى فراغ عميق . ورأيت نفسى وقد استوحشت .

لم أحزن عليه حزن البكائين النادبين . بل أصابنى الذهول الكئيب المغرق الذى يفيض على النفس والحس والأعصاب والجوارح .

فوقعت فى غيبوبة ، ما تزال ماثلة فى نفسى ، وإن حاولت أن أدافعها بالأوهام ، وصرخت فى أعماق عوامل الفراغ العنيف ، فلم أجد ما أملأها به ، وحاولت أن أجرى فى الحياة وراء اللذات والرغبات الروحية ، وراء الحب والمرأة والجمال .. وراء المجد والطموح والشهرة .. وراء المال والنضار والكسب .. وراء كل شىء ، فوجدته وهما خلاب المظهر ، كالطبل الفارغ له دوى ورنين ، ولكن ليس فى داخله شىء .

ووقعت بعد فى الحيرة ، وغرقت فى التيه .. وظل شبحه يراودنى فلا يدعنى .

فما من طريق مضيت فيه إلا وجدته أمامى . . وجدت صورته الحقيقية لا صورته الخياليه القائمة فى أعماق .. وما من مكان قصدته إلا قابلنى وأحكم نظراته فى . وما من وجهة وليتها ، إلا سبقنى إليها ، كأنما ينهانى ، ويذكرنى وما من هدف يممت إليه ، إلا لقيته قبل الباب يردنى بنظرته التى كنت أعرفها، وابتسامة شفته التى أدرى كنهها . ابتسامه السخرية ، وأحس كأنما هو يسخر منى ويسخر من دنياى ، ويفزع من أوهامى ، ويعجب من تحولى .

وكأنما يقول لى أن دنيانا هذه تافهة فارغة ، فلا تجعل لها كل هذا الاهتمام لماذا توليها كل الاهتمام ؟

وأسهر بالليل ، اكتب وأدون ، وأبحث .. ثم أرفع رأسى فاذا به ساهر يرقبنى ، كانما يقول لى : لماذا .. هل هذا الجهد فى سبيل دنيا زائلة ؟

وأستيقظ فى الصباح مبكرا .. أسرع إلى امر من أمرى ناراه يبتسم لى كانما يقول : خفض عليك بعض هذا العناء .

واذهب إلى لقاء فلان وفلان ، فاذا به يرمقنى ساخرا ، وأتحدث إلى أحد من أهلى عن نصر انتصرته فى الحياة أو مال غنمته . . ثم ألمحه من بعيد ، موجها نظره إلى كانما يقول : إن هذا من حطام الهشيم ، او سقط المتاع .

ماذا ستاخذ معك . . عندما تعود ، من مجد أو مال أو متاع . . سوف لا تحمل معك إلا كلمة طيبة او يد مسداة لمحتاج او فقير .

فى رحاب الله

البحر جميل يملأ النفس بهجة بلونه الأزرق القاتم .. هذا ما لفت نظرى عندما شقت الباخرة « كندالا » البحر الأحمر .

لقد خلفنا الشاطىء ، وكنا منذ قليل نشق الصحراء ، التى لا تقع البصر فيها إلا على الجبال الجرداء ، والرمال الصفراء .

وما أن وصل القطار إلى الميناء ، حتى كانت الباخرة متأهبة يتصاعد منها دخان أبيض ، ودوت صفارة الوداع فى الساعة الواحدة .. واهتز قلبى والمركب تغادر الشاطىء .. إنها المرة الأولى التى أغادر فيها أرض الوطن .

ولكننى كنت أحس بعاطفة جارفة نحو الأرض المقدسة ، نحو الكعبة ، نحو مثوى رسول الله .

وتلاقت العيون والوجوه فى شوق وأمل .. والدعاء يرتفع من القلوب

على أطراف الألسنة إلى الله ؛ والرؤى تملأ النفوس حنينا إلى أرض الطهر والنقاء وسرعان ما اختفت معالم السويس ، ومضت الباخرة تمخر هذا العباب هادئة ناعمه ، مطمئنة وادعة .

وزال الشاطىء وبدا كأن الشمس توشك أن تغرب فى البحر .

والتقى بى صاحبى ، فنظر إلى الفضاء وابتسم وقال : لقد زالت معـــالم اليابسة .. ومضينا ننتقل بين طوائف الحجاج ، فى الدرجة الثالثة وقد افترشوا أرض الباخره وطرقاتها ومصاعدها ومهابطها ، وفى الدرجتين الأولى والثانية وصادفتنا وجوهاً حلوة مشرقة .. كلها متلألئة بالبشر ، مشوقة إلى حرم الله ، راغبة فى مغفرته ورضوانه .

وساءلت نفسى لماذا اخترت الرحلة إلى بيت الله ؟

لقد كانت فى النفس آمال فى أسفار أخرى ، ليست تجاه المشرق . . وإنما تجاه الغرب ! ولكن هذه الآمال قد تبخرت منذ سنوات ، منذ بدأت أعكف على الدين والتصوف وتدور فى نفسى تلافيف الأفكار الروحية .

وإذا بى أفاجىء بخطاب من هذا الرجل الذى أحببناه ، يقول : هل لك فى السفر معى إلى الحجاز ، وكنت حقا فى حاجة إلى صحبة هذا الإنسان الأعلى ،

كان هو الإنسان الذى ملأ أعماق نفسى منذ التقيت به بفيض من الحكمة والحب فما أسعدنى أن أسير معه فى الفضاء وأن أذهب معه إلى هذا المعين المقدس ، لأدرس هذه النفسية العجيبه ، وأتعرف إلى شمائلها وعواطفها .

وفى المساء أخذت جوانب الباخرة تهتز بالدعاء ، كان الحجاج قد تاهبوا للاحرام وبعضهم قد انتهى منه .. ومضت أصواتهم تخترق غرفتنا الخشبية وهم يرددون أدعيه التلبية .. فى حنان رهيب يهز القلوب .

وذهب صاحبى إلى محرمه ، ، وعاد وقد ائتذر بالأبيض ، وأخذ يردد فى صوته الجهير الحنون . لبيك اللهم لبيك . وأصبحنا . وقد بدت ملامح الجزيرة

تزمجر على الأفق البعيد . . ها هى الباخرة ينحدر نحو مهبط الوحى ومنزل الإسلام الأول . وزرفت العيون دموعا وزغردت النساء حنانا ، وتأهب الناس للهبوط . وترات على الأفق « جدة » وبعد قليل ألقت الباخرة مراسيها .

وخرجنا من أبواب جدة إلى مداخلها ، وحملتنا السيارات إلى مكة حيث بلغناها عشاء . وعلى أبواب مكة وقفنا ، وقفنا نستلهم الذكرى . . ذكرى دخول الرسول وصحابته مكة ، وقد جاءوها معتمرين ، وتواردت صور بيعة الرضوان والحديبية والفتح .

وصاحبى ، يلبى بصوته المتهدج .. فى حنـــان عجيب . . فما أن وصل إلى مدخل مكة حتى وقف يستأذن الله فى دخول الحرم ، وتحت جنح الليل كانت المعانى تبرق والكلمات تلمع ، كأنها الضوء اللماح .

وانتهى بنا الليل إلى ذى طوى ، فنزلنا وهجعنا بها لحظات .. لأن الشوق إلى البيت الحرام كان غلابا .

وفجأة .. كنا وجهاً لوجه أمام المنزل الحرام ، وما أن دخلنا من باب الصفا حتى وقعت الأبصار على الكعبة .

ها هو الصفا ، الذى صعد عليه محمد ينادى قبائل مكة ويدعوهم إلى الحق ، هذه الكعبة المعظمة التى بناها ابراهيم ، وهذه زمزم ، وهذا مقام ابراهيم ، وهذا هو الحجر الأسود ، والركن اليمانى ، وحجر اسماعيل .

هذه الأماكن المطهرة المقدسة ، التى طوف بها المسلمون منذ ألف وثلاثمائة عام . ولكن ترى هل استقرت النفس وأحست بأنها فى مكة ؟ كلا ، لقد عشت أياما وأنا أمسك بجبهتى لأتذكر ، هل حقاً أنا فى يقظة أم أحلم .

أهذه مكة ! وهذه هى الكعبة ؟

ما أجملها ونحن نجلس إليها فى المساء ، وهى شامخة ضخمة ، تطالعنا حين

ننظر إليها بصفحات طويلة من تاريخ الأنبياء والمجاهدين والدعاة . .

الحرم فى الغروب ، بدأت الشمس تنحسر عن فناء الحرم الواسع الشاسع وبدأ ظل الجبال العالية ، وجبل أبى قبيس الشامخ يكسو المسجد حلة من الجمال على ما به من جلال ، ها نحن نطوف بالكعبة حيناً ونطوف بالناس حيناً آخر وها نحن فى « منى » نتأهب للذهاب إلى « عرفات » .

ونسير إلى الجبل فنصعد الصخرات الكبار التى كان يقف عليها رسول الله وندعو ، ندعو فى حرقة المشوق إلى المغفرة ، ولهفة الظامىء إلى رضوان الله ثم تنطوى صفحة النهار وتغرب الشمس وراء الجبال ، ويمتد الظلام ، وبعدها نفيض من حيث أفاض النـاس . ورمينا جمرة العقبة فى منى بعد أن بتنـا فى المزدلفة . وعدنا إلى مكة فتحللنا من ملابس الإحرام بعد أن طفنا بالكعبة سبعا .. وها نحن نودع مكة ، ونطوف بالكعبة طواف الوداع .

وننصرف عنها متراجعين إلى الوراء ، مرددين .. لا ندرى متى نعود .

وهذه هى المدينة ، يكسوها نور وجمال . . وفى وجوه أهلها وأخلاقهم طيبة ، وفضل ونبل .وأيام المدينه كريمة ، ولياليها كلها شعر وجمال ، وفى صباحها حنين ، وفى أمسياتها ذكريات .

وانطوت أيام المدينه سريعة ، وها نحن فى الطريق إلى جدة . . وها هى الباخرة كندالا .. تطوى خليج السويس فى طريقها إلى أرض الوطن .

٩ ديسمبر ١٩٤٥

من سلة المهملات

كان يؤمن بانه كاتب وأديب ، وانه يستطيع أن ينجح فى هذا الميدان وأن يزحف ويصل إلى القمة ، وأنه لا سبيل إلى ذلك فى الريف ، وأن القاهرة وحدها هى التى تتيح له الفرصة للتبريز .

وفى سبيل تثقيفه الأدبى ، قرأ كثيراً ولم يدع كتاباً جديداً أو باحثاً دون أن يلم به .. وكانت قد ظهرت فى يناير ١٩٣٣ فاحبها وأخذ يقرأها بانتظام بعد أن عاش على السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى ، وكل شيء ، يجد فيها زاده سنوات . وكان من قبل يقرأ تلك الفصول السياسية العنيفة التى كانت تملأ صحف الوفد .. يقرأ العقاد وعباس حافظ وتوفيق دياب فى حلقات من الناس يستمعون إلى هذه المجادلات الحزبية العنيفة .

وبدأ يقرأ الصفحات الأدبية فى البلاغ والجهاد وكوكب الشرق والوادى

وفى خلال السنوات الممتـــدة أحب الزيات وزكى مبارك ، وأحب ما قل ودل التى كان يكتبها الصاوى فى تلك السنوات بعد عودته من أوربا ، وقرأ لسلامه موسى وإبراهيم المصرى والمازنى .

ومن أول قرش حصل عليه اشترى كتابان هما : « فى أوقات الفراغ » لهيكل ، و « الحياة والأدب » لسلامه موسى .

وبدأ يقرأ فى شراهة ، كل شىء يقع فى يده ، واتجه أول الأمر إلى الأدب شارداً ، وظل فترة دون أن يتكيف لوضع محدود ، وقد زادت هذه الفترة على عشر سنوات .

وكانت هذه السنوات من السابعة عشرة إلى السابعة والعشرين فترة عبور عاتيه قاسية ، بين الريف والمدنية ، بين الحب والزواج ، بين الأدب والدين بين العمل الذى يبغضه و بين العمل الذى يترقبه .

وقام بين عقله وعاطفتـــه صراع طويل . كان يتحمس ويهدأ ، ويهدو ويعتدل ، كانت نفسه بوتقة التجربه لكل شىء . وبوتقة التجربة لرجل علم نفسه وثقفها ، وأفاد من كل ما قرأ من دراسات وبحوث .

وكان أبرز ما استفاد به علم النفس الحديث ، فقد استوعب عناصره وطبقها على نفسه ، وأفاد منها فى سبيل تكوين شخصية مثالية ، تتخلص قدر الإمكان من الوراثيات والتعرضات القديمة .

واستهدف السمو والارتفاع فوق الأعصاب المنهوكة ، والعواصف التى خلقتها البيئة وتركت جذورها فى النفس .

كان ولا يزال كلفا أشد الكلف بالأدب الوجدانى . . الأدب الذاتى الذى يتحدث من الداخل إلى الخارج ، وكان الريف يغريه بالكتابة عن ذاته ويدور حول نفسه ويرسم صورة الحب الممتزج بالحرمان ، وبدأ أدبه أشبه بنوحات قاسية مريرة ، وكانت كلمات « محاريب الحرمان » و « فى خضم الحياة »

هى أبرز عناوينه . وارتبط الحب والأدب فى نفس صاحبنا . وكان محبا محبوباً ، وهنا بدأ يتدفق .

بدأ حياته الأدبية بالثورة . وكان أول مقال له فى مجلة الإنذار سنة ١٩٣٢ « معول فى الأدب » وكان كتابه الأول « عرائس البكارى » الذى صدر عام ١٩٣٨ مجموعة من مقالات النقد الثائرة على الشعر والنثر . ولم يدع صحيفة أسبوعية أو إقليمية لم يكتب فيها .

وكان رؤساء تحرير الصحف فى ذلك الوقت : داود بركات ، أحمد حافظ عوض ، عبد القادر حمزه . وتوفيق دياب . وقد واصل رسائله اليهم يرفق بها قطعاً متناثرة من أدبه ، فنشر له عبد القادر حمزة مره ومره .

وكتب إلى زكى مبارك والزيات وابراهيم المصرى .. خطابات من نار قال لهم فيها : إن الأدباء فى مصر لا يعرفون إلا الوجوه والأصدقاء .

ومن خطابه إلى الأستاذ الزيات قوله :

« .. دفعنى إخلاصك المتفانى ، وهذا الصدق والإيمان الذى تنطوى عليه روحك الأدبية إلى التوجه إليك منذ أصدرت رسالتك لولا أن الريف قد أضجرنى دون الوصول إليك . لقد غودنا أدباء مصر الصد الجميل وراض نفوسنا ما لقيناه من إعراض وإغضاء ، كأن الأديب الذى لا يعيش فى القاهرة لا يحق له أن يندمج فى زمرة الأدباء ، وسوف يخيب هذا الظن بفضل الرسالة . وأحسب أن الفرصة لم تحقق للرسالة أن تواجه هذا الجانب الخابى المظلم الذى لو امتدت إليه يد خيرة بمشعل النور لاستطاع أن يصل أصحابه إلى عليا مراتب الأدب الرفيع ، إن فى الريف والأقاليم أدباء ، وفيه قوى ثقافية تتآكل وتموت وتندثر دون أن يدرى بها أحد .

هذه القوى ـ أهيب بالرسالة ـ أن تسعفها بالحياة فان فيها لخيراً كثيراً

وان فى طواياها لمعانى فياضة بالرسالة العليا ، بيد أن روح الأدب فى القاهرة قد اعتادت هذا اللون من الارستقراطية ، فاذلت هذه الأرواح الحية وهذه الأقلام التى يوجهها صدق المقصد وبراءة النزعة .

لقد ألف الأدب فى مصر أن يعرف الوجوه والأسماء فالقى بما تنتجه هذه الأقلام إلى سلة المهملات . وهو فى كثير من الأحيان أوقى وأنضج وأغزر مادة من كثير مما ينشر على القراء ..»

ولم يجب الزيات .. وألقى الخطاب ـ أيضا ـ فى سلة المهملات .

*

وقدم لكتاب كان قد أعده فى ذلك الوقت عام ١٩٣٩ يقول :

هذا كتاب مظلوم ، مظلوم منذ أن صافحت عيناه أنوار الحياه وسيظل مظلوما إلى أن يخلق فى مصر جيل جديد يقدر الأعمال ولا يقدر الأسماء ، ويعرف مقاييس الأدب الصحيح بعيدة عن وثنية الصحافة . لا أقول هذا مفاخراً بأنى أنتجت ، وإنما أقوله وأنا واثق بأن الشباب الأديب الذى تقصيه الحياة فى الريف لابد أن تخمد روحه وتموت معالم أدبه ، لأن مصر قد عدمت المنصفين ، اليس هذا نوع من الارستقراطية البغيضة ، أليس هو ضرب من الاحتكار الشنيع ؟

وماذا نعمل وقد قضى علينا أن نعيش فى الريف ، وأن نزاول أعمالا من شأنها أن لا تفسح لنا مجال الانتاج الأدبى ، فاذا استطعنا بعد أن ننشىء مثل هذه الدراسات فنحن لا نستطيع أن نجد فسحة الوقت والمال لإبراز ما ننتج .

وقد دفعه هذا إلى أن يهرب فى ذات ليلة ليأخذ قطار الصعيد الذى يتحرك من بلده فى منتصف الليل إلى القاهرة ليعمل فى الصحافة فى السن الباكر فى صحيفة كان يصدرها أحد أصدقاء والده ، وكان يكتب لها من حين الى حين

لولا أن ضبطه بعض أقاربه قبل موعد القطار بدقائق وأعادوه الى البيت (١) .

وضاق بالحياة .. ولكنه احب أدب زكى مبارك وأغراه هذا اللون المشبع بالهجاء الذى كان يكتبه مبارك رحمه الله فى البلاغ عام ١٩٣٢ . وكان البلاغ مساء الجمعة طلبته ليقرأ الحديث ذى شجون .

وأرسل اليه خطابا ثائراً وقال له انه اذا لم يتلق رداً فانه سيتوارى عن عن أنظار الناس الى حيث لا يعلم الا الله .

وأرسل رحمه الله اليه الرد رفيقـــا حلواً يخفف عنه آلامه ويعزيه بأن ما وقع له الآن قد وقع للأدباء جميعا من قبل « فلا تبتئس ولا تحزن وانتظر دورك من النجاح فانه لن يخطئك ما دمت على قدر من العلم والذكاء »

وفى مساء الجمعة ٢٦ أغسطس ١٩٣٢ صدر البلاغ يحمل باب « الحديث ذى شجون » وفى أحد فصول الحديث هذا المقال .

كتب زكى مبارك تحت عنوان « أسره القلم » يقول :

هذا اسم وقع مصادفة فى خطاب تلقيته من أديب شاب يشكو ما سماه : « أقوالا تنشر فى الجرائد وليس هناك ذرة من أعمال كأن الحياة أقوال فقط »

وقصة ذلك الاديب الشاب تتلخص فى أنه يقرأ كل يوم تقريبا كلمات متناثرة فى الصحف عن واجب الكتاب المشاهير فى تشجيع الشبان المبتدئين فى الأدب ، وأنه انتهى بعد التجربة الى ان تلك الكلمات لا تخرج عن الكلمة المعروفة « اقرأ تفرح ، جرب تحزن » .

وقد شاء أدبه أن يحسن الظن بصاحب الحديث ذى شجون ، فكتب اليه يساله عما ينتظره اديب شاب من تشجيع كبار الكتاب .

---

(١) جريدة الامانى القومية التى كان يصدرها المرحوم محمد ابراهيم عبد الله الديروطى .

وأنا أجيب ذلك الأديب الشاب بأنه ليس فى مصر شىء اسمه « أسرة القلم » كما أنه ليس فى الوجود طائر اسمه العنقاء ، وانما هى ألفاظ اخترعت اختراعا بدون ان يكون لها مسميات ، وليس فى هذا الكلام شىء من التشاؤم والعياذ بالله ! وانما هى حقائق نقدمها لشبابنا الذين يخدعون كثيراً بأباطيل الكتاب.

ومن عجيب الأمر أن ذلك الشاب يعتب على احدى المجلات لأنها رفضت ان تقبل منه مقالا .

ان الصحف ايها الشاب المخدوع قوى هائلة جدا ، وهى تحتاج الى عقول جبارة لا تعرف الرحمة ، وليس فى قاموس الصحافة كلمة تشجع الشبان ، ولو انها فعلت ذلك لماتت لساعتها ، ولا يشجع الشبان الا الصحف الصغيرة التى اطمأنت الى البوار والكساد ، فاعرف ذلك وتسلح للمستقبل لتكون عضواً فيما أنت أسرة القلم . كما شاء الخيال .

ان ذلك الشاب ينتظر تشجيع كبار الكتاب ، فليعلم أصلحه الله ان بعض كتاب مصر يتبادلون (مخلصين) ألوانا من الضغائن والأحقاد ، وقد يتفق أن ينشر احدهم كتابا فتغفل طائفة من الصحف تتجاهل الكتاب والمؤلف فى لؤم بشع لا يقوى عليه الا الفاجرون ، وقد يتفق لإحدى المجلات أن تأخذ أقوال مشاهير الكتاب فى بعض المسائل . ثم تغمض عينها عمدا عن فريق من الكتاب لئلا يكون فى استفتائهم ما يشعر بأنهم (ناس فى الوجود)

فليعلم شبابنا ان الحياة جهاد وجلاد ونضال .

ان الرحمة شىء جميل ، ولكن دنيانا لم يقم فيها بناء واحد على أساس الرحمة ، والطبيعة نفسها لم يتسق فيها وضع واحد على أساس الإشفاق ، وانما قام كل شىء فى الحياة على أساس القهر والغلبة ، ونحن فى الدنيا نعيش على شريعة الاسماك . وليس فى نفسى ـ شهد الله ـ لؤم يحملنى على تقرير ذلك ،

ولو كنت لئيما لأخفيت هذه الحقائق وتلقيت ذلك الأديب الشاب ببعض ما تعود من الكلام المعسول .

إن دنيانا لا حظ فيها لغير الأقوياء فمن خانته عزيمته كان خليقا بأن يلقى فيها أشنع ضروب الشقاء .

والنتيجه أن ذلك الأديب الشاب طلب معاونتى فى إذاعة أدبه فأعطيته درساً فى الفلسفة ! »

*

ومنذ ذلك اليوم تعلم صاحبنا كيف يعتمد على نفسه ولا يلجأ لأحد فعاش يقطع حياته بالعرض . ولا يبالى متى يصل . وفعلا كان الطريق طويلا وشاقا . كان هنـــاك الذين يثبطون الهمم ويقولون أين يذهب الريفيون فى القاهرة وكيف يجدون المجال بين هذه القوى الضخمة . ولم يكن من اليسير على النفس التى آمنت بقدرتهـا على أن تعمل أن تتراجع مرة أخرى إلى الوراء .

أصدر كتابه الأول فى النقد الأدبى سنة ١٩٣٩ ولم يرض نفسه فقد كان يطمع فى مؤلف ضخم يضم إنتاجه كله ، ولم يرض نفسه تلك الرسائل التى كان ينشرها فى صحف أسيوط والأنذار والأخلاق والنادى وكلها صحف إقليمية .

وجاءت صحيفة القاهرة التى تصدر فى طنطا ففتحت له أبوابها وجاءت صحيفة الأفكار وكان يشرف عليها صديقه « حمدان » . فبدأ يكتب أسبوعيا .

ولـكن هل أرضاه هذا وأحس بأنه يؤدى واجبه ؟ كلا . وبدأ يكتب فى « الوادى » خواطر يوميه بعنوان « جولات » . ودخل فى صراع مع الأستاذ رسلان البقى الذى كان يكتب بعنوان « رزاز » وشغل نفسه بكتابات منوعه ولـكنه كان يحس بنقص كبير . كان فى أعماق نفسه ذلك الأمل الضخم فى أن يسافر إلى القاهرة ويشترك فى حركتها الادبية ولـكنه عاش أكثر من عشر سنين

قبل أن يحقق هذا الأمل .. وسافر إلى القاهرة فعلا ، والتقى بالدكتور زكى مبارك ، وكان قد واعده على أن يلقاه خارجا من دار الإذاعة ، فما أن رآه حتى بدأ يحدثه فى ثورة عجيبة .

وحاول زكى مبارك أن يعنفه بأن يترك الأدب ، وعجب هو لذلك وقال له : هذه رغبة صادقة فكيف أقتلها ، وقال له زكى مبارك بصوت مسرحى : اقتلها قبل أن تقتلك .. ومضى يدلل على أن كل كتابنا الذين يعملون فى الأدب والصحافة لا يملكون قوت يومهم . ودلل على ذلك بالعقاد الذى لقيناه مصادفة ونحن فى طريقنا إلى محل أسديه الحلوانى وقال إن هذا الكاتب لا يملك قوت يومه ! وكان العقاد فى تلك الأيام قد ترك روزاليوسف اليومية وانقطع فترة عن العمل . وحاول صاحبنا أن يراجعه فمضى زكى مبارك يقول : لا تصدق ما كان يقال من أن فلاناً الشاعر دخل قصر الرشيد وأنشده قصيدة فاعطاه الف دينار فهذا كله كذب صراح . ولعله لم يأخذ مليما واحداً .

وعاد من القاهرة ضيقاً بزكى مبارك . وطوى أوراقه وكتبه ومضى يعد رسالة فى التجاره مع إحدى الجامعات الأوربية شهوراً ، ولكنه لم يلبث أن أحس برغبته الدافقه فى العودة إلى ورد الأدب .. وعاد .

وبعد سنوات كانت جريدة « الأفكار » تحمل دراسة عن زكى مبارك فى أكثر من خمسة عشر فصلا . وسر بها زكى مبارك وأهدى له بعض كتبه .

*

وبدأت بينه وبين « حمدان [1] » صداقة أدبية بالمراسله !

وامتدت هذه الصداقة حتى أنه عندما عاد إلى القاهرة نزل عنده ، وربط الود بينهما برباط صداقة وطيدة . وقام حمدان نيابة عن صديقه فطبع له كتابه عن « النفس الإنسانية » .

---

(١) هو الصديق الوفى الاستاذ الكاتب الاديب محمد محمود حمدان .

وهدى هذا الكتاب إلى رجل كبير « باشا » كان رئيسه الأعلى فى المؤسسه التى كان يعمل فيها .. وقال له فى صدر الإهداء هذه العبارات :

« لما كنت أنتسب إليكم من جهتين ومن أسرتين وفى ميدانين ، ولما كنت عضواً فى أسرة أنت رئيسها فانى أرفع إليكم بهذا الكتيب الصغير رغبة فى الإنصاف وطلباً للاعزاز وأملا فى رفع إصار الظلم عن كواهل مؤلفه المغمور .

إن لى فى عالم الفكر مطامح وآمالا يقتلها الريف بظلمته والعمل بجهده ومشقته ؛ وإن لى فى دنيا الأدب والبيان لرغبة ، ومن هذه الرغبة أستمد القوة على الكفاح الذى سوف يعزينى حتى أنتصر او أموت .

والقاهرة يا سيدى هى ميدان الظفر ومدقد الرجاء فى ذلك الكفاح وأنت لمثلى خير محراب .. »

وكاد أن يتم له ذلك فيصل إلى القاهرة قبل خمس سنوات من الموعد الذى وصل فيه ، ولكن رئيسه المباشر كان يعرف الأمر الذى أصدره ذلك الكبير فاوقفه حتى لا يغادره الكاتب الأديب الذى كان سناده الأول فى عمله . وتبخر ذلك الوعد الذى صدر بنقله .

وأخيراً ، وصل إلى القاهرة رغم كل العقبات التى قامت فى طريقه .. خرج مهاجراً كما يخرج المؤمن بعقيدة اضطهدت فى بيئته ، فكان لاسبيل له إلا أن يرحل ويضرب فى الأرض .. وفتحت له القاهرة صدرها واستقبلته ، واستطاع فى خلال سنوات قليلة أن يحقق أمله إلى أبعد حد دون أن يعتمد على أحد ، وأفاد من كل هذه التجارب .

وجاء الأستاذ أحمد حسن الزيات عام ١٩٥٢ أى بعد عشر سنوات من تاريخ الخطابات التى ألقيت فى سلة المهملات يطلب إليه ملحاً أن يكتب للرسالة وكان يتلق هذ الرغبة وهو يبتسم ، فقد أعادت إليه ذكرى تلك الفصول التى كان يرسلها من الريف ؛ وكتب صاحبنا المقال الأول فى الرسالة اه

يوم فى ديروط

كان القطار السريع يقطع الطريق من القاهرة إلى ديروط ، فى مناسبة كنت حريصا على أن أرى فيها بلدى فقد كانت أيام « الجلاء » تظلنا ، وكانت ديروط إحدى البلاد التى لعبت فى ثورة ١٩١٩ دوراً ضخما وقدمت ضحايا وشهداء .

وتذكرت وأنا أمتع نفسى بالمقعد الوثير فى عربة الهواء المكيف كيف أننى خرجت من بلدى منذ عشر سنوات ، هاربا من الوظيفة ، لأفتح صفحة جديدة فى حياتى ، ولأبدأ حياة أخرى ، كانت رؤاها وأحلامها تملأ نفسى وتطغى على كل شىء . حتى لقد ضقت بالحياة وفقدت كل لذة فيها ، تماما كما حدث للغزالى فى طوس قبل هجرته إلى دمشق .

تذكرت أننى منذ عشر سنوات خرجت من ديروط ميمما شطر القاهرة ،

أشبه بها من الوسط الذى كنت أعيش فيه . الوسط الضائق الذى ضغط على صدرى عشر سنوات قضيتها موظفا فى أحد المصارف ، والنار تأكل قلبى حرقة وشوقا إلى القاهرة وإلى الصحافة .

وها أنذا قد أمضيت فى القاهرة عشر سنوات فهل ترانى حققت هدفى على الوجه الذى كنت أطمع فيه . ما أرانى فعلت ؛ فقد وجدت الصحافة منذ اليوم الأول تكاد تبتلعنى وتستأجرنى وتدفع لى القرش لكى تحولنى إلى آلة صماء . ولتنسينى فنى الأصيل « الفكر » وتدفعنى بعيداً عنه . حقا إننى وصلت إلى كثير مما أردت وقطعت شوطا طويلا . كان يمكن أن يكون أبعد أثرا لو أننى عرفت تلك الأساليب التى يصطنعها الأدباء فى مصر .

إننى ما زلت أكافح عملية « التيه » الصحفى والدوامة الصحفية الخاطفة السريعة ، وإتمامى فوهة المطبعة المفتوحة ، أكافح كل ذلك حتى لا تعوقنى عن هدفى الأصيل .

لقد كنت أظن يوم جئت القاهرة فى (أبريل ١٩٤٦) إن الطريق معبداً وسهلا وأن وصولى إلى القاهرة يكفى وحده ليحقق الأمل ، ولكنى كنت واهما ، فما أقسى عملية بناء شخصية الأديب المفكر — لا الكاتب الصحفى — فى هذا المحيط القلق الصخاب المضطرب الذى تواردت عليه ظروف وظروف والذى يوشك اليوم فى عهد البناء أن يأخذ وضعا سليما . فقد كان فى خلال الفترة الماضية تتدافعه رغبات وأهواء ، ومذاهب واتجاهات ، متعددة مختلفة ما أقسى المجهود الذى يبذله الكاتب الحر الذى تأنف نفسه أن يكون تلميذاً أو تابعا أو سائراً فى ركب كاتب مشهور ! ولا أقول كبير !

انى أؤمن بالفكر ايمانا « ريفيا » خالصا فيه الكرامة والاعتداد والثقة ، ولا أقبل أساليب الوصول البراقة العاجلة والخاطفة والقائمة على التزلف أو الاستجداء .

.. مرت هذه الخواطر بنفسي وأنا جالس في مقعدى الوثير في عربة تكييف الهواء الأنيقة . وأنا أرنو على مدى البصر من النافذة الى الحقول التى تمتد يمينا وشمالا وترسم صورة الماضي حينما كنا نعيش فيها ونشم هوائها ونتحدث مع أهلها .

والإبراهيمية تجرى بجوار القطار مصاحبة له لا تفارقه لحظه ، هذه الإبراهيمية التي ولدت على ضفافها ، وشببت أرقبها وأناجيها ، وأتحدث اليها كل غروب ، هناك في أطراف ديروط ، حيث يحلو لى الجلوس ساعات . وأنا ارى فرعها « بحر يوسف » وهو ينطلق امام المدرسة في طريقه الى الفيوم .

وعندما توقف القطار السريع في ديروط ، ليسلمنى الى موطنى ، تذكرت كيف كنت وانا طفل ادع كل شيء في يدى لأخرج كل يوم انظر الى هذا القطار بعيون مفتوحه ، كأنما اريد ان استوعب اكثر ما استطيع من صور السعداء الراكبين فيه .

ترى هل كان يطوف في خاطرى يوما ان يتاح لى ان اكون احد هؤلاء الراكبين ؟

ومضيت اسير في ديروط ، وانظر حولى ، وقلبي يخفق ، انها نفس الوجوه واللمحات التى عشت معها طويلا ، ورافقتهـــا سنوات ، تبعث من جديد لتذكرنى بالماضى .

وهناك في حنايا مكتبة البيت الكبير التقطت يدى كتابا ، فنفضت من عليه الغبار ، فاذا هو اول كتاب نشرته عام ١٩٣٨ بعنوان « عرائس البكارى »

واذا بى اجد فصلا عن ديروط « الخالدة » كتبته اذ ذاك وقلت فيه بلفظى في هذا التاريخ البعيد .

« ان ديروط بلد ترضى رغبه الفنان وتملأ نفسه بالشعور الراضى السعيد

فان الطبيعة هناك تنف كشعن جمال ساحر فى الليالى المقمرة . وأنت تسير على قناطرها تشعر ان الطبيعة تستجم . !

وكل ما حولك فاتن مشرق كأنه الصبح والأشجار هناك من بعيد تضطرب وترتعد وتسر الى بعضها حديثا طويلا .

ولقد وهب الله ديروط من البحار ما احاطها احاطة السوار بالمعصم فحيث القيت بصرك تبدت لك صور فاتنة . اذا اتجهت ناحية الشمال حيث تحاذى اليوسفى ـ تلك الدجلة الشعرية ـ أو يممت الى الجنوب حيث « الرياح » واينما تمضى فى الطريق تشعر بالروعة ، والصمت ، والسكون . هناك توحى الملائكة والشياطين فى همساتها الإيمان والشعر والفن والخلود . وتكشف عن لمحات الخير والجمال فى الوجوه . ويصبغ بالحيرة فى ارواح البوهيميين .

وتذهب فى ديروط وتوغل فيها واذ انت لا تكاد تنتهى من مصاحبة الابراهيمية وقناطرها الخالدة حتى تتكشف لك ترعة « الساحلية » وهى تنطلق متئدة فى فتوة وشباب .

وامسيات ديروط هناك بجوار الغابة الفينانة الوارفة ، امسيات رائعة لأنها تملأ النفس فتنة بمنظر الترعة الصغيرة وهى تنساب فى وداعة وهدوء ومن حولها العشب النامى والصمت يملأ الوجود فيزيدها قوة وجمالا . ان الروح تفنى في ذلك الجمال . تفنى فيه وهى صامتة ساهمة لأنها اذ ذاك تسبح فى محيط عميق من الشعور بالجلال .

وديروط الساحرة ، جديرة بأن تخلق الشعراء وان يهواها أهل الفن لأنها مصدر وحى خالد لهم جميعا .

وديروط لا تكشف سحرها الا فى الليل . فاذا بدت طلائع المساء وانحدرت الشمس نحو مغربها خلعت نقابها فتجلى حسنها وكلما ازداد الظلام ازدادت شاعرية وفتنة وجاذبية .

وعلى قناطر ديروط قامت صداقات مودة وحب ، ونشأت ذكريات لا تمحى من ذا الذى ينسى « ماجدوابن » التى كنا نرددها : حلمى السباعى ، محمد صالح ، حمدى قميص وأنا .

ان رجوعى إلى ديروط بعد غيبة قصيرة يفتح أمامى أبواب معان جديدة ، ويلقى إلى بوحى جديد ، وكلما غبت عنها وعدت تجددت المعانى وتفتحت صور بسامة أخرى من الجمال الخصيب .

سلام عليك يا بلدى الطيب . وسلام على ليالنا فيك وأيام . وإن كانت الأيام قد أقصتنا عنك فنحن لا نعدم أن نعود إليك كلما بزغ الهلال وأشرق البدر .

وما زالت ديروط إلى اليوم تملأ نفسى . ويخفق لها فؤادى . فقد زاد حبى لها بعد أن ارتفع بى السن . وعلمت من قراءاتى ذلك الدور الخطير الذى قامت به فى ثورة ١٩١٩ فتركت فى سجل الوطنية صفحة نقية رائعة . كان آباؤنا بين الذين شاركوا فيها .

فقد هاجم الثوار فى ديروط يوم ١٨ مارس ١٩١٩ القطار القادم من الأقصر إلى القاهرة ، فى ديروط وكان به بعض الضباط والجنود البريطانيين فقتلهم الثوار وكان عددهم ثمانية من بينهم « بوب » المفتش الإنجليزى الذى قطعه الثوار إربا وباعوه بالرطل على عربة يد .

وقد روع الإنجليز لهذه الحادثة الضخمة فانتقموا من ديروط شر الانتقام . وكانت مدرستها الابتدائية التى تعلمنا فيها معتقلا لهؤلاء الأحرار الذين استشهدوا مؤمنين بوطنهم وكانت كلماتهم قوية رائعة بالرغم من أنهم من أصحاب الجلاليب الزرق الذين كان كرومر يقول أنه جاء لإسعادهم .

ولطالما حدثنا آباؤنا عن رهبة تلك الأيام وكيف ذهب الديروطيون إلى بلدة « شلش » حيث هاجموا مركبا إنجليزيا كانت تحمل النجدات البريطانية إلى أسيوط فأطلق عليهم المركب رصاص « دمدم » بعد أن أغراهم بالتقدم ثم حصدهم حصدا إذن هما محاكمتان وقضيتان وحادثان قدم فيهما ٩١ وطنيا كلهم من ذوى الأملاك

والضباط والعمد والمشايخ والمحامين والمدرسين والطلبة والزراع والصناع من بينهم يدزباشى أبو المجد محمد الناظر وعبده ابراهيم وشفيق حنا واحمد قرشى احمد وعبد العليم فولى وعبد المجيد فولى ومحمد مرسى شحاته ورزق مراد عبدالله ومحمد مرسى محجوب وعبد الحكم عبد الباقى وفرغلى محمد مبـــارك وعبد اللطيف على عبد الله وتغيان سليمان حسان وحافظ سعد ابرهيم وعبد الرحمن حمدان موسى وعبد الجابر حمدان موسى وعبد الباقى على حمدان وعبد الله محروس وعبد الملك فرحات وراغب سويقى على وابو المجد محمد عبد الله وعبد المجيد محمد صالح حامد وفايد حسن سلامه وعبد الملك سليم ابراهيم وعبد العال عمر وراغب عبد العال هلال وسعيد محمد سعيد ومصطفى مسعود حسنين واحمد مفتاح ومحمود مفتاح وعبد الدايم عبد الرحيم ومحمد هلالى اسماعيل وعبد العليم خليفة وحسان مشرقى وأبو القمصان وثابت السيد الطباخ وعبد العظيم عوض الله حسن ومحمد ابراهيم عبد الله وكثيرون غيرهم من ديروط ومن ديرمواس التى كان لها دورا لا يقل أهمية عن دور ديروط .

وقد أعدم عدد كبير منهم ، هؤلاء الشهداء الذين ما زالت ديروط تذكرهم وتذكر بهم رمزا للبطولة .

وقد حق لنا أن نذكر « ديروط » اليوم فى عيد الجلاء . ونذكر كل شهدائنا الذين قدمتهم مصر فى خلال السبعين عاما .

وإذا كان لى فى هذه المناسبة التاريخية أن أقول كلمة فانما أذكر كتابى « اخرجوا من بلدنا » الذى كان صيحة هزت مصر عام ١٩٤٧ وجرت على الألسن فى المظاهرات كلمة خالدة وكان من وراءها اعتقال وسجن ومصادرة ومحاكمة حتى كان الجنود الإنجليز يجمعون الكتاب من السوق وكانت لوحة غلافه مثيرة وقد رسمها الرسام والى فى أول خطواته للعمل الصحفى . ثم خرج الانجليز .

صورة الغلاف : قناطر ديروط

صديقي أحمد

.. هل أستطيع أن أصور لك رفيق صباى « أحمد » رحمه الله .. هذا ما أرجوه !

كان صاحبي عبقرياً ونابغة ، ما في ذلك شك ، ولكنه كان بتركيبه وطبيعته ورواثياته ، وما صادفه في حياته من متاعب ، معقداً إلى حد يصعب معه دراسته أو تفسيره .

.. لقد كان طوال حياته ، أشبه بانسان يجرى ، إلى غاية لا يعرفها ، ولا يدركها . لم يقف لحظة في الطريق ليلقى نظرة على جمال أى منظر . كان كل شيء مهما بدا جميلا ، قليل في نظره ، وتافه . ولا يستحق التوقف أو النظر ، بالنسبه لتلك الصورة التي رسمها للغاية البعيدة !

.. أما هذه الغاية : ما هى ، ما مداها ، فذلك لم يكن معروفا له على وجه الدقة . إنه طموح ؛ يريد أن يكون إنسانا كبيراً ، متألقا ، يتحدث عنه الناس ويبدو كالشمس المشرقة . قويا محرفا . ولذلك هو يعمل ، ليل نهار ، لا يتعب ولا يكل ، حتى بدا وهو فى سن الخامسة والثلاثين . أشبه بالمكتهل الذى تغضن جبينه ، وأجهده السعى .

.. لقد صنع حياته بنفسه ، وكان نفوراً من الأهل ، فلا يستمد منهم ولا يحس نحوهم بالعاطفة الاجتماعية الكبرى ، وقد آثر الاستقلال فى كل شىء

لقد آمن منذ فجر شبابه الباكر ، بالاعتماد على نفسه ، فلم يسأل أحداً ، ومضى يشق طريقا فى الصخر ، فاستطاع بعد سنوات أن يصل إلى ما لم يصل إلية أترابه ولا زملائه ولا من حوله . ولكنه لم يقنع بما وصل إليه ، ولم يتوقف .

كان دائما يطلب المزيد ، وكان يؤمن بنفسه ، يؤمن بأنه أكبر من أن يفهمه الناس ، أو يعرفه الناس .

وكان أهله وأقاربه أجهل الناس به . كان لا يتصل بهم ، ولا هم يتصلون به ، فكانوا لا يعرفون عنه إلا القشور . لقد سلك الطريق التى اختارها هو . وعبدها ، ومضى فيها لا يسأل أحداً ، ولا يعتمد إلا على الله .

.. وكانت حكمة القدر ، قد فرضت عليه ان يدخل الحياة باكراً مع من اختيرت له ، بعد أن تحطم أمله وذهب الحب الذى ملك عليه قلبه . وقصر عنه ضعف مركزه ، وسيطرة بعض الظروف . كان حبه الأول ـ إذ ذاك ـ أكبر شىء فى حياته وكان يحس ذلك النقص ، فاندفع فى الحياة يسعى ، ليكون خليقا بأن يجمع إليه الفتاة التى أحبته وأحبها .

ولكن إرادة طاغية ، صرفتهما . وتزوجت ، هى ،

واستسلم هو للقدر ، ومن يومها لم يمض لحظة هناء ، كان أشبه بانسان سلب أعز ما عنده ، فمضى يتخبط فى الأرض على غير هدى .

كان كل نصر يصل إليه لا يحقق الأمل الذى يرجوة ، ولا يشبع النفس النهمة المضطربة ، باللهب العنيف .: ومضى يصعد الجبل الشامخ ، ولكنه كان فى كل يوم ، يواجه الشقاء وفى خلال ذلك التقى بوجهه ، ووجه ، وثالث ورابع .

وفى كل مرة ، كانت هناك « عقدة » تثور من مكمنها ،فيحس أنه لم يصل إلى مرمى . كان يحس أن امرأة ما .. ممن التقى بهن طوال عشرين عاما ، لم تفهمه إنه يزيد امرأة معينه ، هذه المرأة لم تخلق بعد ، ومضى وفى قلبه تلك الوحشة المظلمة ، وحشة الحرمان . وفى نفسه ذلك الفراغ العميق ، والهوة الواسعة ، التى لا يجرؤ إنسان أن ينظر فى أعماقها .

ومضى فى أعماقه ذلك الحنين العجيب ، يبحث عن شىء مجهول يستتر وراء الأفق هذا الشعور الغامض المبهم الذى يحس به ، عندما يرى غروب الشمس فى البحر ، أو إشراقة الشمس فى الريف ،

وظل صاحبنا عزب الفكر ، وظل يقارف الحب فى هذا السن كأى حدث ، مراهق ، وبنفس الصورة القوية الدافقة المشوقة .

كانت طبيعته المرحة السمحة ، ونفسيته المتفتحة النقية ؛ تمنحه قوة من الوجدان . وفيضا من الحنان . قل أن يتاح لمثله . آمن بأن فى نفسه منطقة فراغ موحشة رهيبة ، فكان من الضرورى أن تشغلها امرأة .

كان يبحث عن الحب ، كأنما يفتقد شيئاً ضائعاً ، فما من مرة انصرف عن عاطفة ؛ إلا وأحس أنه فى حاجه إلى عاطفة أخرى .. وكانت غايته من المرأة تبعث على الحيرة والعجب ، فهو لا يقارف المعصية ، ويثق بنفسه ، ولكنه يحب فى المرأة ذلك العنصر الذى فقده فى حياته الزوجية ، يحب فيها ذلك

المعنى من معانى الإلهام والإيحاء .. يريد أن تكون له امرأة موحية ، تمده بالأشواق الفنية ، وتواجه معه معالم الحياة العليا . وتملأ حياته بالهناء ، وتمنحه تلك الحيوية الدافقة . . وعبثاً يستطيع أن يفهم أن المرأة أعجز من أن تستطيع أداء هذا الدور الضخم .

*

وعيب صاحبنا يرجع إلى أنه أحب « الرافعى » وأمعن فى دراسة شخصياته وكتاباته ، فوصل الى الاعتقاد بأن الرافعى كان يحب وهو زوج ، وكان يجد فى هذا الحب ما كان ينقصه كفنان ورجل فكر .

وقد عرف هذا المعنى مبكراً ، وهو فى حالة نفسية مضطربة . وكان يحفظ كلمة الرافعى عن ظهر قلب ، ويرددها دوما : « وصاحب الفكر المتخيل ، إذا كان زوجا وعشق ، أو كان عاشقا وتزوج بغير من يهواها ، استطاع أن يبدع لنفسه فناً جميلا من مسرات الفكر . لا يجده العاشق ولا يناله المتزوج وأنه ليرى الزوجة من الحبيبة ، كالتمثال جمد على صورة واحدة .

ذلك أن الزوجة أمومة على قاعدتها ، أما الحبيبة فلا قاعدة لها ، وهى معان شاردة لا تستقر وفنها كله . فى أن تبقى ، هى كما هى . لجمالها يحيا كل حياة جديدة . ما دامت فناً خالصاً . وما دام سر أنوثتها فى حجابها . ومتى تزوج الرجل بمن يحبها . انتهك حجاب أنوثتها . فبطل أن يكون لها سر . . وعادت له غير من كانت . وعاد لها غير من كان. فليس يصلح الحب أساسا للسعادة فى الزواج

وذو الفن لا يفيد من الحب فائدته الصحيحة . إلا إذا جعله تحت عقله فيكون فى حبه عاقلا بجنون لطيف . ويترك العاطفة تدخل فى الفكر . وتضع فيه جمالها . وثورتها وقوتها . ومن ثم يرى مجاهدة اللذة فى الحب أسمى لذاته الفكرية . ويعرف بها ضرب الهيامن السكينة يوليه القدرة على أن يقهر الطبيعة الإنسانية ويصرفها . ويبدع فيها عمله الفنى العجيب »

وصاحبي ينظر إلى الرافعي في عبـــارته هذه ، على أنه رجل كان قد بلغ الخمسين من عمره ، فهو لا يرى الحب إلا على صورة هدأت معالمها . وخف سلطانها .

أما « أحمد » فانه يعيش في صراع نفسي دائم عنيف . إن عاطفته أقوى من من عقله ، ولذلك فهو يجن جنوناً كاملا في بعض الأحايين .

— ٢ —

ولد « أحمد » في تلك المدينة التي تحيط بها الترع إحاطة السوار بالمعصم ، والتي تتدفق على شواطئها الابراهيمية وبحر يوسف . ويجرى النيل عن يمينها وفي حدودها البعيده تقع المحالج الضخمة ، بمداخنها السامقة وتقف المراكب على سواحلها . وعلى شواطىء الابراهيمية تبدو الأشجار الباسقة وقد اكتست تلك الحلة الرائعة من الزهور الحمراء .

كان أحمد في هذه المنطقة من صعيـد مصر ، يحرص على أن يقف لينتظر القطار القادم من القاهرة ، ليحملق في وجوه أولئك القادمين من القاهرة .

كان هذا القطار يصله بالحياه التي أحبها ، لأنه يحمل الصحف والوجوه ، اى معان متعددة غامضة ، تلك التي كانت تجول بنفس هذا الشاب اليافع عندما كان يتطلع إلى القطار . وهذا المنزل الكبير القائم في نهاية البلده من الشمال ، مشرفا على الحقول الخضراء ، ومياه الفيضان الغامرة ، وهي ترتطم بقواعده ، وأضواء القمر الرائعة المحببة . وأصوات الضفادع . وهي تسامر الساهر طوال الليل بنقيقها المتصل على وتيرة واحدة . وذلك المكان الذي اتخذه صاحبنا لنفسه بين فروع أشجـــار التوت والنبق حيث يجلس وحيداً يستمع إلى أصوات العصافير تزقزق فوق الأغصان .

ولكنه مع ذلك كله ، كان قلبه يخفق للقاهرة ، كانت هذه العاصمة تغمر أقطار عاطفته كلها ، حيث هناك الأدب والمجد والحب .

ومضى أحمد يعيش فى هذه البيئة وحيداً أو كالوحيد .

قسوة أبوه وعنفه . وخلافه الدائم مع أمه ، تفسد كل شىء . هذه العصبية ، والأصوات المرتفعة والصرخات المدوية ، لم تنقطع يوما ، وكان الخصام ما يلبث أن يبدأ بين الأب والأم . ثم يمتد ، ثم يفتر ليتجدد .. ويطول ، ثم تعقبه فترة صفاء قصيرة ما يلبث بعدها أن يعود .

وفتح الشاب عينيه على هذه الطبيعة الحلوة ، هذه الحقول الواسعة العريضة الممتدة إلى نهاية الأفق . وهذا القطار الذى يسعى بالليل والنهار ، فاذا ما رقى إلى الدور الثانى صدمته وريقات أشجار التوت والنبق ، وسمع صوت العصافير وهى تغرد .. ولطالما جلس صاحبنا أمام منزله ، وألقى نظرة ذات اليمين نحو ذلك البيت الجديد ! ولطالما شاهد صاحبنا أولئك الفلاحات . وهن يرفعن أطراف ثوبهن وينحنين يملأن جرارهن بماء الوابور المتدفق العذب .

ولكن شيئاً جديداً كان يأخذ بلبه . ذلك هو وجه تلك القاهرية الحسناء . ومنظر شقتها الفاخرة وبيتها العصرى المرتب . هذا الأثاث الجميل الذى بهره : الستائر . الأرائك . النمارق .. وهذا الصوت القاهرى الجميل والرشاقة والأناقة البادية على كل شىء . وتحدثت الزوجة الشابة إلى قريبها الصغير فاحس أنها تحنو عليه . وأكدت فى نفسه ما كان يؤمن به . هو أنها من القاهرة .. مصدر النور . وأن عليه لكى يكون أديباً ، وكاتباً وإنساناً أن يقصد إلى مصدر النور .

ومضت الأيام والأعوام . وضاق صاحبنا بالريف أشد الضيق . وأنكره إنكاراً بالغا . ولكنه ظل مؤمنا بأنه لا سبيل إلى الحياة دون أن يرد القاهرة ويعيش فيها تلك الحياة التى كان يراها فى القصص . ويسمع عنها فى الأساطير

وجاء إلى القاهرة ! وبدأت الحياة تسرى فى دمه . وتملكته موجة جديدة من الإحساس . وكانت هى ترهب الحياة فى القاهرة وتنفر منها منذ يومها الأول لأنها كانت تخشى عليه من الأضواء !

وكانت بطبيعتها لا تستطيع أن تستجيب للجو الجديد .. إن التربية الريفية الجامدة . وذلك اللون الداكن من الحياة التي فتحت عيناها عليها . وقد استهلكت من نفسها كل قدرة على الابتهاج في الحياة عامة . والاستجابة لها . بل لقد قتل في نفسها حتى مجرد « الابتسام » .

وكانت طاقة « أحمد » قد اتسعت . وبدأ يمارس الحياة في القاهرة على صورتها الكاملة الحقة ..وعاش زوجا . ولكنه عاش عزبا بفكره وروحه إنه يعيش في الضوء الكامل . لعله . لو كان إنسانا عاديا لاستطاع أن يحتمل الحياة . ولكنه كان رجلا فنانا مفكرا . له نفس صافية متحرقة إلى الجمال والحب . وكان لا بد أن يهيء لنفسه المرحة جوا نقيا من الحنان والهناء .

وكانت الأزمة العاصفة التي ملأت حياته باللوعة والأسى . هي فتور طبيعة المرأة . وضعفها عن الاستجابة . وعجزها عن التسامي إليه .

وكان لصاحبنا ضمير . ولكنه أيضا كان له قلب . وكان هذا هو مصدر الصراع النفسي الدائم العنيف !! والعقدة النفسية عند صاحبي أنه « متدين » إن في قلبه تلك القوة الروحية التي تفرق بين الحلال والحرام . والعدالة والظلم وفيه الى ذلك لون من الوفاء . يبلغ أحيانا حد الصفح والعفو عمن يظلمونه ويسيئون إليه ! ولطالما حاورته في ذلك وداورته . فكنت أرى عجبا ! كان يقول لي إن قصور الإنسان عن الوصول إلى إنسان تجاهه ليس من ملكه . ولو أنه استطاع أن يملأ فراغ نفسه لفعل . إن أحدنا لا بد أن تكون طبيعته معتمدة . أما هي فلم تصل إلى قمته العالية . وأما هو فلم يقنع بحياتها المحدودة . إن طبيعته هذه المسرفة العطشى الظامئة ، هي طبيعة المفكر والفنان . وهي التي بدت أكبر من أن تقف عند الحدود .

وكان يقول لي دائما : إنه يحس بالفراغ والظمأ والقلق . فهو مضطر لأن يخلق ميدانا جديداً لعاطفته . فلأجل أن تكون في خياله فكره . لا بد أن

تـكون فى حياته امرأة .

لقد كنت أظن أن مرجع هذا إن أن أحمد تزوج مبكرا فى سن العشرين . وهو خطأ ضخم ولا شك . لاحيلة له فيه . ولـكنى أعتقد أن الزواج المبـكر وحده لم يكن هو الخطأ الوحيد !

والزواج المبـكر ــ خطأ لا شك فيه ــ لأن سن العشرين ليست بالسن التى يستطيع الشاب أن يكون ـ فيها ـ رأيه فى المرأه . ولانه لا بد من انتظار تلك الفترة المضطربة القلقه . بين سن العشرين وسن الثلاثين . ففيها تمر تطورات خطيرة وتيارات جارفة . وتتأرجح فيها الآراء بين الهوى والعقل والهدى والضلال . أقول : بالرغم من هذا . فلو أن صاحبى تزوج الفتاه التى أحبها . واختارها بمحض إرادته لما وقع فى هذه الازمه !

إن فى نفسه صورة الإحساس بأنه كان عبدا . كان شخصا مهينا سيق إلى وضع لم يكن من اختياره . وما يلبث هذا المعنى أن يتحرك فى نفسه بين آن وآن . فيعذبه بصورة مرهقة . ويدفعه إلى أن يحطم ويدمر كالصواعق . . وكأنما يرى أنه ما دام قد أرغم أو سيق أو فرض عليه . فلا بد ان يؤكد حريته . بأن يختار عن طريق الحب !

هل يكفى هذا التشريح نفسية « أحمد » ؟

ما أظن . . فان من العوامل الضخمه التى تـكون شخصيته . خوفه من المستقبل . هذا الخوف الذى يصارعه فى عنف . ويدفعه إلى أن يقيم جدارا ضخما يحجب عنه خطرا يتوهم أنه يهدده بين حين وحين .

إنه يحس أنه فى حاجة إلى أن يـكون من ذوى المورد الثابت . والمستقبل المضمون . وتصطرع فى نفسه عوامل الغد الغامض . ولذلك فهو شحيح بخيل وهو يتصور حياته وقد توقف مورده أو انقطع عمله . كأنما هو نقص جديد فى حياته بالنسبة لامرأة يحبها .

ويمضى الصراع فى نفس صاحبى بين الحب والزواج إلى ابعد مدى !

هل يتزوج الفتاة التى أحبها ؟ وماذا بعد ذلك ؟ لاشك انه سوف ينصرف عنها ليبحث عن الصورة الحالمه لامرأة لايلقاها إلا فى صورة معينة من التجمل والاناقة ويتجه تفكيره نحو الحياة مع المرأة التى أحبها . على صورة العشيقة لا الزوجة . وهنا يرتطم بالعامل الدينى كحاجز ضخم .

إنه لن يستطيع أن يتصور نفسه مع امرأة ليست له . إنه لا يرى الحب إلا صورة من صور الزواج . ولا يرى الرابطة بينه وبين من يحب إلا فى إطارها القدسى . وهو لا يقدم على التغيير . إنه يرى نفسه قاطع طريق . وبقدر ما يؤمن بحقه فى المتاع الروحى . ينظر إليه على انه شىء لا يدعو إلى تحطيم القواعد القائمة !

وهو لا يستطيع أن يتصور السعادة إلى جوار المرأة التى يحبها . بينما يستشعر فى قرارة ضميرة . إن فى الجانب الآخر من تتعذب وتتألم . وهذا هو السر فى أنه يحترق كالشمعة . لكنه يعود فيترقب الحل فى صورة حكم من احكام القدر . وجاء حكم القدر بموته وهو فى إبان ريعانه .

لقد كان يحملنى الامانة فى ان اروى للناس قصته . وها أنذا قد فعلت عليك رحمة الله يا أخى أحمد . يا رفيق صباى .

١٩٥٣ .

الزحف المقدس

١٤ أغسطس ١٩٥٦

أكتب هذا فى الأيام الخالدة التاريخية التى نعيش فيها ، بعد الجلاء ، فقد كان يوم ١٨ يونيو سنة ١٩٥٦ يوما فاصلا فى تاريخنا بين ماض انطوى وبين مستقبل غر مضىء . حتى ليمكن بحق أن يوصف هذا اليوم بأنه «مطلع الشمس» بعد أن أطلق على يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ « الفجر الصادق » . ففى يوم الجلاء كان آخر جندى بريطانى قد غادر أراضينا ورفع محرر مصر جمال عبد الناصر العلم المصرى فوق آخر موقع كانت تحتله القوات الغادرة التى دخلت بلادنا بالخديعة والدس فى ١١ يوليو ١٨٨٢ . ومنذ ذلك اليوم عاشت مصر حياة مظلمة شاقة تصارع الاحتلال والاستبداد . وتقاوم القصر والمعتمد البريطانى الذى وصف فى كثير من الأوقات بأنه الحاكم الفعلى لمصر . وكانت فرحة غامرة عندما حققت مصر هذا الأمل الذى ظل يداعب أحلام شبابها ومجاهديها سبعين عاما . والذى حاول تحقيقه كثير من الأبرار وعجز كثير من الساسة عن

تحقيقه حتى جاءت ثورة ١٩٥٢ لختمت هذا الكفاح الطويل المرير فى سبيل الحريه بتحقيق الجلاء . ولكن هل اكتفت ثورة مصر الكبرى بقيادة جمال عبد الناصر بالوقوف عند الحد بالإضافة إلى تحرير الفلاح وإلغاء الإقطاع والملكية وسحق الرجعية والتحكم والحزبية وجمع الأمة كلها فى صف واحد .

محال أن تقف الثورة عند هذا الحد .. فقد قال « جمال عبد الناصر » كلمته التاريخية بمناسبة الجلاء : إن أهل هذا الجيل على موعد مع القدر ، وأن الزحف المقدس يبدأ الآن صفاً واحداً .

وهزتنى هذه العبارة من أعماق وذكرت أننى قرأت هذه الكلمة للمرة الأولى فى كتابه فلسفة الثورة مصوراً الموقف بعد يوم ٢٣ يوليو : « كنت أتصور دورنا على أنه طليعة الفدائيين ، وكنت أظن أن دورنا هذا لايستغرق أكثر من بضع ساعات . ويأتى بعد ذلك الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الأكبر .. » والآن وبعد أربع سنوات وبعد أن تحطمت كل الصخور التى كانت تقف أمام الزحف المقدس نجدنا فعلا نسير صفاً واحداً إلى الزحف المقدس . وأمضيت أياما بعد ١٨ يونيو أحاول أن أرسم فى ذهنى صورة لهذا الزحف المقدس . ولكن الأيام لم تمهلنى أكثر من تسعة وثلاثين يوما .

لقد أخذت أحصى فى كلمات جمال عبد الناصر التى ألقاها فى مئات المناسبات خلال الأعوام الأربع ، أخذت أحصى الخطوط العامة لزحفنا « بعد الجلاء » . فوجدت أشياء كثيرة جديرة بأن نبدأ فى تطبيقها فوراً . مما لفت نظرنا إليه « لكى نقيم عهداً جديداً مبنياً على حرية الفكر والتخلص من الاستعمار الفكرى - الدعامة الأساسية لهذا الوطن هو بناء الجماعة بعد الفردية - لا عبيد ولا أسياد - الاقتصاد فى العواطف - تطهير النفوس من النفعيه والاستغلال - التخلص من أرجاس الماضى التركى والانجليزى ومن رواسب التعفن السياسى - - بناء الشخصية المصرية من جديد - المبادىء لا الأشخاص - استبد بنا التواكل مدة طويلة - آثار السيوط على ظهورنا - أوجد فينا الاستعمار طغاة ومستكينون ومستسلمون - لنستأصل هذه الاستكانة - علينا ألا ننخدع -

أربعمائة سنة كانت شداءاً على أجدادنا ـ الاستباق وراء العواطف كان طريقنا إلى الخداع والتضليل ـ تحرير العقل من الماضي البغيض ـ العزة والكرامة ـ رسالة وهدف ـ نموت ونحن نكافح ـ بناء وطن جديد ـ وعى قوة ـ نحكم العقل ـ نسيان الماضي أخطر الأعداء ـ مخاطبة العقل بعد أن خاطبنا العاطفة طويلا ـ نحن الشرق أصحاب المجد ـ كافح آباؤنا ـ التخلص من الفردية ـ ينقصنا أن نصحح شخصيتنا ـ التخلص من روح الطغيان والاستبداد »

هذه كلمات جديدة لم نسمعها من قبل جمال عبد الناصر، كلمات تحدد موقفنا من الماضي والحاضر والمستقبل . وتصور لنا أننا دخلنا مرحلة البناء ، إنها ترسم أمامنا الطريق لبناء شخصيتنا الجديدة .

وذكرت انى تأثرت بهذا المعنى وانا اكتب الحلقة الأولى من دراستى للثورة وجمال عبد الناصر فى ٧ يوليو ١٩٥٥ . فقلت[1] بالحرف الواحد :
« أبرز ما يعجب المحلل النفسى لشخصية جمال عبد الناصر أنه يفهم فى عمق ماهى علة النقص الذى نعانيه كشعب عاش طويلا فى الأغلال . وهذا الفهم يدل على عظمة الشخصية التى تمسك بيدها مقاليد الأمور .

إن جمال عبد الناصر قد حول العقلية المصرية من وضع إلى وضع ، إنه أراد أن يخرج من أنفسنا تلك المعانى القديمة التى عشنا بها طويلا فى عهود الحرمان والذل .

هذه الفلسفة الانطوائية المتواكلة ، فلسفة الجبن والتواكل والخنوع والتزلف والنفاق ، على هذه المعانى كانت تقوم حياتنا . لم يكن فى استطاعة أى فرد أن يصل إلا عن هذا الطريق ، فكان طبيعياً أن يحطم قائد الثورة هذه الاصنام وأن يمزق هذه الأوهام وأن يحرر النفوس من هذه العقائد الباطلة ، وأن ينقلنا إلى فلسفة أخرى قائمة على القوة والحرية والعزه تتمثل

(١) ص : ٨٧ من كتابى جمال عبد الناصر والثورة

فى الأهداف العليا التى حملها جمال عبد الناصر ليلة ٢٣ يوليو ، فقد جاء بمبدأ « ارفع رأسك يا أخى » ودعا إلى التحرر من الخوف والنفاق ، وضرب المثل على ذلك بعشرات من الوقائع الملموسة .

لقد حرر السياسة من الأسرار والنفاق وأساليب الصالونات القديم البالى القائم على المداورة والمناورة : وقال : إن قوى الخير ستدوس قوى الشر ، وأن الإيمان بالله والوطن هو مفتاح الظفر والنجاح »

.. ومضيت أفكر طويلا فى « الزحف المقدس »

من أين يبدأ ، ومضيت أتطلع فى الأفق لأنظر بشائره .. وكان كثيرون مثلى .. ولم يدعنا « جمال عبد الناصر » فى حيرتنا طويلا .

فى مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٦ . هذا المساء الخالد على الدهر ؛ أعلن جمال عبد الناصر استرداد قناة السويس وإعلان تأميم شركة القناة .

كنت جالساً بمفردى فى مكتبى أستمع إلى الحديث الرائع المطول ، الذى عودنا الرئيس القائد أن يوجهه إلينا بين حين وحين ، يشرح لنا فيه فى توسع وإفاضه مختلف شئون الوطن ، ويدرس لنا .. فلما بلغ الفقرة الخاصة بالمقارنة التى قامت فى نفسه بين « بلاك » مدير البنك الدولى وبين « دلسبس » الأفاق العالمى الذى خدع سعيد ، دهشت لهذا التصوير القصصى الرائع الذى خلص منه إلى إعلان القنبلة الضخمة التى هزت الدنيا .

ولم أستطع البقاء فى غرفتى ، فخرجت إلى الشارع أحاول أن أجد أحداً من المارين أتحدث معه وأصرف تلك الطاقة الضخمة التى فى نفسى من فرحة الشعور بتأميم شركة القنال ، وتصورت كيف انزعج الغرب فى هذه اللحظة بالذات وقد أفاق وزرائه من النوم على صوت « ناصر » المدوى القوى .

لقد كان القرار خطيراً هز نفسية الشعب المصرى هزاً وأشاع فى النفوس

مشاعر بعيدة عميقة فى الإيمان بعظمة قائدنا « جمال »

وعدت بالذاكرة إلى اليوم الذى زرت فيه القناة فى بورسعيد ، فى صيف عام ١٩٥١ وأتيح لنا أن نركب لنشاً بخارياً سبح بنا طويلا ودار بنا دورات فى مداخل القناه ، ورأينا كيف كان يسيطر « الأجانب » على قناتنا . التى بنيناها بدمائنا وعرقنا .

كان منظر القنال رائعاً ونحن نشقه بالزورق البخـــارى فى ملتقى البحر الأبيض المتوسط بالقنال وعلى قمته يقف تمثال دى ليسبس .

ومضيت أقرأ الصحف يوما بعد يوم ، وأطالع الفصول التى تكتبها عن القناه .. ولشد ما كانت دهشتى بالغة حين رأيت أن سطراً هاما من خطـــاب الرئيس جمال لم تتناوله الصحف بالدراسة أو التفصيل ، وذلك قوله : « مات ١٢٠ ألف عامل فى حفر القناه دون أن يأخذوا أجراً . حفرت القناة بأرواحنا وجماجمنا ودمائنا .. »

ومضيت إلى دار الكتب أقرأ عدداً من كتب قنال السويس لأبحث عن أبنائنا الذين طواهم تراب القنـــال : . والذين خرجوا من بيوتهم بين بكاء زوجاتهم وأبنائهم وقد صنعت لهم زوجاتهم ذلك العيش الجاف الذى يعرفه الريف والذى يعيش طويلا ، ومضى هؤلاء الذين فرضت عليهم السخرة وقد حملوا فوق أكتافهم هذا الكيس من الطعـــام الجاف الذى كانوا يأكلونه دون إدام .

هؤلاء الذين أخرجوا بالكرباج من ديارهم عن طريق الملتزمين الذين أخذوا يطوفون بالقرى والبلاد يسوقون أمامهم زهرة شباب البلاد وأمضوا أيامهم هناك والسياط تلهب ظهورهم ، والشمس المحرقة تلفح وجوههم وجلودهم وهم يعملون اثنى عشر ساعة فى اليوم ودون أن يقدم لهم غذاء كاف . ولم يحصل

العمال عن أجر فى خلال هذه المدة .

ورأيت أن بعض المؤرخين قد أنصف هؤلاء العمال ، فان أرنولد واسون يقول : « إنى أعترف بفضل هؤلاء الضحايا الذين ينبغى أن يقام لهم تمثال من المرمر الشفاف كتمثال الجندى المجهول ، وذلك بعد أن جحدت الإنسانية فضلهم كما جحدت العناء الذى لاقوه » .

وكان العمل قد بدأ فى منطقة بعيدة عن الزاد والماء ، وكانت تنقل إليهم المياه على ظهور الجمال . وقد مات كثيرون ممن لم يستطيعوا الحصول على جرعة ماء .. وكان يعمل فى القناة ٣٠ ألفاً فى وقت واحد ، فاذا تصورنا أن مثل هذا العدد يكون فى طريقه إلى السويس ومثله فى طريق العودة إلى بيته لأمكننا أن نقدر ما أصاب الأسر والزراعة المصرية من الخسارة بسبب تغيب هذا العدد الجسيم عن حقولهم فى بلد لا يبلغ عدد سكانه الخمسة ملايين من الأنفس

ولعله مما يجب تسجيله أن أجر العامل كان قرشا ونصف قرش فى اليوم الواحد ، وأنهم كانوا يدفعون أجور عودتهم إلى بيوتهم ، وقد تفشت فيهم الحمى التيفودية نظراً لعدم تعود بعضهم على مناخ قناة السويس وقد انتقلت معهم إلى بلادهم فتمكنت بالأهالى فتكا ذريعاً .

وقد اقتضت أعمال شق القنال حفر ونقل ٧٢ مليون متر امكعبا من الأتربة والرمال ، وكذلك ملء البحيرات المرة الذى استغرق خمسة شهور . وقد اضرب العمال فى القناه مطالبين بأجورهم فكان جزاؤهم أن سيقوا بالسياط . وقد أدى هذا إلى وفاة أكثر من ١٢٠ ألفاً منهم . ووصل فى تقدير بعض المؤرخين إلى ٢٠٠ ألف ، وشهد العالم أجمعه للعامل المصرى وقوته وجبروته فى أداء واجبه وقد كان دى ليسبس شديد التحمس للسخرة فى الوقت الذى كان الرؤساء للعمال من الأوربين يحصلون على أجور ضخمة كانت مصدر ثرائهم .

وقد عمل العمال فى فتره انقل ٤٠٠ ألف متر مكعب من الصلصال الذى

عجزت الكراكات الضخمة عن إزالته ، وشهد المهندسون الذين أشرفوا على العمل أن الصلصال كان يحتوى على مادة فوسفورية محرقة ومميته .

*

وما أن أعلن جمال عبد الناصر تأميم شركة القنال ووقف الغرب موقف العداء وحاول إرهاب مصر بنقل القوات المسلحة إلى شرق البحر الأبيض وتجميد أرصدة مصر حتى هبت العرب هبة قوية رائعة لا يمكن أن يصورها القلم .. هبت تؤيد مصر وقائدها رائد العرب ، وقالت إن قناة السويس هى قناة العرب وتحفزت جميعها لحمل السلاح فى سبيل مصر وفى سبيل تحرير القنال وبذلك بدت القومية العربيه حقيقةواقعة فكان « مولد العملاق »

وهكذا بدأ « الزحف المقدس »

« أنور الجندى »

مؤلفات أنور الجندى

المرحلة الأولى : (١٩٣٩ – ١٩٤٨)

عرائس البكارى	١٩٣٩
الإنسانية فى الميزان	١٩٤٤
قضايا الأقطار الإسلامية (جزآن)	١٩٤٧
شمائل الرسول (ثلاثة أجزاء)	١٩٤٨
أخرجوا من بلادنا	١٩٤٧
بين لاظوغلى وقصر الدوباره	١٩٤٧
صفحات سوداء من تاريخ الأحزاب السياسية	١٩٤٧
بين الوطنية والسياسة	١٩٤٧
الصراع بين الإسلام والاستعمار (٣ أجزاء)	١٩٤٨
النيل لا يتجزأ	١٩٤٨

المرحلة الثانية (١٩٥٠ — ١٩٥٦)

قصة محمود تيمور	١٩٥١
الإمام المراغى	١٩٥٢
مجلة عطارد (جزآن)	١٩٥٣
فضائح الأحزاب السياسية	١٩٥٣
أعلام الإسلام	١٩٥٤
أضواء على حياه الأدباء المعاصرين	١٩٥٥
جمال عبد الناصر والثورة	١٩٥٥
الرسول الإنسان وأعلام الإسلام	١٩٥٥

الجباه العالية (أعلام من الشرق والغرب) ١٩٥٦
جمال عبد الناصر وكفاح الشعب ١٩٥٦
جولات فى الأدب والفن والحياة ١٩٥٦
بلا أمل (قصة) ١٩٥٦
أضواء على الحياة ١٩٥٦

تحت الطبع

X وراء كل فنان امرأة (كتب للجميع)
أضواء على تاريخ الإسلام
نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر من ١٩٠٠ — ١٩٥٠
الأعلام الألف (الجزء الاول ٢٥٠ شخصية)
يوميات عطارد
X شوقى على الشاطىء
قضايا العالم الإسلامى
بسلام

تحت الإعداد

X رسائل حب
من أمجادنا
مصابيح على الطريق
نوافذ على حياة الأدباء
لقطات سريعة
فى موعد الذكرى
الحب والعبقرية فى حياة الأعلام
نساء خالدات
لا يوم بغير سطر
نقط فوق الحروف
هؤلاء قابلتهم
لكى لا ننسى